من بلاغة البيـان النبوي

في أحاديثه حال غضبه (ﷺ)

الدكتور

الدسوقي محمد أبو غرارة

المدرس بقسم البلاغة والنقد بكلية

الدراسات الإسلامية والعربية (بنين) بدسوق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، علم القرآن، خلق الإنسان، علم البيان، أحمده – سبحانه – حمدا طيبا مباركا يليق بجوده وكرمه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، خصه ربه بكمال الفصاحة والبلاغة، وأنطقه بجوامع الكلم، وآتاه بحكمته أسرار البلاغة وفصل الخطاب، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعـــد،،،

فمن المعلوم أن منطقه (ﷺ) أبلغ كلام سمعته الآذان، وأفصح بيان استقر في الأذهان، وذلك بعد بلاغة القرآن – ولله در الجاحظ حين وصف هذا البيان المحمدي الراقي فقال: " وهو الكلام الذي قلّ عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجلّ عن الصنعة، ونُزّه عن التكلف... فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة، وشيد بالتأييد، ويُسِّر بالتوفيق. وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة وبين حسن الإفهام، وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته " [(١)].

ومن ثم كانت البلاغة المحمدية " هي البلاغة الإنسانية التي سجدت الأفكار لآياتها وحسرت العقول دون غاياتها، ولم تصنع وهي من الإحكام كأنها مصنوعة، ولم يتكلف لها وهي على السهولة بعيدة ممنوعة " [(٢)].

ومع تلك البلاغة الراقية، وهذا البيان العالي إلا أنني لم أحظ من قبل سواء في مرحلة الماجستير أو الدكتوراة أو فيما كتبتُ بعد ذلك من بحوثٍ علمية بشرف الجلوس في رحاب بلاغته (ﷺ) لأنهل من ذلك النبع الثر والحقل البكر الذي بلغ الغاية في جزالة

---

(١) البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: ٢/ ١٧ (بتصرف)، تحقيق: أ/ عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، مطبعة المدني، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، للأستاذ/ مصطفى صادق الرافعي: ٢١٩،ط دار المنار – مكتبة فياض – ط الأولى ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م.

اللفظ وقوة الأسلوب والسهولة في العرض، ومن ثَمَّ تاقت نفسي وعلت همتي علَّني أحظى بهذا الشرف، لأستكنه بعض أسرار بيانه (ﷺ) ولطائفه.

وقد واتتني فكرة هذه الدراسة المتواضعة عندما كنت أقرأ في أحد كتب الحديث هذا الحديث الذي رواه سيدنا عبد الله بن مسعود، والقائل فيه: (قسم النبي (ﷺ) قسما فقال رجل: إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله، فأتيت النبي (ﷺ) فأخبرته، فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه ثم قال: يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر") [1].

وقد لفت انتباهي قولُ الراوي حكايةً عن النبي (ﷺ): (**فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه**) فقلت في نفسي، ولِمَ لا أجمع هذه المواقف التي أثارت غضب النبي (ﷺ)، والتي صرح فيها الرواة بوصف هيئة غضبه، وبدأتُ أتتبع ذلك في أحاديثه (ﷺ)، وأقوم بحصر تلك المقامات، فوقفت على ثلاثة عشر حديثا، وهي على حد علمي وما بذلتُه من جهد في جمعها هي كلُّ ما صرح به الرواة واصفين هيئة غضبه (ﷺ) تقريبا، كمثل قولهم: (**فأغضباه**) أو: (**فغضب**)، أو: (**فغضب حتى احمر وجهه**)، أو: (**فغضب حتى بان الغضب في وجهه**)، أو: (**فغضب حتى رئي الغضب في وجهه**)، أو: (**فخرج إليهم مغضبا**)، أو: (**فغضب حتى احمرت وجنتاه لله**)، أو: (**فما رأيت النبي** (ﷺ) **غضب في موعظة قط أشد مما غضب يومئذ**)، أو: (**فشق ذلك عليه حتى رئي في وجهه**)، أو (**تلون وجهه**)، وغير ذلك من الأوصاف كما سيكشف عنها البحث، وجعلت عنوان هذه الدراسة:

[من بلاغة البيان النبوي في أحاديثه حال غضبه (ﷺ)].

ومما تجدر الإشارة إليه أن مواطن غضبه (ﷺ) لا تقتصر على ما صرح به الرواة فيما وصفوا به هيئته (ﷺ) ولكن هناك من الأحاديث ما تنبئ عن غضبه (ﷺ)، وهو الغضب الذي يفهم من فحوى ومضمون كلامه ؛ لرفضه موقفاً ما، وذلك مثل قوله (ﷺ) لسيدنا معاذ: (**أفتّان أنت ثلاثا** ؟) [2]، أو قوله للرجل الأزدي الذي استعمله على

(١) صحيح مسلم: كتاب: الزكاة، باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام وتصبر من قوى إيمانه، رقم: (١٠٦٢) تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٢) صحيح البخاري، كتاب: الأَدَبِ، بَابُ: مَنْ لَمْ يَرَ إِكْفَارَ مَنْ قَالَ ذَلِكَ مُتَأَوِّلًا أَوْ جَاهِلًا، رقم: (٦١٠٦)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

الصدقة فجاءه قائلا: يا رسول الله هذا لكم وهذا أهدي لي فقال (ﷺ): (**أفلا قعدت في بيت أبيك وأمك فنظرت أيهدى لك أم لا** ؟) [(١)]، أو قوله (ﷺ)لسيدنا أسامة: (**أتشفع في حد من حدود الله** ؟) [(٢)]، أو قوله (ﷺ) لسيدنا أسامة بن زيد في شأن الرجل الذي قتله بعد أن نطق بالشهادتين اعتقادا منه أنه إنما قالها خوفا من السلاح " **أفلا شققت عن قلبه** " [(٣)].

فلم أدخل مثل هذه الأحاديث في دراستي حتى لا يطول البحثُ، وذلك نظرا لطبيعة تلك البحوث، حيث تقتضي الإيجاز وعدم الإسهاب نظرا للكلفة المادية التي تتطلبها عمليةُ النشر، وحسبي من القلادة ما أحاط العنق.

أما عن منهجي في تلك الدراسة: فقد قمتُ بجمع هذه الأحاديث المتعلقة بهذا الغرض، وقسمتها حسب المقامات التي دعت إلى غضبه (ﷺ)، وبدأت بذكر نص الحديث، والكشف عن الغرض الذي سيق من أجله وبيان سبب وروده، ثم قمت بدراسته دراسة بلاغية معتمدا على المنهج التحليلي التكاملي الذي يعتمد على النظرة الشمولية للنص، واقتفاء أثر النظم، وتتبُّع كل عنصر فني أو أداة تعبيرية فيه تسهم في الكشف عن المعنى وفهم بيانه (ﷺ)، ومدى تلاؤم ألفاظه بعضها مع بعض وتناسق دلالاته، ومجاورة الجمل وأوجه ترابطها، وما يتبع ذلك من دقة في استخدام المفردات أو الحروف أو غير ذلك.

كما أشرت إلى اختلاف الروايات، وبيان مناسبة كل رواية للمقام الذي ذُكِرتَ فيه والاستعانة بها في فهم التوجيه البلاغي، مع محاولة الجمع بين تلك الروايات المختلفة – أحيانا.

كما تطرقت – أحيانا – إلى الإشارة إلى بعض الآراء الفقهية – إشارة خفيفة – دون أن أقصد إليها قصدا، وإنما جاءت تبعا لمقتضيات التحليل البلاغي.

كما قمت بتحليل كل ما جاء في الحديث من طعوم البيان المختلفة على لسان غيره (ﷺ) سواء من الرواة أو من غيرهم ؛ لأن تلك الطعوم هي التي شكلت المقام الذي

---

(١) صحيح البخاري: كتاب: الأيمان والنذور، باب: كيف كانت يمين النبي ﷺ، رقم: (٦٢٦٠).

(٢) صحيح البخاري: كتاب: الحدود، باب: كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان، رقم: (٦٤٠٦).

(٣) صحيح مسلم: كتاب: الإيمان، باب: تحريم قتل الكافر بعد أن قال لا إله إلا الله، رقم: (٩٦).

استدعى غضبه (ﷺ) فكان تحليلُها جزءا مهما لابد من الإبانة والكشف عنه في ثنايا التحليل.

وقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن يأتي في مقدمة، وثلاثة عشر مقاما، جمعتها تحت عنوان واحد وهو: **(من مقامات غضبه (ﷺ) في البيان النبوي)**، وخاتمة، ثم أردفت ذلك بالفهارس الفنية المتنوعة.

١- أما **المقدمة**: فتحدثت فيها – بإيجاز شديد – عن بلاغته (ﷺ)، وفكرة هذه الدراسة، والمنهج الذي سرت عليه في تناولها، وخطة هذا البحث.

٢- (**من مقامات غضبه (ﷺ) في البيان النبوي**) وقد جاءت كالآتي:

١- غضبه (ﷺ) في مقام النهي عن التفاضل بين الأنبياء.
٢- غضبه (ﷺ) في مقام الإلحاف في مساءلته.
٣- غضبه (ﷺ) في مقام من لعنه أو سبه أو دعا عليه وليس هو أهلا لذلك.
٤-غضبه (ﷺ) في مقام الاعتراض على قسمته الغنائم.
٥- غضبه (ﷺ) في مقام تنزه بعض الصحابة عن الأخذ برخصة.
٦-غضبه (ﷺ) في مقام التطويل في الصلاة.
٧-غضبه (ﷺ) في مقام الحث على صلاة النافلة في البيت.
٨- غضبه (ﷺ) في مقام رؤيته للنخامة في جدار القبلة.
٩- غضبه (ﷺ) في مقام الاختلاف في الكتاب.
١٠- غضبه (ﷺ) في مقام التنازع في القدر.
١١- غضبه (ﷺ) في مقام سؤاله عن ضالة الإبل.
١٢- غضبه (ﷺ) في مقام النهي عن التشبه بخلق الله (التصوير واتخاذ التماثيل).
١٣- غضبه (ﷺ) في مقام النهي عن لبس الثياب المعصفر [(١)].

(١) جدير بالذكر أن ترتيب هذه المقامات لم يكن عفو الخاطر، وإنما حاولت أن أتلمس قدرا من المناسبة بين كل مقام والذي يليه، فبدأت بما يتعلق بكل الأنبياء وذلك في المقام الأول، ثم ما يرتبط بنبينا (ﷺ) وقد استوعب ذلك المقام الثاني حتى المقام الخامس، ثم ما يتعلق بالصلاة سواء ما كان منها فريضة أو نفلا أو ما يتصل بمكان أدائها،وقد جاء ذلك في المقام السادس والسابع والثامن، ثم ما يتعلق بمواطن التنازع والاختلاف،وهو المقام التاسع والعاشر، وأخيرا ذكرت ما يتعلق ببعض الأحكام الفقهية مثل السؤال عن ضالة الإبل، واتخاذ التصاوير والتماثيل، ولبس الثياب المعصفرة.

٣- ثم **الخاتمة**، وأوجزت فيها أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

٤- ثم أردفت ذلك **بالفهارس** الفنية المتنوعة، واقتصرت على:

أ – فهرس المصادر والمراجع.

ب – فهرس الأحاديث النبوية التي اعتمدتْ عليها الدراسة في التحليل البلاغي.

جـ – فهرس الموضوعات.

وبعـد : فلست أدعي لبحثي هذا الكمال، فالكمال لله وحده، وحسبي أني حاولت أن أقتبس من نور بيانه (ﷺ)، وقد بذلت قدر طاقتي في إعداده، فما كان فيه من توفيق فمن الله – وحده – وما كان فيه من تقصير فمن نفسي ومن الشيطان، والله ورسوله منه براء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الباحث

د/ الدسوقي محمد أبو غرارة

من مقامات غضبه (ﷺ) في البيان النبوي

المقام الأول: غضبه (ﷺ) في مقام النهي عن التفاضل بين الأنبياء

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رضي الله عنه)، قَالَ: بَيْنَمَا يَهُودِيٌّ يَعْرِضُ سِلْعَتَهُ، أُعْطِيَ بِهَا شَيْئًا كَرِهَهُ، فَقَالَ: لاَ وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى البَشَرِ، فَسَمِعَهُ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَامَ فَلَطَمَ وَجْهَهُ، وَقَالَ: تَقُولُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى البَشَرِ، وَالنَّبِيُّ (ﷺ) بَيْنَ أَظْهُرِنَا؟ فَذَهَبَ إِلَيْهِ فَقَالَ: أَبَا القَاسِمِ، إِنَّ لِي ذِمَّةً وَعَهْدًا، فَمَا بَالُ فُلاَنٍ لَطَمَ وَجْهِي، فَقَالَ: «لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ» فَذَكَرَهُ، فَغَضِبَ النَّبِيُّ (ﷺ) حَتَّى رُئِيَ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ قَالَ: « لاَ تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَيَصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ، إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ، فَإِذَا مُوسَى آخِذٌ بِالعَرْشِ، فَلاَ أَدْرِي أُحُوسِبَ بِصَعْقَتِهِ يَوْمَ الطُّورِ، أَمْ بُعِثَ قَبْلِي، وَلاَ أَقُولُ: إِنَّ أَحَدًا أَفْضَلُ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى »(١).

الأنبياء جميعا إخوة، أرسلهم الله (ﷻ) لهداية البشر وإخراجهم من الظلمات إلى النور، وهم متفقون في أصل التوحيد، وإن اختلفت شرائعهم، وقد جعل الله (ﷻ) الإيمان بهم جميعا ركنا من أركان الدين، قال – تعالى –: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦ .... الآية ﴾..الآية(٢).

ولا يكون المسلم مسلما حقا إلا إذا آمن بجميع رسل الله وأنبيائه، قال النبي (ﷺ): «أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَالأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ لِعَلاَتٍ، أُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ»(٣).

(١) صحيح البخاري: كتاب: الأنبياء، باب: قول الله تعالى {وإن يونس لمن المرسلين}، حديث رقم: (٣٢٣٣).

(٢) سورة البقرة، آية رقم: ٢٨٥.

(٣) صحيح البخاري: كتاب: الأنبياء، باب:{واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها}، حديث رقم: (٣٢٥٩).

ومع ما حبا الله (ﷻ) نبينا (ﷺ) من تفضيل عليهم جميعا، فقد نهانا عن تفضيله عليهم، أو تفضيل نبي على آخر، ***فعن أنس بن مالك قال: جاء رجل إلى رسول الله (ﷺ)، فقال: " يا خير البرية، فقال: ذاك إبراهيم (عليه السلام) "*** [(١)].

والحديث الذي بين أيدينا – محل الدراسة – يحكي صورة من صور النهي عن التفاضل بين الأنبياء – ومقام الحديث – كما هو واضح – مقام غضب ؛ حيث قاله النبي (ﷺ) إثره مشادة وقعت بين رجل من الأنصار وأحد اليهود عندما أقسم بموسى (عليه السلام) بصيغة تنبئ عن تفضيله على البشر جميعا مما أثار حمية وحفيظة أحد الأنصار، فلطم وجهه، مما جعل اليهودي يذهب شاكيا إياه إلى رسول، فقال النبي (ﷺ) الحديث.

وهذا النبع الذي بين أيدينا ليس مقصورا على بيانه (ﷺ) بل فيه طعوم متعددة من البيان، ففيه كلام لراوي الحديث، سيدنا أبي هريرة، وكلام لليهودي ترتب عليه كلام لرجل من الأنصار، ومن احتدام الموقف بينهما كان بيانه (ﷺ).

وأول ما نبدأ به التحليل هو كلام سيدنا أبي هريرة ؛ لأن ما ذكره من بيان ترتب عليه بناء الحديث وتكوين جمله ومعانيه، وأول ما يبدو في بيانه استهلاله بعنصر المفاجأة، والتي أطلعنا عليها بقوله: (بينما يهودي يعرض سلعته) حيث صدَّره بهذا الظرف (بينما)، يقول صاحب النهاية: " أصل بينما: بين فأشبعت فصارت ألفا، يقال: بينا وبينما، وهما ظرفان بمعنى المفاجأة " [(٢)].

وكان من الممكن أن يقول: قال يهودي ذات يوم...، ولكنه بنى كلامه على المفاجأة قصدا إلى جذب الانتباه، وشحذ الأذهان، وإثارة فكر السامعين، وتشويقا للوقوف على تفاصيل ما يرويه ويقصه، ولذلك كان حريصا على نقل المشهد بكل جزئياته، ولذلك

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: مسند أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه ٣/ ١٧٨، حديث رقم: (١٢٨٤٩)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط – عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير، مادة (بين)، تحقيق: أ/ محمود الطناحي، و أ/ طاهر الزاوي – دار إحياء التراث العربي – بيروت – بدون.

نراه يَنُصُّ على ملة هذا الرجل عقب ما أثاره من تشويقٍ ببدء بيانه بهذا الظرف ؛ وذلك لأن هذا هو الأهم، كما أشعرنا بمقصوده من كلامه منذ أول وهلة.

ولم يحدد اسم هذا اليهودي مقتصرا على تحديد هوية ديانته ؛ لأنه لا يتعلق بذكره معرفة غرض بلاغي، أو إضافة ملامح جديدة، ولكن المهم الإخبار أنه يهودي، وقد مكن التعبير به منكرا من المجيء بجملة الصفة، والتي أبانت عن سبب قسمه بموسى (عليه السلام): (يعرض سلعته) والتعبير فيها بصيغة المضارعة دون المضي (عرض) مما يتناسب مع استحضار الصورة والإحاطة بجميع أركان المشهد وتفاصيله، وكأنك تتصوره أمام خيالك وبصرك.

وجملة (أعطي بها شيئا كرهه) خبر عن قوله: (يهودي)، جاءت متممة لفائدة الكلام، وهي كناية عن عدم اقتناعه بالسعر المقابل لقيمة سلعته ؛ إذ يلزم من كراهيته له، عدم اقتناعه ورضاه به، ولو جاء التعبير بالحقيقة " أعطي بها شيئا لم يرض به " ما أطلعنا على كراهية اليهودي لهذا السعر، فربما لا يرضى الإنسان بالسعر المقابل لسلعته، ولكن لا يظهر عليه علامات كراهيته لذلك، وهذا منه تمهيدٌ ليكشف عن داعي قسم اليهودي بقوله: (لا والذي اصطفى موسى على البشر).

وهذا القَسَمُ من اليهودي ينبئ عن أمرين:

الأول: رفضه الشديد لهذا المقابل، ولذلك بادر معلنا رفضه بأسلوب القسم ؛ تأكيدا على رفضه لهذا العرض المقابل لسلعته، كما جاءت عبارته مكتنزة ومختصرة، حيث حذف جملة (أبيعها أو أقبل بذلك) عقب (لا) النافية، مما ينبئ عن شدة كراهيته لهذا البيع، وأنه يشعر ببخس فادح لسلعته.

الثاني: شدة تعظيمه المطلق لنبيه موسى (عليه السلام)، مما أثار غضب الأنصاري ؛ إذ كان من الممكن أن يقسم قائلا: (لا والله، أو: لا ورب موسى) ولكنه عبر بلفظ (الاصطفاء) تفضيلا لموسى على غيره ؛ لأن الاصطفاء: يعني أن الله اختاره وحباه على كل البشر، وهذا يَشْتَمُّ منه رائحة التعريض بتفضيل اليهودية على الإسلام ؛ لأنه تابع لموسى الذي اصطفاه الله – حسب تعبيره– فهو إذن مفضل على غيره من الأنبياء، وديانته أفضل من كل الديانات الأخرى، كما ينبئ التقييد بـ (على البشر) بتعظيمه المبالغ فيه، ليس لذات

موسى وإنما لبيان فضل أتباعه، وكأنه يقول من وراء اللفظ: نحن أتباع موسى، فلنا من الفضل ما لموسى من الفضل على سائر البشر.

ثم رتب راوي الحديث على هذا القسم قوله: (فسمعه رجل من الأنصار فقام فلطم وجهه وقال: تقول...) وتتابع الفاءات ينبئ عن تتابع الأحداث وسرعة تواليها، فبمجرد أن أقسم اليهودي سمعه الأنصاري، وبمجرد أن سمعه قام فلطم وجهه، وكأن هذه الفاءات مسَّت كل تفاصيل المشهد وطوته طيا خفيفا دون إغفال أية جزئية منه.

وتأمل دقة بيان سيدنا أبي هريرة، فعندما حدثنا عن اليهودي لم يقل: (رجل يهودي) في حين لما أخبر عن الأنصاري الذي تصدى لهذا اليهودي قال: (رجل من الأنصار)، فهو رجل بما تنبئ عنه هذه الكلمة من معاني الرجولة والجلادة، وفي هذا تمهيد وتلاؤم بين لوصفه بأنه (من الأنصار) وكان من الممكن أن يقول: (فسمعه أحد المسلمين)، ولكن تعبيره فوق ما أفاده من تحديد، فيه إيحاء بما للأنصار فيه من فضل في نصرة النبي (ﷺ) ولذا كان الذبُّ والذودُ عن رسول الله والغيرة عليه من نصيب واحد منهم، وهذا منهم ليس غريبا بل وفاء للعهد الذي بايعوا فيه النبي (ﷺ) على النصرة والمنعة.

و تأمل كذلك قوله: (فقام فلطم وجهه) وكان من الممكن أن يقول: (فسمعه رجل من الأنصار فلطم وجهه) دون الفعل (قام) ولكنَّ التعبير به أفاد معنى لا يوجد في الجملة الموازية لقوله، فتعبيره يبرز أثر وقع كلمة اليهودي في نفس الأنصاري، مما دعاه إلى أن يتحرك، ويغير هيئته، ويقوم ويسعى ويتحرك ويتوجه نحو اليهودي معترضا ومنفعلا، ولولا الفعل (قام) ما كان شيء من تلك المعاني.

وكان من أثر قيامه أمران: أحدهما: فعليٌّ (فلطم وجهه) والآخر قوليٌّ: (تقول: والذي اصطفى موسى...) وفي تعبيره بالفاء (فلطم) ما ينبئ عن شدة تسرعه وغاية انفعاله، وعندما أخبر بجملة القول (وقال) عبر بالواو، مما يؤذن باستقلالية القول ؛ لأن هذا هو ما أثار حفيظة الأنصاري، فلم يرد أن يُدْخِل قوله في عموم فعله، ولو جاء تعبيره بالفاء أي، فقال: تقول والذي اصطفى... لآذن بأن القول مرتب على اللطم، وليس مرتبا على قيامه.

وقد صاغ الأنصاري جملته لليهودي في ثوب الاستفهام الإنكاري التوبيخي، مع حذف همزة الاستفهام، مكتفيا بما يضفيه كلامه من نغمته، مما ينبئ عن اشتعال الموقف، ووجود حالة من الشد والجذب، وقوة حمية الأنصاري وشدة غضبه.

وفي تعبيره بصيغة المضارعة (تقول) وإعادة نفس تعبير اليهودي(والذي اصطفى موسى على البشر) استحضار للذنب وتقرير بالقول، وكأنه يريد أن يضع ذنبه بين يديه،ويعيده على سمعه مرة ثانية، إنكارا وتوبيخا وذما وتشنيعا.

وهذا الإنكار منه ليس منصبا على القول وحده، بل على القول مقيدا بجملة الحال (والنبي بين أظهرنا) ترقيا في الذم، وتصعيدا في الإنكار والتوبيخ، وتنبيها إلى عظم مقالته، وتشنيعا عليه، وتغليظا له في القول، وكأنه يقول له:أَوَصلت بك الجرأةُ إلى هذا الحد؟!، مما جعلك تظهر تفضيلك لنبيك على نبينا، ونبيُّنا ما زال حيا، غير عابئ بمكانته ومنزلته عندنا.

وقوله (بين أظهرنا) فيه ما ينبئ عن معاني النصرة لرسول الله والذود عنه ؛ إذ كان من الممكن أن يكون بيانه (والنبي بيننا)، وفي لفظ (الظهر) ما يشعر بالمنعة والقوة.

وقد جاء وقعُ ما صدر من الأنصاري صادما لليهودي، فذهب شاكيا إلى رسول الله (ﷺ) يقول أبو هريرة: (فذهب إليه) فقال: (أبا القاسم إن لي ذمة وعهدا، فما بال فلان لطم وجهي؟) والفاء في (فذهب) آذنت بترابط الكلام وشدة تلاحمه، وأنبأت بأن ذهابه إلى رسول الله كان مسببا عن صنيع الأنصاري معه، والفاء في الفعل (فقال) تؤذن بأنَّ ما قاله لرسول الله كان مرتبا على الذهاب إليه.

ويبدو من بيان هذا الرجل أنه كان من الذكاء اللغوي بمكان وهو يعرض شكواه على رسول الله، فقد هيأ لها بأسلوب النداء ؛ لفتا لانتباه رسول الله وتقدمةً بين يدي شكواه، وإشعارا بأهمية ما يريد أن يقوله، كما حذفَ أداةَ النداء، مبادرةً إلى تبليغ مقصوده، وإشعارا بمظلوميته، ونادى بكنيته (ﷺ) (أبا القاسم) إضفاءً لنغمةٍ من التقرب والتودد، وهذا مناسب للمقام ؛ لأنه في معرض الشكوى لمن سَيَقْتَصُّ له ويأتي له

بحقه، فلم يكن من المناسب أن يناديه باسمه الصريح، ولم يكن من المناسب – أيضا – أن يناديه بصفة الرسالة ؛ لأنه غير معترف بها.

كما مهد لشكواه بجملة (إن لي ذمة وعهدا) " يعني مع المسلمين، فلم أخفر ذمتي ونقض عهدي باللطم ؟ "[1]، وقد أضفى عليها طابع التأكيد بـ (إن)، واسمية الجملة، ورسول الله ليس بمنكر ذلك حتى يؤكد الرجل كلامه، وإنما جاء هذا التأكيد ليعكس ثقة الرجل بأنه في أمان وتعايش سلمي في مجتمع واحد مع المسلمين بموجب ما له من ذمة وعهد معهم، هذا المعنى الذي يحسه ويشعر به جعله يطبع لغته بطابع التأكيد والتقرير لما يقول، وينكِّر (ذمة وعهدا) تعظيما وتفخيما لهما، مما يستوجب عدم التعدي عليه بأي وجه كان ؛ إنفاذا لهما وعملا بحقهما في عدم التعرض له، بل وجوب الدفاع عنه، وتوفير الحماية والأمن له، بموجب ما له من ذمة وعهد، وبثا لتلك الإيحاءات المتنامية قدم الجار والمجرور (لي) تأكيدا على مغزاه، وإشعارا بأحقيته في العيش بأمن دون اعتداء.

وبعد تلك التهيئة عرض شكواه قائلا: (فما بال فلان لطم وجهي ؟) وقد قصد من وراء تلك التهيئة التفظيع لما صدر من الرجل الأنصاري معه، ولذا عبر بما يدل على شدة وقع ذلك عليه، مؤثرا لفظ (بال) ومعناه: القلب والشأن والحال التي يكترث بها[2].

وهذا السؤال وإن كان إنكاريا فهو –أيضا – ناطق بالتعجب والدهشة النابعين من استغراب الرجل وعدم توقعه أن يحدث ذلك معه بموجب ماله من ذمة وعهد يكفلان له أن ينعم بالأمن والسلم في ظلال المسلمين.

ويبادر النبي (ﷺ) بمعالجة الموقف، فيسأل المسلم (لم لطمتَ وجهه ؟) مستحضرًا ذنبه وأصل فعله دون: لم فعلت ذلك ؟، وذلك تناسبا مع ما يحتاجه الموقف من حسم وتحديد، وهو استفهام حقيقي يراد به الوقوف على علة لطمه وجه اليهودي، والسبب

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني: (١٦/ ٤) دار إحياء التراث العربي – بيروت.
(٢) ينظر: لسان العرب للإمام العلامة ابن منظور: (بول) دار إحياء التراث العربي – مؤسسة التاريخ العربي – بيروت – لبنان – الطبعة الثانية ١٤١٨ هـ – ١٩٩٨ م، وينظر: المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني: ٤٥ (بال)، راجعه وقدم له: وائل أحمد عبد الرحمن، المكتبة التوفيقية.

الذي دعاه إلى ذلك، بدليل إجابة المسلم عليه، كما يقول الراوي (فذكره)، وهذا الاستفهام وإن كان على حقيقته من طلب الفهم وتصوره في الذهن، إلا أننا لا نعدم فيه شوبا من رائحة الإنكار.

والضمير في الفعل (فذكره) يمثل تلخيصا للمشهد بكل تفاصيله، إيجازا واختصارا من الراوي، فلم يرد أن يعيد الكلام مجددا على لسان الأنصاري، اكتفاء بما دل عليه في سابق الكلام، وهذا من بلاغة تأثره ببيان النبي (ﷺ) ولم لا ؟، وهو الذي آثر صحبة النبي (ﷺ) ومتابعته تاركا خلفه متع الدنيا وشواغلها.

وكان من أثر إجابة الأنصاري ما ذكره أبو هريرة بقوله: (**فغضب ?لنبي (ﷺ) حتى ?ئي في ?جهه**) يعني: ظهرت علامات الغضب على النبي، مما يعكس شدة تأثره بما ذكره الأنصاري في صنيعه مع اليهودي، مما استوجب غضبه، وبناء الفعل (رئي) للمجهول يوحي بأن كل من رآه يعلم ذلك منه، واختيار فعل الرؤية دون (عرف) دليل على شدة الغضب.

يقول أبو هريرة (ثم قال) مؤثرا العطف بـ (ثم) بما فيها من ترتيب وتراخ، مما يشير إلى تعاظم المعنى في نفس النبي (ﷺ)، وأن ما ذكر على لسان الأنصاري أمر شديد وقعه، فكان التعبير بالحرف (ثم) بوقعه المتثاقل أنسب في نقل ما أنتجه هذا الموقف من مرارةٍ وغضبٍ ألَّما بنفس النبي (ﷺ)، مما جعله يصدر هذا البيان العام، دون توجيه الخطاب لهذا الأنصاري وحده قائلا: (لا تفضلوا بين أنبياء الله... الحديث).

وقد جاء هذا البدء منه (ﷺ) في غاية البلاغة، وفي ذروة براعة الاستهلال، لمناسبته للمقام والسياق، فالسياق يكشف عن مواجهة بين أحد المسلمين وأحد اليهود، واشتعال جذوة الغضب بينهما، لانحياز كل منهما لنبيه، ولذلك كان هذا البدء بالخطاب المباشر من النبي (ﷺ) في غاية المناسبة للمقام.

وقد استهل النبي (ﷺ) بيانه بالنهي الصريح المباشر (لا تفضلوا..) ؛ ليكون تصدير الكلام بهذا الأسلوب الخطابي اللافت إبرازا لأهمية الطلب وإظهارا للعناية به، وإقبالا وإشراكا وإحضارا للمخاطب، تحريكا له وتنشيطا للوقوف على مضمون الكلام.

وقد سلَّط حرف النهي (لا) باتساع صوته، وشيوع جرسه على الفعل المضارع (تفضلوا) وما يشعر ذلك من امتداد زمن النهي، فأفاد تخليصه للاستقبال، إشارة إلى إطراد النهي مع إطراد الحياة، فكلما جدَّت نزعةُ الشيطان الداعية إلى التفاضل بين الأنبياء، جدَّ معها هذا النهي.

فمقام الحديث وإن كان يكشف عن توجيه النهي لهذين الرجلين، إلا أنه يمتد ليشمل كل سامع ومخاطب، وذلك إشاعة للتكليف بهذا الحكم الشرعي، مما يؤكد محبته (ﷺ) لجميع رسل الله وأنبيائه، وأنه حريص على إثبات المكانة العالية والمنزلة الرفيعة لهم جميعا، سواء في قلوب المسلمين أو في عيون أبناء الديانات الأخرى.

والسياق يؤكد أن هذا النهي تعتبر فيه دلالته الحقيقية، وهي التحريم، مع ما غُلِّف به الأسلوب من نصح وإرشاد وتوجيه وهي " لا تتصور إلا من يقر المخاطبُ بعلو مكانته ووجوب طاعته "[1]، وهذا يعني أن الامتثال لهذا الهدي من النبي الكريم من محبته، ومن الإيمان بوجوب طاعته وعلو مكانته، وهذا هو مطلوبهُ (ﷺ) وليس مطلوبُه تفضيلَه على غيره من الأنبياء، بل إن تفضيلَه وقوعٌ في الحرمة والعصيان.

وتبدو دقة البلاغة النبوية بإضافة لفظ (أنبياء) إلى اسم الجلالة، وكان من الممكن أن يكون النظم: (لا تفضلوا بين الأنبياء) بالتعريف بـ (أل)، وربما يعتقد أن هذا التعريف يغني عن تعريفهم بالإضافة، ولكن ما جاء عليه بيانه (ﷺ) فيه إبراز وبيان للصلة الجامعة بينهم جميعا، فهم أنبياء الله جميعا اختارهم لهداية البشر، وهم متفقون جميعا في أصل التوحيد الذي ينبئ عنه اسم الجلالة، وإن اختلفت شرائعهم.

فالتعبير باسم الجلالة في ظل هذا المقام، فوق ما أفاده من تعظيم المضاف، فيه ما يوحي بالاستجابة للنهي ؛ لأن الأنبياء جميعا ينتسبون إلى الله، فليس ثمَّة داعٍ إلى التفرقة والتفاضل بينهم.

وإن قيل: كيف نهى النبي (ﷺ) عن التفاضل بين الأنبياء، والله (ﷻ) يقول: ﴿ ۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾[2]، وقال – جل في علاه : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا

(١) تحويلات الطلب ومحددات الدلالة مدخل إلى تحليل الخطاب النبوي الشريف، د/ حسام أحمد قاسم: ٩١، دار الآفاق العربية، ط الأولى، ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧ م.

(٢) سورة البقرة، جزء من آية: ٢٥٣.

بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [1]، ورسول الله (ﷺ) ذاته يقول: "أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ"[2] ؟.

وقد حاول العلماء التوفيق بين ذلك فذكروا عدة وجوه منها:

أَحَدُهَا: أَنَّ هَذَا النهي كَانَ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ (ﷺ) بِالتَّفْضِيلِ وَفِي هَذَا نَظَرٌ، كما يقول ابن كثير.

الثَّانِي: أَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ الْهَضْمِ وَالتَّوَاضُعِ.

الثَّالِثُ: أَنَّ هَذَا نَهْيٌ عَنِ التَّفْضِيلِ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْحَالِ الَّتِي تَحَاكَمُوا فِيهَا عِنْدَ التَّخَاصُمِ وَالتَّشَاجُرِ.

الرَّابِعُ: لَا تُفَضِّلُوا بِمُجَرَّدِ الْآرَاءِ وَالْعَصَبِيَّةِ.

الْخَامِسُ:لَيْسَ مَقَامُ التَّفْضِيلِ إِلَيْكُمْ، وَإِنَّمَا هُوَ إِلَى اللهِ (ﷻ) وَعَلَيْكُمُ الِانْقِيَادُ وَالتَّسْلِيمُ لَهُ وَالْإِيمَانُ بِهِ[3].

والذي أميل إليه هو ما اختاره القرطبي – رحمه الله – حيث قال: " إِنَّ الْمَنْعَ مِنَ التَّفْضِيلِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ جِهَةِ النُّبُوَّةِ الَّتِي هِيَ خَصْلَةٌ وَاحِدَةٌ لَا تَفَاضُلَ فِيهَا، وَإِنَّمَا التَّفْضِيلُ فِي زِيَادَةِ الْأَحْوَالِ وَالْخُصُوصِ وَالْكَرَامَاتِ وَالْأَلْطَافِ "[4].

وهذا يعني أن التفضيل ثابت بنص الآيتين الكريمتين، ولكن مرده إلى الله (ﷻ)، ولذلك أسنده الله إلى نفسه في الآيتين الكريمتين، ولكن لا ينبغي لأحد أن يخوض في ذلك ؛

---

(١) سورة الإسراء، جزء من آية: ٥٥.

(٢) سنن ابن ماجه: كتاب: الزهد، باب: ذكر الشفاعة، رقم: (٤٣٠٨)، قال الشيخ الألباني: صحيح، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وآخرون، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير: ١/ ٢٩٩ – مؤسسة المختار للنشر والتوزيع- القاهرة – ط الثالثة – ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م، وينظر: إكمال المعلم بفوائد مسلم، للقاضي عياض، تحقيق: د/ يحيى إسماعيل: ٧/ ٢٣٧، ٢٣٨، دار الوفاء، الطبعة الأولى ـ ١٤١١ هـ/ ١٩٩٨ م، وينظر: شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن للطيبي: (١١/ ٣٦٣٣): د/ عبد الحميد هنداوي، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة - الرياض)، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

(٤) الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي: (٣/ ٢٦٢)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م

لأنه يفتح الباب للعصبية والانحياز، وربما أفضى ذلك إلى انتقاص لأحد منهم، مما يوقع في الكبائر وأشد المعاصي، ولذلك ينبغي أن يغلق هذا الأمر، مع الإيمانً بأنهم جميعا أنبياء الله لا نفرق بين أحد منهم، وهذا النهي منه (ﷺ) " على سبيل التَّوَاضُع والهضم من النَّفس وَلَيْسَ مُخَالفا لقَوْله (ﷺ): "أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ "؛ لِأَنَّهُ لم يقل ذَلِك مفتخرا، وَلَا متطاولا بِهِ على الْخلق، وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِك ذَاكِرًا للنعمة ومعترفا بالمنة " (١).

وبعد ابتداء هذا الهدي النبوي بالنهي عن التفاضل بين الأنبياء، يأتي تعليله (ﷺ) لهذا النهي بقوله: (فإنه ينفخ في الصور...) وقد أفرغت جملة التعليل في قالب متين موثق، حيث جاءت (الفاء) السببية نصا في التعليل، وعُبِّر بأم أدوات التوكيد (إن) وجاءت الجملة اسمية " والفاء إذا سبقت (إن)، فإن الدلالة على التعليل، تكون أقوى وآكد ؛ وذلك لالتقاء رافدين من روافد العلية (الفاء) و (إن) وكل منهما يمنح التعليل من دلالته الوضعية عنصرا دلاليا آخر غير الذي يعطيه الآخر له، فالفاء تشرب التعليل معنى التعقيب، مثلما تشرب (إن) التعليل معنى التأكيد، فيجمع التعليل المنبعث من (فإنه) معنيين: التعقيب، والتأكيد، وهذه الصيغة كثيرة الحضور في خطاب الشريعة: كتابا وسنة " (٢).

يضاف إلى ذلك: أن ما جاء عقب (إن) إخبار عن شيء غيبي، فناسب ذلك أن يؤكد، حتى يتقرر هذا المعنى في النفوس، ويثبت ويرسخ في الأذهان، ولا نعدم أن يكون هذا التوكيد إشارة إلى أهمية الخبر وخطورته ؛ لأنه حديث عن أحداث الآخرة، وما فيها من أهوال جسام.

والتعبير بالفاء في (فإنه) فضلا عما أفادته من ربط وإحكام بين جملة النهي والتعليل لها، كانت بمثابة العروة الرابطة بين التفاضل المنهي عنه، وسرد مشهد من مشاهد الآخرة.

وقد ناسب ذلك تعبيره (ﷺ) بضمير الشأن في قوله (فإنه) والواقع اسما لـ (إن) وفي التعبير به صورة من صور إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر لأن الأصل " ألا يذكر

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٥/ ٢٩٣).

(٢) سبل الاستنباط من الكتاب والسنة دراسة بيانية ناقدة، د/ محمود توفيق سعد: ٨٧، مطبعة الأمانة، القاهرة ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٢ م.

الضمير إلا وقد سبقه ما يعود عليه ليكون المقصود بالكلام واضحا " [1]، فإذا لم يتقدم للضمير مرجع أو قرينة تدل عليه، كان مقتضى ظاهر الحال، الإتيان بالاسم الظاهر لا بالضمير، فإذا أتى بالضمير كان مخالفة لمقتضى ظاهر الحال، وذلك متحقق في صورة ضمير الشأن، فمقتضى ظاهر الحال أن يقال: (فإن الشأن أن ينفخ في الصور...) فترك الظاهر، وعبر عنه بالضمير، ومضمون الجملة بعده مفسر له، وهي خبر عنه، وهي نفس الضمير في المعنى، ومن ثم لا تحتاج إلى رابط، والغرض البلاغي لوضع المضمر موضع الظاهر، هو الإيضاح بعد الإبهام ؛ مما يؤدي إلى تمكن المعنى ورسوخه في ذهن السامع.

وتوضيح ذلك: أن ضمير الشأن من الصور التي يفسر فيها الضمير بمتأخر عنه، وأنه إذا صادف موقعه كان له أثر طيب ؛ لأن الضمير إذا ذكر أولا، من غير أن يكون له عائد عليه يصير النفس إلى حالة من الغموض والإبهام لا قرار لها، تجعلها تنتظر ما يعقب الضمير، وتتشوق إلى معرفة إبهامه، فيتمكن المسموع بعده في الذهن فضل تمكن ؛ لأن الحاصل بعد الطلب أعز من المنساق بلا تعب، ولهذا اشترط أن يكون مضمون الجملة المفسرة له شيئا عظيما فخما يعتنى به [2] – كما هو الشأن في الحديث – إذ لا أعظم ولا أخطر مما جاء عقبه من الإخبار عن مشاهد القيامة، وما فيها من أهوال، وما يفاجأ به النبي (ﷺ) عقب إفاقته بعد النفخة الثانية من رؤيته لموسى (عليه السلام) آخذا بالعرش، والرسول لا يدري – حينئذ – أفاق قبله أم لم يصعق اكتفاء بصعقة الطور؟، ومن هنا كان التعبير بهذا الضمير في غاية المناسبة والتناغم مع المقام والسياق.

---

(١) خصائص التراكيب د/ محمد محمد أبو موسى: ٢٤١، مكتبة وهبة، ط خامسة، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠ م.

(٢) يراجع: شروح التلخيص " مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني: ١/ ٤٥٠، ٤٥١، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، والمطول: ١٢٨، المكتبة الأزهرية للتراث – الطبعة الأولى – أحمد كامل – ١٩٨٣ م، ودلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر: ١٣٢، ١٣٣، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠ م،وشرح الكافية في النحو لابن الحاجب: ٢/ ٥ – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ومن أسرار النظم القرآني في سورة القلم، أ. د/ رفعت إسماعيل السوداني: ٢٩٢، مطبعة الأمانة، الطبعة الأولى – ١٩٩١ م.

وجملة (ينفخ في الصور) أي: النفخة الأولى، خبر (إن) وبناء الفعل (ينفخ) لما لم يسم فاعله، تركيزا على الحدث، وتسليطا للضوء عليه ؛ لأنه الأهم والأجدى.

ويبدو أثر البيان القرآني واضحا في كلامه (ﷺ) وذلك في قوله – تعالى –:﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ ٦٨ ﴾ (١).

والنفخ في الصور: كناية عن بدء القيامة ؛ إذ هو " ميقات يوم القيامة وما يتقدمه من موت كل حي على وجه الأرض "(٢).

وقد أسهمت لبنات النظم وتكاتفت في الكشف عن هول مشاهد ذلك اليوم، فالتعبير بالأفعال المضارعة (ينفخ – فيصعق – ثم ينفخ – فأكون) استحضار لتلك الصور العجيبة القوية والتي تنبئ بالهول، والدهشة، وقد اتسمت الثلاثة الأولى منها بالبناء لما لم يسم فاعله ؛ توفيرا للكلام على الغرض المقصود منه، وتلاؤما مع ما تصوره تلك الكلمات من أهوال وصعاب.

كما آثر البيان اختيار مادته الفعل (صعق) دون مرادفه أو بدائله اللغوية،كأن يقال: فإنه ينفخ في الصور فيموت...) لما تدل عليه مادة (الصعق) من القوة والشدة والعنف والفجاءة والسرعة، يقول الراغب: " الصَّاعِقَةُ والصّاقعة يتقاربان، وهما الهدّة الكبيرة، إلّا أن الصّقع يقال في الأجسام الأرضيّة، والصَّعْقَ في الأجسام العُلويَّةِ،... الصَّاعِقَةَ هي الصّوت الشّديد من الجوّ، ثم يكون منها نار فقط، أو عذاب، أو موت، وهي في ذاتها شيء واحد، وهذه الأشياء تأثيرات منها"(٣).

فاللفظة بوقعها وجرسها تنبئ عن الشدة والقوة والعنف، مما يتلاءم مع مشهد القيامة، وما يتخلله من أحداث جسام.

(١) سورة الزمر، جزء من آية: ٦٨.
(٢) تفسير التحرير والتنوير الطاهر ابن عاشور: ٢٤/ ٦٤، دار سحنون للنشر والتوزيع – بدون.
(٣) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهانى: (٤٨٤، ٤٨٥).

والتعبير بالاسم الموصول (من) للدلالة على عموم الصعق لكل من في السموات والأرض، إلا من استثناهم الله (ﷻ) والطباق الواقع بين (السموات والأرض): كناية عن خضوع جميع ساكنيهما لله رب العالمين، خضوع إذعان وإجلال، فلا يملك أحد من أمره شيئا، بل الكل مسخر ومنقاد لأمر الله – سبحانه –.

والتعبير في البيان النبوي بلفظ (السماوات) جمعا، و(الأرض) مفردة جاء على غرار البيان القرآني في تعبيراته ؛ تلاؤما مع عظمة السماوات، وما فيها من عجائب قدرته – سبحانه – كما قدمت (السماوات) على (الأرض)، " وذلك لشرف السماء وفضلها"[(١)].

والاستثناء في قوله (ﷺ): (إلا من شاء الله) تام متصل [(٢)] من " اسم الموصول الأول، أي: إلا من أراد الله عدم صعقه، وهم الملائكة والأرواح " [(٣)].

كما آذن التغاير بين حرفي العطف (الفاء وثم) في وقع الأحداث وترتيبها، فالنفخة الأولى يعقبها مباشرة صعقة الموت والهلاك، والتي عبر عنها بـ (فيصعق من...) بينما جاء التعبير بـ (ثم) في قوله: (ثم ينفخ فيه أخرى) في حاق موضعه، فهي مع ما تقتضيه من ترتيب مع مهلة وتراخ، تبرز مدة وفاصلا زمنيا بين النفختين.

ثم يعود البيان مُؤْثِرا التعبير بالفاء مرة ثانية في قوله (ﷺ): (فأكون أول من بعث) تناسبا مع ما هو معلوم من إخباره (ﷺ) بأنه أول من تنشق عنه الأرض، وذلك كائن عقب النفخة الثانية مباشرة، وهي نفخة الحياة بعد الموت، تهيؤا و استعدادا للحشر والجزاء.

(١) الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي: ١/ ١٩٢، تحقيق: طه عبد الرءوف سعيد، المكتبة التوفيقية – بدون تاريخ.
(٢) الاستثناء التام المتصل هو: هو ما كان المستثني فيه بعضا مما قبله، ينظر: شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك: ٢/ ٣٥١، ت: د/ محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الإيمان، المنصورة، بدون.
(٣) التحرير والتنوير: ٢٤/ ٦٥.

و(أخرى) صفة لموصوف محذوف، أي: نفخة أخرى، وهذا الحذف يتلاءم مع سرعة وقع الأحداث، فجاء نظم البيان في غاية الملاءمة والتناسب لما يصوره من معان وأحداث.

والتعبير بما لم يسم فاعله (بُعِث) إيجازا واختصارا، مما يتناسب مع مشهد بعثه (ﷺ) عقب النفخة الثانية، وتركيزا على الحدث نفسه، وجاء التعبير به ماضيا مع أن مقتضى الظاهر التعبير به على صيغة المضارعة ؛ لأنه إخبار عن أمر مستقبلي، أي " أول من يبعث " ؛ تأكيدا على تحقق الوقوع، وقد ذكر ابن الأثير فائدة ذلك العدول فقال: " إن الفعل الماضي إذا أخبر به عن الفعل المستقبل الذي لم يوجد بعد كان ذلك أبلغ، وأوكد في تحقيق الفعل وإيجاده؛ لأن الفعل الماضي يعطي من المعنى أنه قد كان ووجد، وإنما يفعل ذلك إذا كان الفعل المستقبل من الأشياء العظيمة التي يستعظم وجودها "[1].

والتعبير بالفاء في قوله (ﷺ): (فإذا موسى آخذ بالعرش) يبرز رؤيته (ﷺ) لمشهد موسى (عليه السلام)وهو آخذ بالعرش، وذلك عقب إفاقته مباشرة دون تراخ أو توان.

وقد جاء التعبير بـ (إذا) الفجائية ليكشف عن أن هذا المشهد فوجئ به النبي (ﷺ) فلم يكن يتوقعه، ولم يكن في خلده وحسبانه، ولم يعلم به من قبل، بخلاف ما أخبر به (ﷺ) من أنه يكون أول من بعث، فقد جاء بيانه متناغما مع ما يعلمه، وما هو متيقن به من أنه يكون أول من يفيق بعد النفخة الثانية، ولذا لم يكن نظمه: (فإذا أنا أول من بعث)، ففي التعبير بـ (إذا) الفجائية في جانب موسى (عليه السلام) إيحاء منه (ﷺ) بمنزلته وأنه من القرب بمكان من الله (عز وجل)، في مشهد شديد الهول، فلا يصيبه ما أصاب غيره وعلى رأسهم نبينا (ﷺ) من هول وفزع.

والتعبير باسم الفاعل (آخذ) بما فيه من الدلالة على الثبوت والدوام – يصور شدة تعلقه (عليه السلام) بالعرش وتشبثه به، أمنة من الله (عز وجل) له، وحرف الملابسة يكشف عن شدة أخذه وإمساكه بالعرش، تفضلا منه – سبحانه – وامتنانا يكشف عن عظيم منزلته عنده، ومن ثم لا داعي إلى الخوض في التفاضل بينه وبين غيره من الأنبياء، وعلى

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لابن الأثير: ٢/ ١٨٥، تحقيق: أحمد الحوفي، و بدوي طبانة، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ـ القاهرة.

رأسهم موسى (عليه السلام) ولعل في تخصيص موسى (عليه السلام) في هذا السياق، تناسب بيِّن مع مقام الحديث، وما حدث من شد وجذب بين الأنصاري واليهودي.

وتتجلي بلاغة التعبير بالفاء العاطفة في قوله (ﷺ): (فلا أدري...)، فهي مع ما تفيده من ترتيب وتعقيب، تكشف عن حال النبي (ﷺ) عقب ما فوجئ به من رؤية موسى (عليه السلام) متعلقا بعرش الرحمن، فكان حاله عدم معرفته هل حوسب بصعقته يوم الطور، ومن ثم لم يصعق، أم بعث قبل النبي فأفاق قبله ؟ وعلى كلا الاحتمالين فهي فضيلة له (عليه السلام)، يقول ابن حجر: " فإن كَانَ أَفَاقَ قَبْلِي فَهِيَ فَضِيلَةٌ ظَاهِرَةٌ وَإِنْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللهُ فَلَمْ يُصْعَقْ فَهِيَ فَضِيلَةٌ أَيْضًا " [1].

وهذا يدل على مدى حرصه (ﷺ) على تأصيل مبدأ عدم تفضيل أحد من الأنبياء على غيره، حتى ولو كان هو المفضَّل، وكأن النبي (ﷺ) يعطينا بجملته (فلا أدري أحوسب...) الأدلة الحسية التي أطلعه الله عليها، حتى لا ننساق وراء عصبيتنا له، فنفضله على غيره من الأنبياء.

والسياق في هذا البيان النبوي يؤكد حمل الاستفهام الواقع في قوله (ﷺ): (فلا أدري أحوسب...) على حقيقته، وأم فيه هي المتصلة المعادلة، وهو استفهام يراد به التصور [2]؛ لأن النبي (ﷺ) في حالة تردد، ويطلب تعيين أحد الأمرين، أحوسب موسى بصعقة يوم الطور، ومن ثم لم يصعق، أم بعث قبل النبي وصعق، وقد وليها المسند (الفعل) والمطلوب تعيينه.

وعلى الرغم من حمل هذا الاستفهام على حقيقته [3] لا نعدم أن نشتم منه رائحة التعجب والدهشة من قبل النبي (ﷺ)، فهو على ما حباه الله (عز وجل) من منزلة عظيمة، وعلمه

(١) فتح الباري لابن حجر: (٦/ ٤٤٥).

(٢) التصور: هو إدراك المفرد، أي إدراك عدم وقوع النسبة، ويكون الاستفهام عن التصور عند التردد في تعيين أحد الشيئين، أي: يتردد المتكلم في تعيين أحد أمرين تُذْكر بينهما (أم) المتصلة المعادلة، ينظر: شروح التلخيص: ٢/ ٢٤٨ – ٢٥١، وينظر: جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، تأليف: السيد أحمد الهاشمي: ٧٢، دار الفكر – ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤ م.

(٣) يرى أحد الباحثين أن أكثر النصوص الواردة في الصحيحين المراد منها طلب الفهم وإرادة العلم =

بأنه أول من تنشق عنه الأرض يفاجأ بموسى (عليه السلام) آخذا بالعرش، ولا يدري أحوسب بصعقته يوم الطور أم بعث قبله ؟

وإيثار التعبير بفعل (الدراية) منفيا دون: فلا أعلم، أو فلا أعرف، مما يشير إلى معنى جليل، فبالرغم من أنه (ﷺ) متصل بوحي السماء إلا أن الله (ﷻ) لم يطلعه على مقامات تفاضل الأنبياء، وهذا ينسجم مع نسبة التفضيل إلى الله (ﷻ) في قوله – تعالى – : ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾[1]، فأمر التفضيل مرده إلى الله وحده، وليس لأحد أن يقحم نفسه في هذا الأمر.

وقد بني التركيب السابق على الإيجاز بالحذف، وتقديره: فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور فلم يصعق بعد ذلك، أم بعث قبلي فصعق، وهو إيجاز بديع يتناسب مع هول الموقف وشدة الفزع، مما يقتضي أن تصاغ العبارة في عدد أقل من الكلمات، تناسبا مع سرعة وقع الأحداث، وما فيها من معنى الفجاءة، فضلا عما في الحذف من " إمتاع لأهل الفكر بالاستنباط والاستخراج الفكري، اعتمادا على دلالات القرائن "[2].

ومما يتناغم مع عطاء دلالة الحذف على سرعة وقع الأحداث ما نلمحه من إيثار التعبير بالفعلين (أحوسب) (بعث) تركيزا على الحدث، وتلاؤما مع مقام الحديث وما فيه من أحداث مفاجئة.

وقوله (ﷺ): (أحوسب بصعقته..) إشارة إلى صعقه في الدنيا عند جبل الطور حين تجلى له ربه، كما قص في القرآن الكريم في قوله – تعالى –: ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾[3]، وهذا يعني أنه إذا كان عانى من الصعق في الدنيا فإنه سيكون في مأمن من الصعق يوم القيامة، عدلا منه سبحانه.

=عن الشيء الذي يسأل عنه، وأن هذه الأحاديث تمثل نسبة كبيرة، تزيد بكثير على الاستفهام الذي أريد منه الدلالة على معاني الاستفهام البلاغية الأخرى، ينظر: الاستفهام في الصحيحين – خصائصه التركيبية ومعانيه البلاغية: عبد العزيز العمار: ٥٧٧، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م.

(١) سورة البقرة، جزء من آية: (٢٥٣).

(٢) البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، د/ عبد الرحمن حبنكة: ١/ ٣٤٥، دار القلم – دمشق – ط الأولى – ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م.

(٣) سورة الأعراف، جزء من الآية: ١٤٣.

وبعد أن نفى النبي (ﷺ) الدراية عنه، استأنف خبرا آخر فقال: (ولا أقول إن أحدا أفضل من يونس بن متى).

والواو في بدء تلك الجملة استئنافية تعطف مضمون كلام على مضمون كلام آخر إنشاء لاهتمام جديد، وإشباعا لجزء من المعنى له مزيد علاقة بالغرض المسوق له الكلام من نفي التفاضل بين الأنبياء، حتى ولو كان المفضل عليه هو يونس بن متَّى (عليه السلام).

مما يؤكد أن نفي المفاضلة ليست مقصورة على نبينا وموسى – عليهما السلام – مع أنهما من أولى العزم من الرسل، بل يمتد النفي ليشمل غيرهما ممن لم يكن في منزلتهما في الصبر وشدة العزم، وخير ما يُسْتَشْهَدُ به في هذا المعنى هو يونس (عليه السلام) ولذلك يقول القاري: " وَإِنَّمَا خصَّ يُونُسَ (عليه السلام) بِالذِّكْرِ مِنْ بَيْنِ الرُّسُلِ لِمَا قَصَّ اللهُ عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ مِنْ أَمْرِ يُونُسَ، وَتَوَلِّيهِ عَنْ قَوْمِهِ، وَضَجْرَتِهِ عَنْ تَثَبُّطِهِمْ فِي الْإِجَابَةِ، وَقِلَّةِ الِاحْتِمَالِ عَنْهُمْ وَالِاحْتِفَالِ بِهِمْ حِينَ رَامُوا التَّنَصُّلَ فَقَالَ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: ﴿ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ ﴾ [1] وَقَالَ: ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ [2]، فَلَمْ يَأْمَنْ – صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – أَنْ يُخَامِرَ بَوَاطِنَ الضُّعَفَاءِ مِنْ أُمَّتِهِ مَا يَعُودُ إِلَى نَقِيصَةٍ فِي حَقِّهِ فَنَبَّأَهُمْ أَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِقَادِحٍ فِيمَا آتَاهُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَأَنَّهُ مَعَ مَا كَانَ مِنْ شَأْنِهِ كَسَائِرِ إِخْوَانِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ "[3].

وقد جاءت جملة بيانه (ﷺ) مؤكدة بأن واسمية الجملة، مما يتناسب مع مقصده (ﷺ) في أن يستأصل هذا التفضيل من نفوس أتباعه، وجاء التعبير بلفظ (أحدا) نكرة، للدلالة على العموم، ليدخل جموع الأنبياء، فلا يحق لأحد أن يفضل أيا منهم على يونس (عليه السلام).

ونفي القول على لسانه (ﷺ): (ولا أقول)، دون أن يكون بيانه: (وليس أحدٌ أفضلَ من يونس بن متى) له دلالته في تأكيد النفي، وكأن النبي (ﷺ) يقول: إذا كنت لا أقول ذلك، فمن باب أولى أنتم لا تقولونه، كما أن نفي القول له دلالته في نفي ما هو أعلى من ذلك كالاعتقاد أو الظن – مثلا –.

---

(١)سورة القلم، جزء من الآية: ٤٨.

(٢)سورة الصافات، جزء من الآية: ١٤٢.

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للملا علي القاري: (٩/ ٣٦٤٥) دار الفكر، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠٢ م.

كما أن بدء الجملة بـ (لا) وما تتسم به من شيوع الصوت وطلاقة المد مع تسليطه على الفعل المضارع يقطع من دابر تلك المفاضلة في أي زمن، وكان لبدئها بالنفي أثره في تنبيه النفوس وتشويقها إلى معرفة ما بعد النفي وانشغالها بمضمونه، فإذا ما وقفت عليه تأكد في النفس وتمكن، ومما زاد في التنبيه والتشويق التعبير بأفعل التفضيل (أفضل) وهذا من شأنه أن يثير نفس السامع إلى معرفة المفضل عليه في سياق النفي، فلما قيل: (يونس بن متى) تمكن لديها، مما يزيد من الحرص على عدم الوقوع في هذه المفاضلة المنهي عنها.

وإذا كان النبي (ﷺ) بارعا في استهلاله بالنهي عن التفاضل بين الأنبياء عامة فإنه لم يكن أقل براعة في حسن انتهائه، حيث ختمه بما يدل على مقصوده من النهي عن التفاضل بين الأنبياء مطلقا، حتى ولو كان المفضَّلُ عليه من يُظَنُّ في حقه قدحا ونقيصة، فكان ختام بيانه بجملة (ولا أقول أن أحدا أفضل من يونس بن متى) مما يقطع التطلع إلى كلام آخر ويؤذن بانتهاء كلامه (ﷺ): " وإذا كان أول الكلام مفتاحا له، وجب أن يكون الآخر قفلا عليه "[1].

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لا بن رشيق القيرواني: ١/ ١٩٨، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع – القاهرة ٢٠٠٦ م.

المقام الثاني: غضبه (ﷺ) في مقام الإلحاف في مساءلته

عَنْ أَنَسٍ (رضي الله عنه): سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) حَتَّى أَحْفَوْهُ المَسْأَلَةَ، فغضب فصعد المنبر، فَقَالَ: «لاَ تَسْأَلُونِي اليَوْمَ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا بَيَّنْتُهُ لَكُمْ» فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَإِذَا كُلُّ رَجُلٍ لاَفٌّ رَأْسَهُ فِي ثَوْبِهِ يَبْكِي، فَإِذَا رَجُلٌ كَانَ إِذَا لاَحَى الرِّجَالَ يُدْعَى لِغَيْرِ أَبِيهِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ أَبِي؟ قَالَ: «حُذَافَةُ» ثُمَّ أَنْشَأَ عُمَرُ فَقَالَ: رَضِينَا بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ (ﷺ) رَسُولًا، نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الفِتَنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): «مَا رَأَيْتُ فِي الخَيْرِ وَالشَّرِّ كَاليَوْمِ قَطُّ، إِنَّهُ صُوِّرَتْ لِي الجَنَّةُ وَالنَّارُ، حَتَّى رَأَيْتُهُمَا وَرَاءَ الحَائِطِ» وَكَانَ قَتَادَةُ، يَذْكُرُ عِنْدَ هَذَا الحَدِيثِ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾ (١)» (٢).

إن كثرة السؤال من أشد الآفات ضررا على الفرد والمجتمع، ولذا ذمها الشرع الحنيف، ونهى عنها، وبين قبحها، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ، وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ»(٣)، وذلك لأن كثرة الأسئلة المذمومة سببَ من أسباب الاختلاف والهلاك، ومن هذه الأسئلة المذمومة السؤال عما سكت عنه الشرع ولم يبينه، والسؤال عما لا ينفع في الدين، والسؤال عن صعاب المسائل وشرارها، وبلوغ السؤال حد التكلف والتعمق، وغير ذلك من المواضع التي يكره السؤال فيها، والتي بينها الشاطبي – رحمه الله – وعددها(٤).

وقد فقه أصحاب رسول الله (ﷺ) هذا الأمر فكانوا يتهيبون من سؤاله، حتى لا يقعوا في مثل هذه الأمور، فقد أخرج ابن حبان عن أنس قال: كنا نهينا أن نسأل

(١) سورة المائدة، جزء من آية: ١٠١.
(٢) صحيح البخاري: كِتَابُ الدَّعَوَاتِ، باب: التَّعَوُّذِ مِنَ الفِتَنِ، حديث رقم: (٦٣٦٢).
(٣) صحيح مسلم، كِتَابُ الْفَضَائِلِ، باب: تَوْقِيرِهِ (ﷺ)، وَتَرْكِ إِكْثَارِ سُؤَالِهِ عَمَّا لَا ضَرُورَةَ إِلَيْهِ، أَوْ لَا يَتَعَلَّقُ بِهِ تَكْلِيفٌ وَمَا لَا يَقَعُ، وَنَحْوِ ذَلِكَ حديث رقم: (١٣٣٧).
(٤) ينظر: الموافقات للشاطبي: ٥/ ٣٧٤، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة: الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ- ١٩٩٧م

رسول الله (ﷺ) عن شيء، وكان يعجبنا أن يجئ الرجل العاقل من البادية فيسأله ونحن نسمع " (١).

ويدخل في هذه الأمور المنهي عنها هذا الحديث – محل الدراسة – والذي يحكى فيه سيدنا أنس بن مالك أن أناسا سألوا رسول الله (ﷺ) ذات يوم حتى أجهدوه بالمساءلة مما أغضبه واستدعى ذلك صعوده (ﷺ) المنبر، والنبي ما كان يصعد المنبر في غير خطبة الجمعة إلا في عظائم الأمور.

وهذا الحديث – كما هو واضح – يشتمل على طعوم مختلفة من البيان، وبين تلك الطعوم كان بيانه (ﷺ) لؤلؤة العقد في الحديث ورافدا مهما من روافد الشد والجذب والإثارة، وهو يعد من نبوءاته (ﷺ) ؛ لأنه يخبر عن أمور غيبية لا ينطق بها إلا نبي يوحي إليه، كما أنه يحمل بُعدا إعجازيا ؛ حيث ربط النبي (ﷺ) من خلاله بين الحاضر والمغيب، أي: بين الدنيا والآخرة بنعيمها وأهوالها، حيث أطلعه الله عليها، فرآها بكل ما فيها من خير وشر رأي العين، ورسول الله (ﷺ) مبلغ عن ربه، وهذا الحديث الذي بين أيدينا وحي كالقرآن غير أنه لا يتعبد بتلاوته ولا يتحدى به.

وهذا الحديث – كما قلت – فيه طعوم مختلفة من البيان، ففيه كلام لراوي الحديث سيدنا أنس، وكلام للنبي (ﷺ) في موطنين، وكلام لهذا الرجل الذي يُدْعَى لغير أبيه، وكلام لسيدنا عمر – كرم الله وجهه –، كما أنه يصف في دقة بالغة حالة ومقام الحديث فهو " من الأحاديث التي تصف مقام الكلام قبل أن تحدث بالكلام، وكأنها تريك ما كان عليه الحال، ثم تسمعك، وفي هذا مزيد عناية بأمر المعنى " (٢).

كما تبدو فيه دقة الراوي سيدنا أنس وشدة أمانته – وهذا حال كل جيل الصحابة – في نقل المشهد بكل تفاصيله وجزئياته ؛ لأنهم كانوا على يقين بأن دقة التبليغ عن رسول الله من صميم الدين، وأن ذلك من الأمانات التي حملوها.

---

(١) صحيح ابن حبان، باب فرض الإيمان، رقم: ١٥٥، ١/ ٣٦٨، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م

(٢) شرح أحاديث من صحيح البخاري دراسة في سمت الكلام الأول، د/ محمد أبو موسى: ٢٤٥، مكتبة وهبة – ط أولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م.

وأول ما بدأ به سيدنا أنس بيانه هو ذكر السبب الداعي لغضبه (ﷺ) فقال: (سألوا رسول الله (ﷺ) حتى أحفوه المسألة فغضب) وهؤلاء السائلون الذين عبر عنهم بواو الجماعة، صرحت بهم رواية أخرى للحديث بالاسم الظاهر " أن الناس سألوا نبي الله (ﷺ) حتى أحفوه المسألة " [(١)]، و (حتى) في بيانه للغاية التي وصلت إلى حد الإلحاف في السؤال، وليس غاية لغضبه (ﷺ) وهذا يعني أن غضبه (ﷺ) ليس للسؤال ولكن للإلحاف فيه، وقوله: (حتى أحفوه)، أي: أضجروه يقول الراغب في قوله – تعالى –: ﴿ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ [(٢)]" إلحاحا، ومنه استعير: أَلْحَفَ شاربه: إذا بالغ في تناوله وجزّه، وأصله من اللِّحَافِ، وهو ما يتغطّى به " [(٣)]، وعلى هذا فقول سيدنا أنس (حتى أحفوه) جار على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، حيث استعير (الحفُّ) للمبالغة في السؤال والمزايدة منه حتى شق ذلك على النبي وتسبب في غضبه.

وقد عبرت رواية أحمد بن حنبل عن ذلك (حتى أجهدوه بالمسألة) [(٤)]وتتأتى الفاءات المتعاقبة في قوله: (فغضب فصعد المنبر فقال) لتصور الجانب النفسي عند النبي (ﷺ) جرَّاء المبالغة في سؤاله ووقع ذلك على قلبه، مما استدعى صعوده المنبر لجلال الأمر وأهميته قائلا: (لا تسألوني اليوم عن شيء إلا بينته لكم).

وهذه الجملة الأولى من بيانه (ﷺ)، وهي تمثل جذوة من النار ألقيت في وجوه السامعين، فقد قالها في مقام غضبه من كثرة السؤال، وكان ذلك يقتضي الكف عن سؤاله وعدم المزايدة فيه، لا أَنْ يَطْلُبَ النبيُّ (ﷺ) منهم أن يسألوه، وهذا يعني أن النبي (ﷺ) أراد أن يستثمر هذا الموقف ربما حتى لا تتكرر مساءلته بهذه الصورة مرة ثانية، وبخاصة أنها أسئلة – كما ثبت في كثير من الروايات – كانت تقال على سبيل الاستهزاء أو التعنت والعبث، كما كان حال المنافقين معه، ففي صحيح البخاري عن ابن عباس

(١) الرواية في صحيح مسلم، كتاب: الْفَضَائِلِ، باب: توقيره (ﷺ) وترك إكثار سؤاله عما لا ضرورة إليه أو لا يتعلق به تكليف وما لا يقع ونحو ذلك، حديث رقم: (٢٣٥٩)، جـ ٤، صـ ١٨٣٤.

(٢) سورة البقرة، جزء من آية: ٢٧٣.

(٣) المفردات: ٤٥٢.

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل: مُسْنَدُ الْمُكْثِرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ، مُسْنَدُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ: (٢١/ ٢٤٦)، رقم: (١٣٦٦٦).

قال: " كان قوم يسألون رسول الله استهزاء فيقول الرجل: من أبي ؟، ويقول الرجل تضل ناقته ؟: أين ناقتي ؟ فأنزل الله هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾[1].

" قالَ عكرمةُ وغيرُه: إنَّ الآيةَ نزلتْ في ذلك، ويقربُ من ذلكَ السؤالُ عما أخفاه اللهُ عن عبادِهِ، ولم يُطلعهم عليهِ، كالسؤالِ عن وقتِ الساعةِ، وعن الروح، ودلَّت - أيضًا - على نهي المسلمينَ عن السؤالِ عن كثيرٍ من الحلالِ والحرامِ مما يُخشى أن يكونَ السؤالُ سببًا لنزولِ التشديدِ فيهِ، كالسّؤالِ عن الحجِّ: هل يجبُ كلَّ عامٍ أم لا؟ "[2].

وقد اقتضى مقام الغضب أن تصاغ عبارته (ﷺ) في بيان قوي فخم يقطر شدة وإرعادا، ولذا جاءت في صورة القصر بأقوى طرقه (النفي والاستثناء) ليناسب حالة الغضب، وما داخَلَ النبيَّ (ﷺ) من استنكار لهذا الصنيع من السائلين، ومعلوم أن هذا النوع من القصر: " لا يكون غالبا إلا في المقامات العنيفة المستوغرة، جهيرة النبرة، قوية الوقع، حيث تتشابك مواقف التأثير الوجداني مع الإقناع العقلي "[3].

وتأمل امتداد الصوت وإطالته في حرف النفي (لا)، مع تسليطه على الفعل المضارع (تسألوني) مما يعكس مشاعر الغضب عند النبي ؛ وذلك لأن (لا) أبلغ في الدلالة على النفي من غيرها، فمن خواص حروف النفي كما يقول ابن القيم: إنها تنفي ما قرب ولا يمتد معنى النفي فيها كامتداد معنى النفي في حرف (لا)، وذلك لأن الألفاظ مشاكلة لمعانيها[4]، وحرف (لا) تجد في نهايته (ألفا) يمتد بها الصوت ما لم يقطعه ضيق النفس، فآذن امتداد لفظها بامتداد معناها.

---

(١) سورة المائدة، جزء من آية: ١٠١، والحديث في صحيح البخاري، كتاب: تَفْسِيرِ القُرْآنِ، بَابُ قَوْلِهِ: {لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ}، رقم: (٤٦٢٢).

(٢) روائع التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي): (١/ ٤٥٠)، جمع وترتيب: أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، دار العاصمة - المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى ١٤٢٢ - ٢٠٠١ م.

(٣) علم المعاني،د/ صباح عبيد دراز: ٢/ ٥٩، مطبعة التركي بطنطا ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م.

(٤) ينظر: بدائع الفوائد لابن القيم الجوزية: ١/ ١٠٢، تحقيق: هشام عطا وآخرون، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط الأولى، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.

فهذا الحرف يجسد حرص النبي (ﷺ) على لفت أسماعهم وإثارة انتباههم من خلال رفع الصوت بتلك الأداة (لا)، حتى لا تتكرر مساءلته بهذه الصورة مستقبلا، ولذا قيد عبارته بـ (اليوم)، وجعل الأمر عاما، فعبر بكلمة شاملة جامعة (شيء) مع مجيئها نكرة، و (الشيء) كما يقول الراغب: " هو الذي يصحّ أن يعلم ويخبر عنه، وعند كثير من المتكلّمين هو اسم مشترك المعنى إذا اسُتْعمِل في الله وفي غيره، ويقع على الموجود والمعدوم " (١).

كما تظهر دقة بيانه (ﷺ) في قوله: (بينته لكم) مع أن مقتضى قوله (لا تسألوني) أن يكون المقصور عليه (أجبتكم عنه)، ولكن البيان فيه معنى ظهور الأمر وانكشافه واستجلاء حقيقته، وجاء في رواية أخرى (إلا أنبأتكم به) (٢)، " والنَّبَأُ: خبر ذو فائدة عظيمة، يحصل به علم أو غَلَبَة ظنّ " (٣).

والقيد (لكم) فيه معنى التقرير والتأكيد ؛ إذ كان من الممكن أن يكتفى في بيانه (إلا بينته) وفيه مزيد من الإلزام لهم بما سيكشف عنه (ﷺ)، فربما أدى بيانه لهم إلى تحريم ما لم يحرم، أو إيجاب ما يشق القيام به،أو ما يجلب لهم الحزن، كما جاء في رواية حديث أبي أنه قال: خرج رسول الله (ﷺ) وهو غضبان محمار وجهه حتى جلس على المنبر فقام إليه رجل فقال: أين أنا ؟ فقال: في النار... الحديث (٤)، وربما كشف النبي (ﷺ) عن شيء من أحوال الآخرة وأهوالها، ومن هنا كان لهذه الكلمة وقعها المدوي وأثرها الفادح على قلوب الصحابة – رضوان الله عليهم – ينقل لنا راوي الحديث هذا الأثر بتلك الجملة من بيانه: " فجعلت أنظر يمينا وشمالا فإذا كلُّ رجلٍ لافٌّ رأسَه في ثوبه يبكي "، وقوله: " فجعلت أنظر يمينًا وشمالًا " تكشف في دقة بالغة عن مراده، فهو ينظر لكي يقف على وَقْعِ هذه الجملة على حال الناس، و (الفاء) بوقعها السريع في بدئها تكشف

(١) المفردات: ٢٧٤.
(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، مُسْنَدُ الْمُكْثِرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ، مُسْنَدُ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ، حديث رقم: ١٣٦٦٦.
(٣) المفردات: ٤٨٢.
(٤) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي: ٩٠، دار المعرفة – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

عن رغبته وشدة تطلعه لاستكشاف أحوالهم، وكيفية استقبالهم لتلك الجملة، والتي كان لها وقع الصاعقة في نفوسهم.

وقد أنبأت (إذا) الفجائية في بيانه عن هذا المشهد الذي لم يكن يتوقعه أبدا، فربما كان يتوقع بعد سماعهم لجملة رسول الله أن يكون حالُ الناس (كأن على رؤوسهم الطير) – مثلا – أو أن يكون حالهم شاخصي الأبصار تجاه نبيهم، أمَّا أن يرى هذا المشهد فلم يكن يطرأ على خلده وحسبانه أبدا، ولذا كان لـ (إذا) الفجائية دلالتها القوية في بيانه في هذا السياق.

وهو ينقل في دقة بالغة حالهم فيعبر بـ (كل) مع إضافتها لاسم نكرة (رجل) ؛ للدلالة على العموم، مع تهيئة تلك النكرة لجملة الوصف المثيرة (لافٌّ رأسه في ثوبه) والتي ذُيِّلَت بجملة الحال (يبكي).

وجملة الصفة (لاف رأسه في ثوبه) وإن قصد بها حقيقتها، إلا أنها كناية عن شدة الخوف والوجل التي أصابت القوم، والتعبير بتلك الكناية أبلغ بكثير من قوله: (فإذا القوم وجلون خائفون) ؛ لأن هذا القول مجرد إبانة للمعنى المباشر الذي يفهم من ظاهر اللفظ، أما بيان الصحابي ففيه معنى المعنى، وقد أبان الإمام عبد القاهر – رحمه الله – عن كليهما بقوله: (وإذا قد عرفت هذه الجملة، فههنا عبارة مختصرة، وهي أن تقول (المعنى) و (معنى المعنى) تعني بالمعنى: المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى: أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر "[1].

ومن دقائق نظمه (ﷺ) في بيانه ما نراه من مغايرته في الصياغة بين الجملتين فجملة الوصف اسمية (لاف رأسه في ثوبه) ؛ لأن الغرض منها الدلالة على الثبوت والدوام والاستمرار، أما جملة الحال (يبكي) بصيغة المضارعة ؛ لأن الغرض منها أن يستحضر حال القوم وهم في بكائهم، " وصيغ المضارع في ألسنة أصحاب البيان فيها ثراء وعمق وقدرة بارعة على إحضار المشاهد والمواقف "[2] وكأننا نراهم بأعيننا الآن، كما تكشف عن وقع كلمة النبي (ﷺ) في نفوسهم، والذي بدا في تجدد بكائهم.

(١) دلائل الإعجاز: ٢٦٣.

(٢) شرح أحاديث من صحيح البخاري، د/ محمد أبو موسى: ١٤٧.

ولو أن بيانه كان (فإذا كل رجل لافٌّ رأسه في ثوبه باكيا) ما أدركنا تلك المعاني، بالرغم مما فيها من تناسب في الصيغ بالتعبير باسم الفاعل في الموقعين (لاف – باكيا).

وتتوالى المفاجأت التي لم يكن يتوقعها سيدنا أنس، فحال القوم يقتضي ألا يصدر سؤالٌ من أحدٍ بعد ما بدا عليهم من تأثرٍ بين، بجملته (ﷺ) والتي أرجفت قلوبهم، وأرعدت فرائصهم، ولكن يبدو أن أحدهم أراد أن يستثمر هذا الموقف من رسول الله، وهو موقف الإبانة والوضوح وكشف الحقائق ليقف على حقيقةِ أمرٍ طالما راود نفسه، وهو " من أبوه الحقيقي ".

فيقول سيدنا أنس: " فإذا رجل كان إذا لاحى الرجال يُدْعَى لغير أبيه فقال: يا رسول الله: من أبي ؟ قال: حذافة "، وقد تكررت (إذا) في بيانه مرتين، الأولى: فجائية في (فإذا رجل)، والثانية: ظرفية تفيد الشرط في قوله: (إذا لا حى).

فهذا الرجل كان شأنه أنه كثيرا ما يجادل الرجال، ويتطاول ويتفاخر عليهم، تنبئ (إذا) الشرطية عن ذلك، وفعل الكون (كان) الضارب في أعماق الزمن الماضي، والتي تدل على تحقق ثبوت معنى خبرها لاسمها من الماضي [(١)]، وذلك لأصالة معنى المضي فيها، فهم قد خلعوا منها الحدث، ولم يبق فيها إلا معنى الزمان[(٢)] وقد اتخذ القوم من هذا الرجل هذا الموقف الذي يصعُب على كل نفس (يدعى لغير أبيه)، أي: يُنْسَبُ لغير أبيه، انتقاصا من شأنه، والتعبير بالفعل (يُدْعى) لما لم يسم فاعله مما يدل على شيوع الأمر، وأنه لم يقتصر على آحاد الناس، مما أثر في نفس الرجل وجعله يتجرأ، ويسأل النبي (ﷺ) بالرغم مما بدا له من حاله وحالِ القوم – أيضا –، ولذلك فوجئ سيدنا أنس بهذا الرجل يسأل النبي (ﷺ) هذا السؤال الغريب: (من أبي ؟) وقد دل على معنى الفجاءة التعبير بـ (إذا) الفجائية في قوله: (فإذا رجل).

ولعل الرجل كان خائفا، وهو يتجرأ ويسأل رسول الله (ﷺ) في هذا السياق الغاضب، ولذا نراه يمهد للرسول بهذا النداء (يا رسول الله) وكأنه يريد من ورائه أن

(١) ينظر: حروف المعاني لأبي القاسم الزجاجي: ٦، ت: د/ على توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة – بدون.

(٢) ينظر: بدائع الفوائد: ٢/ ٢٩٩.

يجتث شيئا من جذوة الغضب في نفس الرسول الكريم، وربما قصد بندائه بصيغة الرسالة أن يؤكد إيمانه المطلق وتصديقه المفعم بما جاء به، وأن هذا السؤال ليس من باب الاستهزاء والتهكم كما كان الحال من سؤال المنافقين للرسول (ﷺ) بمثل هذه الأسئلة أحيانا، ولعلك تلحظ – أيضا – خوف الرجل ووجله مما وراء نغمة الأداء في (يا)، بما فيها من استطالة المد الكاشف عن التودد والاستمالة والاستعطاف.

إن رغبة الرجل في حسم هذا الأمر الذي طالما راوده وشغل ذهنه هي التي دفعته لأن يقتنص الفرصة التي أتاحها الرسول الكريم،ويسأله هذا السؤال، بالرغم مما يحيط الموقف من ملابسات الغضب.

ويدرك نبي الرحمة شدة حاجة الرجل، فيبادره بما يطمئن قلبه، ويزيل ما يساوره من شك، فيجيبه قائلا: (حذافة) بحذف المسند إليه مراعاة لحال غضبه، مما يقتضي الإقلال من اللفظ، والاقتصار على ما يفيد، وربما إسراعا إلى الغرض المطلوب بطمأنة الرجل.

وفي رواية أحمد (**أبوك حذافة**) [1]بذكر المسند إليه، مراعاة لحال السائل في استيثاقه من نسبته إلى أبيه، فأراد النبي (ﷺ) بذكر المسند إليه أن يؤكد له ذلك.

وفي رواية الطبراني: (**قال: أبوك فلان الذي تدعى إليه**) [2] وفيها زيادة في التأكيد والاستيثاق بذكر المسند إليه، وجملة الصفة (الذي تدعى إليه)، وكأنها تعني أن ما تُدْعَى إليه هو أبوك، فلا تدع للشك مجالا في نفسك.

وبعد إجابة النبي الكريم على الرجل، يتدخل رجل الحكمة، وتقدير المواقف الحاسمة، سيدنا عمر، يقول راوي الحديث: (ثم أنشأ عمر فقال: رضينا بالله، وبالإسلام دينا، وبمحمد (ﷺ) رسولا، نعوذ بالله من الفتن).

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، مُسْنَدُ الْمُكْثِرِينَ مِنَ الصَّحَابَةِ، مُسْنَدُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، رقم: ١٠٥٣١.

(٢) المعجم الكبير للطبراني: (٥/ ٦٠)، حديث رقم: ٤٥٨٠، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية – القاهرة، الطبعة: الثانية.

والتعبير بـ (ثم) في كلام سيدنا أنس والذي مهد بها ليخبرنا بقول عمر (ﷺ) في حاق موضعه، فهي مع ما تفيده من الترتيب والتراخي الزمني، نلمح فيها طيَّ الزمن وتحريكَ الأحداث، فهذا الحرف كما يقول د/ محمد الأمين الخضري: " أداة رقيقة هامسة، تنساب معها المعاني إلى النفس في لطف، وتحرك الزمن في هدوء، وهذا معني يصاحبها في حقيقتها ومجازها " [(١)]، وهذا ما قصده الراوي في تعبيره بـ (ثم) دون أن يكون بيانه: فقال عمر، هكذا مباشرة دون تلك الجملة الممهدة لقوله، وكأنه أراد من ورائها أن يخبر بمقصد عمر، ورغبته في أخذِ الكلام في وجهةٍ أخرى، ومقامٍ آخر غير هذا الجو المثير للغضب والداعي إليه بقوة.

وحرف العطف (ثم) جديرٌ بأن يصور هذا الانتقال من مقام إلى مقام آخر، ويباعد بين السياقين، سياق الغضب، وسياق إطفاء شعلته،والقضاء على جذوته، بتلك الكلمات ذات اللمحات الإيمانية الفياضة، والتي تتضمن جوهر الشريعة وأصول الإسلام.

وتأمل دقة اصطفاء سيدنا أنس لكلماته، فهو يقول: (ثم أنشأ عمر) والإنشاءُ يقتضي مهلةً من الزمن تناسب التعبير بالحرف (ثم)، فهو كما يقول الراغب: " إيجادُ الشيء وتربيتُه " [(٢)]، وهذا منه من التناسب البديع بين الألفاظ والمعاني.

وتذوَّق معي لو أن بيان هذا الصحابي الجليل كان على تلك الصورة (فقال عمر) هكذا مباشرة، فما أراك إلا أن تشاركني القول بأن هذا التعبير فيه ما يوحي بأن سيدنا عمر سيواصل في الحديث، آخذًا به في نفس وجهته الاستفزازية المثيرة لغضب النبي (ﷺ).

قلت: إن كلمات سيدنا عمر (ﷺ) تتضمن جوهر هذا الدين، فهو بها يصعد إلى آفاق السماء، ويعلو إلى مدارج اليقين، ويقتبس من أنوار هدي النبوة، فهذه الكلمات في

(١) من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم (الفاء وثم)، للدكتور: محمد الأمين الخضري: ٢٣٠، مكتبة وهبة – القاهرة – الطبعة الثانية – ١٤٢٧ هـ – ٢٠٠٧ م.
(٢) المفردات: ٤٩٤.

الأصل من كلمات النبوة [1]، ولكنه يقتبسها في هذا المقام ليضفي عليه أنوارا وجلالا، ولينشر عبق الإيمان في أجواء هذا الجو الغاضب ؛ لأن سؤال الرجل – وإن كان له عذره – يتعلق بالغيبيات، فهو في أمر نسبه، والرجل شاكٌّ في أمره، بدليل أن سؤاله (من أبي ؟) على حقيقته، يقصد به الاستبيان والوقوف على الحقيقة، ولو أنه كان ولد زنى لنسبه النبي (ﷺ) إلى أبيه الحقيقي ؛ لأن كلامه واضح غاية الوضوح (لا تسألوني اليوم عن شيء إلا بينته لكم) وهذا يترتب عليه كشف ما يؤدي إلى الضغينة وإثارة العداوة، وبخاصة أن أمَّ الرجل كانت في الجاهلية، وهذا يتعارض مع منهاج النبوة في إصلاح المجتمع وإشاعة الطهر في جنباته.

ومن ثمَّ أراد سيدنا عمر أن يقطع دابر هذا الجو المثير للغضب، بدليل أنه لم يقل مقالته (رضينا بالله ربا...) بعد قوله (ﷺ) مباشرة: (لا تسألوني اليوم عن شيء....)، بل كان داعيها مساءلة الرجل للنبي عن أبيه، وكأنَّ سيدنا عمر (رضي الله عنه) بكلماته هذه يريد أن ينتقل بالكلام إلى جو آخر بعيد عن تلك الأسئلة الغيبية والتي لا داعي لها في هذا المقام.

وكانت عبارات عمر (رضي الله عنه) في غاية السخاء في هذا المقام، فقوله (رضينا بالله ربا) يفيد التوحيد الخالص، مع جمعه بين صفتي الجلال والإنعام في قوله: (بالله ربا).

وقوله: (وبالإسلام دينا) فيه تجديد للإيمان بالدين الخاتم الذي ارتضاه الله لنا.

وقوله (وبمحمد (ﷺ) رسولا) فيه إثبات لجانب بشريته (ﷺ) مع الشهادة له بالرسالة.

ثم تأتي عبارته الأخيرة (نعوذ بالله من الفتن) ليغلق بها هذا الموقف الداعي إلى مزيد من الفتن، وهذه الجملة على إيجازها بيضةُ الحديث ولؤلؤتُه، ولذا جعلها الإمام البخاري – رحمه الله – عنوان باب هذا الحديث (باب التعوذ من الفتن) [2].

---

(١) وذلك في الحديث الذي رواه سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، عَنْ رَسُولِ اللهِ (ﷺ) قَالَ: "مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ: وَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا، غفِر الله لَهُ ذَنْبُهُ"، صحيح البخاري، كتاب: الْأَذَانِ وَالسُّنَّةِ فِيها، بَابُ: مَا يُقَالُ إِذَا أَذَّنَ الْمُؤَذِّنُ، رقم: ٧٢١.

(٢) ينظر: صحيح البخاري: ٩/ ٥٣ ، كتاب: الفتن، باب التعوذ من الفتن.

وقد جاءت تلك الجملة الأخيرة من بيانه مفصولة عن سابقتها، ويبدو للوهلة الأولى أن سر فصلها هو كمال الانقطاع بلا إيهام، فهي خبرية لفظا، إنشائية معنى، أما ما سبقها من جمل فهي خبرية لفظا ومعنى.

وإن كنت أرى أن هذه علة لفظية لا تنساب إلى الكشف عن العلاقة المعنوية بين الجمل والتي استدعت الفصل بينها، ولذلك أرى أن هذه الجملة وإن جاءت مفصولة في الظاهر إلا أنها موصولة المعنى بما قبلها، أليس في الرضا بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد رسولا، غلقٌ لباب الفتن ودرء لها وإعلان للاستعاذة منها ؟ وهذا يعني أن سر الفصل هو ما بين هذه الجملة وسابقتها من كمال الاتصال، حيث جاءت مؤكدة لمضمون ما قبلها.

وهذا يعني أن ما يظن – أحيانا – أنه من كمال الانقطاع، هو من كمال الاتصال، إذا ما نظرنا إلى ما بين الجمل من أنساب المعاني، دون الوقوف عند حدود اللفظ، وهذا هو ما يجب أن ينظر إليه.

ثم يواتينا راوي الحديث بكلام النبوة العالي قائلا: (فقال رسول الله (ﷺ) ما رأيت في الخير والشر كاليوم قط، إنه صُوِّرت لي الجنةُ والنارُ حتى رأيتهما وراء الحائط).

وأجد القلم يعود مرة أخرى إلى رعشته، والقلب إلى وجله ؛ لأنني في كثير من الصفحات السابقة في تحليل هذا الحديث، كنت أعايش بيانا لنفوسٍ بشرية لم تتصل بالوحي ولم تنطق عن ميراث حكمة، ولكنها الرغبة في اكتساب الأجر، عسى أن أكون ممن نضَّر اللهُ وجوههم بالوقوف على شيء من أسرار بيانه(ﷺ).

وهذا الهدى النبوي من الغيبيات التي أَطْلَع اللهُ (ﷻ) نبيَّه (ﷺ) عليها، حيث كشف له الحجب فأراه الجنة بما فيها من خير وأخيار، وأراه النار بما فيها من شر وأشرار – نعوذ بالله منها.

والطابع الذي يتسم به هذا البيان من كلامه (ﷺ) هو الطابع الخبري، وقد جاء في غاية المناسبة للمقام ؛ لأن النبي (ﷺ) يتحدث عن غيبيات وأمور لا يطلع عليها إلا نبي مرسل، ولذا كان الأسلوب الخبري هو الأنسب لحكاية تلك الحال.

كما نلحظ أن بيانه (ﷺ) يأخذ طابع العموم والإجمال، وقد جاء في غاية المناسبة لمقام الغضب، فالحديث وإن تكونت لبناته من جملتين، ثانيتهما موضحة لما قبلها، إلا أنه يشتمل على كل شيء من أبواب الخير والشر، فهل بعد الجنة والنار من شيء ؟ واقرأ هاتين الجملتين وتأمل وقعهما على قلبك وعقلك، فبهما تتخلخل المفاصل، وترتعد الفرائص، وتتزلزل القلوب الحية.

والنبي الكريم لعله يقصد من وراء نقلهم إلى هذا الجو المفزع، والمقام الذي يقطر خوفا ووجلا أن يلفتهم إلى ما هو أهم وأجدي،وأن يشغلهم بما يحقق لهم النفع ويباعد عنهم الضر، وأن يذكرهم بحقيقة مرجعهم ومآبهم، إما إلى الجنة، ولن ينالها إلا من يأخذ بأسباب الخير، ويشمر عن ساعد الجد، وإما إلى النار، وهي مآل من يسلك طريق الشر، وبهذا ترتفع نفوسهم، و تسمو قلوبهم، بعيدا عن تلك الأسئلة التي لا تنفع ولا تجدي، فالأمر جلل،ويحتاج إلى العمل والجد والنشاط، لا أن تُشْغَل النفوسُ بسفاسف الأمور، وما يجلب لها البغضاء والضغينة، والتي هي نتاج لكثرة السؤال والإلحاف فيه.

وقد استهل النبي الكريم جملته الأولى بما يثير التشويق في نفوس السامعين، وذلك من خلال أسلوب النفي بـ (ما) ؛ وذلك لأن " النفس تتطلع عند وقوع النفي إلى معرفة أسبابه، وتشغل بالبحث في مضمون الجملة التي وقع فيها النفي، وهذا من شأنه تأكيد المعنى وتمكينه "[1]، فبمجرد أن نطق النبي الكريم بهذا الحرف بما فيه من مد واستطالة، تطلعت النفوس إلى ما بعد هذا النفي، متسائلة علام سيقع هذا النفي ؟ ولاشك أن ذلك أدعى إلى تمكين المعنى، وتثبيته في النفس، وتزداد الإثارة والتطلع بالوقوف على فعل الرؤية (رأيت)، وهي هنا بصرية، لابد لها من شيء تقع عليه، وهذا أدعى إلى زيادة تشويق النفوس، وإثارة اشتغالها.

وإيثار التعبير بالفعل (رأيت) بصيغة المضي للدلالة على التحقيق والتقرير للفعل.

و(أل) في لفظي (الخير والشر) للجنس، وهذا ينبئ عن جلال الأمر، وهول الموقف، كما أنه أدعى إلى إثارة النفس، وفزع القلب ؛ لأن الأمر يتعلق بالخير بعمومه، وبجميع طرقه وأسبابه، وأحوال أهله وفاعليه، ويتعلق بالشر بجملته وتفصيله، ومصير أهله والواقعين فيه.

---

(١) التشويق في الحديث النبوي الشريف (طرقه وأغراضه)، د/ بسيوني عبد الفتاح فيود: ٧٣، ط: الحسين الإسلامية، ط: أولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

ويستكمل التصوير عطاءه، ويتعمق إيحاؤه، ويتسع معناه، مع التعبير بحرف الظرفية (في)، وهي ظرفية مجازية يراد بها الملابسة الشديدة كملابسة الظرف للمظروف، فالتعبير به أنسب إلى تصوير ما رآه النبي (ﷺ) عندما كُشِفَت له الحجب، حيث رأى رأس الخير وأصل الشر، وفي هذا تجسيم لكل منهما، ترغيبا في الأول، وترهيبا من الثاني، ولو جاء بيانه: " ما رأيت خيرا وشرا كاليوم قط، ما كان هذا المعنى.

كما عمَّق الحديث الشريف الإحساس بالمعنى، فأكده ووضحه بالجمع بين الضدين (الخير والشر) لتقف النفسُ على تصوير ما أفاض الله به على نبيه (ﷺ) بإطلاعه على أقصى الغايات في كل ما يَشغَل النفوس البشرية، سواء في جانب الخير أو جانب الشر.

وتتبدى بلاغة الحذف في قوله (ﷺ): (كاليوم قط) أي: كما رأيت اليوم قط، وهذا الحذف يتناسب مع وقع المشهد، وما فيه من إثارة ورعب وخوف ووجل، وهذه المعاني تتطلب الإيجاز وأداء المعنى بأقل ما يمكن من الألفاظ، كما أن الحذف في هذا المقام الغاضب أدعى إلى إثارة انتباه المتلقي وتجديد نشاطه، بحثا عن المحذوف، فإذا ما وصل إليه استقر المعنى في ذهنه وتمكن [1].

وقوله (ﷺ): (قط) لتوكيد النفي في الزمن الماضي، وهو ظرف لاستغراق الزمان الماضي كله منفيا ؛ لأنه يكون مسبوقا بالنفي، تقول: ما فعلت هذا قط، أي فيما مضي وانقطع [2]، وفي التعبير به في هذا السياق مبالغة واضحة في أنَّ ما رآه النبي (ﷺ) في هذا اليوم يختلف عن سابق ما أطلعه الله عليه من قبل، وهذا يعني أن النبي الكريم قد أَطْلَعَه اللهُ في السابق على أشياء في الخير والشر، ولكن ذلك لم يصل إلى هذا الحد الذي رآه اليوم.

(١) ينظر: الحذف البلاغي في القرآن الكريم، مصطفى عبد السلام أبو شادي: ٧، مكتبة القرآن الكريم، القاهرة، بدون.

(٢) ينظر: ارتشاف الضرب من لسان العرب لأبي حيان الأندلسي: ٢/ ٢٤٧، تحقيق: د/ مصطفى أحمد النماس، مطبعة المدني – القاهرة – ط أولى – ١٤١٤ هـ - ١٩٨٤ م، وينظر: الظرف خصائصه وتوظيفه النحوي د/ المتولي علي المتولي الأشرم: ١٩٠، ، مكتبة جزيرة الورد، المنصورة – بدون.

والذي يلحظ في بيانه (ﷺ) أن الجملة السابقة منه كان من الممكن أن يُسْتَغْنَى بالتي بعدها عنها، فيكون نظمُ الحديث جملةً واحدة (إنه صورت...) ؛ لأن هذه الجملة هي نفس سابقتها في المعنى، ولكنها جاءت موضحة لما لابسها من غموض وإبهام، ولاشك أن هذا أدعى إلى تمكين المعنى في النفس وتثبيته ؛ لأنه جاء والنفس مهيأة له، مترقبة لمعرفته، متطلعة للإحاطة به، فجملة الأمر – كما يقول الإمام عبد القاهر: " أنه ليس إعلامُك الشيءَ بغتةً غفلًا، مثْلَ إعلامِك له بعْدَ التنبيهِ عليه والتقدمةِ له؛ لأنَّ ذلك يَجْري مَجْرى تكريرِ الإعلام في التأكيد والإحكام. ومن ههنا قالوا: إنَّ الشيءَ إذا أُضْمِر ثمَّ فُسِّر، كان ذلك أفخمَ له مِنْ أن يُذكَر من غير تقدمة إضمار " [(١)].

وما سبق يكشف عن سر الفصل بين الجملتين وهو ما بينهما من كمال الاتصال، حيث جاءت الثانية منهما موضحة ومبينة لسابقتها، وكاشفة لما لابسها من غموض وإبهام، وربما كان الفصل لشبه كمال الاتصال، وكأن الجملة الأولى أثارت هواتف في نفوس الصحابة ؛ نظرا لما فيها من غرابة وغموض، فسألوا الرسول قائلين: وكيف رأيتهما يا رسول الله ؟ فقال: إنه صورت....

وقد ابتدأ النبي (ﷺ) جملته مؤكدا لها بـ (إن)، وهذا التأكيد مما يتناسب مع أهمية المعنى الذي يصوره وخطورته، فهو من المعاني الفخمة والمقامات الجليلة، ومن شأن تلك المعاني أن تصاغ صياغة حافلة ضخمة مثلها، كما أن هذا التأكيد مما يتناسب مع عمق المعنى في نفسه (ﷺ) وشدة تأثره به، ومدى احتشاده له، فهو لم ير شيئا هيِّنا بسيطا، بل رأى الجنة بنعميها، ورأى النار بأهوالها، فكان من حق هذا المعنى أن يصاغ صياغة قوية لافتة مؤثرة.

وإيثار التعبير بالجملة الاسمية بالمخالفة للجملة السابقة، دون أن يقول النبي (ﷺ) مباشرة: صورت لي... وذلك لغرض بلاغي، وهو تأكيد مدلولها، وأن النبي (ﷺ) قد رآهما رؤيا ثابتة وواقعية، وهذا يتفق مع ما ذكره البلاغيون من أن الجملة الفعلية يؤتى بها عند مجرد الإخبار، فإذا أريد التأكيد أتي بالجملة الاسمية [(٢)].

---

(١) دلائل الإعجاز: ١٣٢.

(٢) ينظر: شروح التلخيص: ١/ ٢٢٠.

وتتكاثف عناصر التأكيد في بدء هذه الجملة من بيانه (ﷺ) بضمير الشأن والقصة في (إنه)، أي: الشأن والقصة أني صورت...، وذلك مما شكل مطلعا قويا، واستفتاحا ملفتا في صدرها، جعل النفس تتطلع وتتشوق إلى ما يحمله هذا الضمير من إبهام وغموض، فإذا جاء عقبه ما يوضحه ويزيل إبهامه تمكن في الذهن فضل تمكن " والمتكلم المبين حين يأتي بضمير الشأن كأنه يطرق في أذن السامع طرقة تنبيه، ويقول: انتبه ؛ لأنه سيأتيك من الكلام ما تجب الحفاوة به "[1].

والتعبير بهذا الضمير – في هذا السياق – جاء في غاية التناغم لما يخبر به النبي (ﷺ) من رؤيته للجنة والنار رأي العين، وهذا من المعاني الفخمة العظيمة والتي تأبى فطرة اللغة إلا أن تصاغ في صياغة قوية تتناسب مع عظمة المعنى، إذ لا شيء أعظم ولا أخطر مما أطلعه الله عليه من تصوير الجنة والنار له.

والتعبير بالفعل (صوِّرت) فيه دلالة قاطعة على الرؤيا البصرية المباشرة للجنة والنار باستحضارهما ومجيئهما وتقريبهما له (ﷺ) حتى اطَّلع عليهما بكل جزئياتهما وتفاصيلهما وشمولها، والتعبير به بصيغة ما لم يسم فاعله، للعلم بالفاعل وتعيُّنِه ؛ إذ لا يقدر على ذلك إلا الله – تعالى – وفيه – أيضا – إشارة إلى قوة إلهية خارقة خفية تقول للشيء كن فيكون، كما هو الحال في بناء الفعل في قوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ [2] يقول جار الله الزمخشري: " ومجيء إخباره على الفعل المبنى للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء، وأنّ تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر، وتكوين مكون قاهر، وأنّ فاعلها فاعل واحد، لا يشارك في أفعاله، فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره " [3].

وتشديد عين الفعل (صوِّرت) مما يجسد هول الموقف ويتناسب مع ضخامة الحدث، وتقديم الجار والمجرور (لي) دلالة على الاختصاص، وأن هذا مما اختص الله به

(١) شرح أحاديث من صحيح البخاري، د/ محمد أبو موسى: ٣٧٩، وينظر البحث صـ: ١٨ .
(٢) سورة هود، جزء من آية: ٤٤ .
(٣) الكشَّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي: ٢/ ٤٠٦، شرحه وضبطه وراجعه: يوسف الحمادي ـ مكتبة مصر ـ القاهرة – بدون.

نبيه (ﷺ)، ولم يطلعه لأحد غيره، يضاف إلى ذلك ما أفاده هذا التقديم من العناية والاهتمام، تأكيدا على قرب الصلة بين الله ورسوله (ﷺ).

وفي قوله (لي) إيجاز بليغ بالحذف، تقديره: صورت لعيني، بدليل قوله: (حتى رأيتهما)، وذلك مما يؤكد الرؤيا المباشرة، والتصوير الدقيق للجنة والنار، مما يضفي على المقام هولا وفخامة.

و(أل) في (الجنة) للعهد، أي: جنة الآخرة، والتي أخبرنا القرآن عنها، وشوقنا بها النبي (ﷺ) في سنته، وهي علم جامع لكل أوصافها وكافة درجاتها ونعيمها.

و(أل) في (النار) للعهد – أيضا – أي: نار الآخرة، والتي ذكرها من شأنه أن يَقْرَع الأسماع، ويفجع القلوب، ويرعد الفرائص ؛ وذلك لتعاظم خطرها وشدة أهوالها، ومبالغةٌ في التهويل والتخويف عبر النبي الكريم عنها بأعم أسمائها وأشهرها، فلفظ النار يجمع كل صفات العذاب وأنواع الهلاك.

فالتعبير بهذين اللفظين (الجنة والنار) – في سياق الحديث – دون غيرهما من أوصافهما مما يجعل وقع الترهيب أشد وأبلغ، والتحذير أعظم وأبين، وكأن النبي الكريم أراد من وراء الإخبار بتصويرهما له أن يذكر الغافلين ويرهب نفوس السامعين، بالاشتغال بجوهر الأعمال التي من شأنها أن توصل إلى ما فيه الخير والنعيم، ويبعدها عن دركات النار، وما فيها من أهوال.

و(حتى) في قوله: (حتى رأيتهما) هي معبر الحديث، وبؤرة اهتمامه، وهي النافذةُ الموصلة إلى المقصود من بيانه ؛ لأن النبي (ﷺ) لم يقصد أن يقف المعنى عند مجرد الإخبار بتصوير الجنة والنار له، بل عمد إلى التحديد المباشر للرؤيا، مما يضفي على المشهد فخامة وهولا.

ويتضافر مع (حتى) في الدلالات الحاسمة والقاطعة جل ألفاظ الحديث مثل (الخير والشر) معرفين بأل الجنسية، والظرف (قط) الدال على استغراق الزمن الماضي، وتعريف (الجنة والنار) بـ (أل) العهدية، وذلك كله مما يسهم في تهويل الموقف وتفظيع الحدث.

وبالنظر في بيانه (ﷺ) ندرك هذا اللون البديعي الذي تطلبه المعنى واستدعاه وأضفى على النظم مزيدا من تلاحم عناصره وتقوية روابطه، وهو اللف والنشر المرتب، فقوله: (الجنة) يرجع إلى الخير، وقوله (النار) يرجع إلى الشر، وقد أكد النبي (ﷺ) من خلاله أن عين الخير هو الجنة، وجنس الشر هو النار.

ويضاف إلى ذلك أن استثماره (ﷺ) لهذا اللون البديعي يتفق مع ما يسري عليه النسق العام للحديث من الإبهام للمعنى والتشويق له ثم ما يعقبه من التفصيل والبيان والتوضيح " وفي هذا تفخيم له وتعظيم لشأنه ؛ لأن إبهامه يدع النفس تذهب في تصور تفصيله كل مذهب، فإذا فسر كان هذا أحلى موقعا في النفس "[1].

كما لا نغفل هذا النغم المنبعث من تكرار حرف الراء برعدتها الواضحة في أغلب الألفاظ التي شكَّلت بنية الحديث (رأيت – الخير – الشر – صوِّرت – النار – رأيتهما – وراء)، ولاشك أن تكرار حرف (الراء) بهذه الصورة مما يتناغم مع هول ما يصوره ويخبر به وشدة وقع ذلك في نفوس السامعين وذلك لما أضفاه على ألفاظ الحديث من قوة، وعلى السياق من حركة عنيفة وصوت صاخب مجلجل ؛ لأنه حرف لثوي مجهور مفخم متوسط بين الشدة والرخاوة[2]، والجهر من صفات قوة الحرف[3]، وهو كذلك من الأحرف التي تحدث اهتزازا عند النطق بها، وينتج موسيقى مصدرها التكرير[4]، وكذلك ما أضفاه السجع البليغ على المعنى من قوة وفخامة، حيث ختمت الجملتان اللتان تكون منهما بناء الحديث ونظمه بحرف الطاء (قط) و(الحائط) وكأن كل جملة منهما تمثل صاعقة مدوية كان لها وقعها القوي في التأثير في النفوس والاستيلاء على

(١) دراسات منهجية في علم البديع، د/ الشحات أبو ستيت: ٢٣٠، دار خفاجي للطباعة والنشر، ط أولى ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤ م.

(٢) ينظر: علم الأصوات اللغوية، مناف مهدي علام: ٦٧، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ط: أولى، ١٩٩٨ م.

(٣) ينظر: أسرار الحروف ضمن (أصول اللغة العربية)، أحمد زرقة، ط: دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق، ط: أولى، ١٩٩٣ م.

(٤) ينظر: في البحث الصوتي عند العرب، د/ خليل إبراهيم العطية: ٦٠، منشورات دار الجاحظ – بغداد ١٩٨٣ م.

الأسماع والعقول، وهذا – بلاشك – نابع من صوت (الطاء) ؛ لأنه حرف قوي في صفاته الاستعلاء والاطباق، وفيه كذلك الجهر والشدة [(١)]، " والشدة من علامات قوة الحرف، فإن كان مع الشدة جهر أو إطباق أو استعلاء فذلك غاية القوة في الحرف "[(٢)]، وإنما اتصف بالشدة ؛ لأن مجري الهواء ينغلق انغلاقا تاما عند النطق به [(٣)]، فهذا الحرف يحكي بقوة صوتا مدويا يرسم بجرسه هول الموقف، وشدة وطأة المشهد، وهذا مما يتناسب مع ما يصوره (ﷺ) ويخبر به من أمور غيبية خصه الله بالاطلاع عليها.

ولا يفوتني أن أشير إلى ما حكاه راوي الحديث – سيدنا أنس – في نهايته عن حال سيدنا قتادة (ﷺ) من أنه كان يستحضر الآية الكريمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾ مما يبرز استرجاع صدى هذا الحديث وأثره العميق في نفوس الصحابة – رضوان الله عليهم –.

(١) ينظر: مناهج البحث في اللغة، د/ تمام حسان: ١٠٢، دار الثقافة – الدار البيضاء، ط الثانية، ١٣٩٤ هـ – ١٩٧٤ م.

(٢) ينظر: الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، بعلم مراتب الحروف ومخارجها وصفاتها وألقابها لأبي محمد مكي: ١١٧، ت: أحمد حسن فرحات، ط: دار عمار – الأردن، ط: ثالثة – ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦ م.

(٣) ينظر: أسرار الحروف: ٩١.

المقام الثالث: غضبه (ﷺ) في مقام من لعنه أو سبه أو دعا عليه وليس هو أهلا لذلك

عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: دَخَلَ عَلَى رَسُولِ اللهِ (ﷺ) رَجُلَانِ فَكَلَّمَاهُ بِشَيْءٍ، لَا أَدْرِي مَا هُوَ فأغضباه، فلعنهما، وسبهما، فَلَمَّا خَرَجَا، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ أَصَابَ مِنَ الْخَيْرِ شَيْئًا، مَا أَصَابَهُ هَذَانِ؟، قَالَ: «وَمَا ذَاكِ ؟» قَالَتْ: قُلْتُ: لَعَنْتَهُمَا وَسَبَبْتَهُمَا، قَالَ: «أَوَ مَا عَلِمْتِ مَا شَارَطْتُ عَلَيْهِ رَبِّي؟ قُلْتُ: اللهُمَّ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، فَأَيُّ الْمُسْلِمِينَ لَعَنْتُهُ، أَوْ سَبَبْتُهُ فَاجْعَلْهُ لَهُ زَكَاةً وَأَجْرًا »(١)

هذا النبع النبوي الذي بين أيدينا يطلعنا على جوٍّ من الحوار الأسري الكاشف عن أمر شرعي وشيء مستغرب بدا أمام السيدة عائشة،فذات يوم ترى رجلين كلَّما النبي (ﷺ) في أمر لا تدري ما هو ؟ فأغضباه فلعنهما وسبهما (ﷺ)،مما جعلها تُبْدِي تعجبها واستغرابها للنبي (ﷺ) فيجيبها النبي بما يكشف عن شفقته ورحمته بأمته قائلا: أَوَ ما علمت ما شارطت عليه ربي... الحديث.

وقد جاءت صورة هذا الحوار في هيئة السؤال والجواب من كلا الطرفين، فالسيدة عائشة تسأل والرسول الكريم يجيب، وبناء لغة الحديث يتكون من هذين الرافدين، ويبدأ هذا الهدي النبوي بتوطئة من السيدة عائشة تكشف عن سر غضبه (ﷺ) فتقول " دخل على رسول الله (ﷺ) رجلان، فكلماه بشيء لا أدري ما هو، فأغضباه فلعنهما وسبهما".

وتتجلى روعة بيانها في عدة ملامح بلاغية يظهر منها:

١- أنها أخرت الفاعل (رجلان) على متعلقه (على رسول الله) أدبا منها، ورقيا في التعبير، وإدراكا منها لمقام النبوة الرفيع ؛ حتى لا تقدم على رسول الله أحدا في الذكر.

(١) صحيح مسلم: كتاب: البر والصلة والآداب، باب: من لعنه النبي ﷺ أو سبه أو دعا عليه وليس هو أهلا لذلك كان له زكاة وأجرا ورحمة، رقم: (٢٦٠٠).

٢- نلمح أنها اختصرت حديثها،وطوت الأحداث من خلال الفاء العاطفة، والتي كانت أداتها في سرد الحدث تلو الحدث، دون وقوف على التفاصيل التي لا تبدو مهمة في الكشف عن غرضها، وذلك توفيرا للكلام على الغرض المقصود منه، وهذا مظهر من سمت الكلام البليغ.

٣- كما يظهر من بيانها أنها لم تكن حاضرةً لمشهد الرجلين وهما يحدثان رسول الله (ﷺ)، وقد أوحت جملة " فكلماه بشيء لا أدري ما هو " عن ذلك، وصياغتها تكشف عن كثير من الغموض والإبهام، فالتعبير (بشيء) مع تنكيره أدخل في باب الإبهام والخفاء، كما مكنها هذا التنكير من وصفها له بجملة (لا أدري ما هو ؟) بنفي الدراية، والتي هي معرفةٌ تدرك بضرب من الختل، وهذا أدخل في الغموض من قولها (بشيء لا أعلمه) ويتصاعد الغموض بتعبيرها بجملة (ما هو) الواقعة مفعولا به لفعل الدراية، بمعنى: أي شيء هو ؟

وبمجرد أن يخرج الرجلان كان حالها كما تقول: (فلما خرجا قلت)، والفاء بلمحتها الخاطفة تكشف عن لهفتها في الوصول إلى ما يزيل استغرابها وتعجبها، ولذا قالت (يا رسول الله من أصاب من الخير شيئا ما أصابه هذان؟)، والطابع العام لبيانها السابق هو الأسلوب الإنشائي، وهو أنسب لمطلوبها وأعون على استجلاء ما تحتاج إلى بيانه من رسول الله (ﷺ)، ولذا مهدت له بجملة النداء (يا رسول الله) وهذا من حسن أدبها ورقة سلوكها، وإظهار عنايتها بمطلوبها، ثم هي تناديه بـ (يا) المؤذنة للبعد بين مكانة الرسول ومكانتها، كما تصفه بالرسالة وفي هذا إعظام له (ﷺ) وبيان لمحله من ربه [(١)]، وإيثارها التعبير بحرف النداء (يا) بصوتها المفتوح المتسع مبالغة في طلب الالتفات، وزيادة في الحث على الإقبال من رسول الله احتفاءً بأمر المنادى له، وإضافتها لفظ (رسول) إلى اسم الجلالة (الله) في غاية المناسبة للمقام، فهي إنما تسأل لتستفسر عن شيء استغربت وقوعه من رسول الله المقرب من ربه والذي أطلعه على ما لم يُطْلِع عليه أحدا من العالمين.

ثم أعقبت هذا التمهيد بسؤالها (من أصاب من الخير شيئا ما أصابه هذان ؟) وهذا الاستفهام منها لا يراد به حقيقته، بل يراد به التعجب والدهشة لكثرة الخير الذي حصله هذان الرجلان، وفيه – أيضا – نفي واستبعاد لحصول الخير لغيرهما وإثباته لهما،

(١) ينظر: شرح أحاديث من صحيح البخاري، د/ محمد أبو موسى: ٢٨٤.

وكأنها تنفي كل خير عن غير هذين الرجلين، ولذا عبرت بـ (شيئا) مع تنكيرها لإفادة التقليل، أي: لا أحد أصاب من الخير أدنى شيء بجانب الخير الذي أصابه هذان الرجلان، كما عبرت بـ (أل) التي للجنس في لفظ (الخير) دلالة على العموم.

وفي تعبيرها بـ (ما) الموصولة في (ما أصابه) تفخيم وتهويل وتعظيم للخير الذي حصلاه، كما آثرت تعريفهما باسم الإشارة (هذان) تمييزا لهما أكمل تميز، وتحديدا لهما بعينهما، وكأن لسان حالها يقول: أي شيء حصله هذان دون غيرهما، لينالا هذا الثواب العظيم والخير الوفير ؟، يقول الإمام عبد القاهر – رحمه الله –: "... فكما أنك إذا قلت: (خذ ذاك)، لم تكُنْ هذه الإشارةُ لتَعرِّفِ السامعَ المشارَ إليه في نفسِه، ولكن ليعلمَ أنه المقصود من بين سائر الأشياء التي نراها ونبصرها "[1].

ويتفاعل الحوار وينمو، فيبادرها النبي (ﷺ) بسؤال مختصر قائلا: (وما ذاك ؟) وهو على حقيقته، أي: وما الخير الذي حصلاه أو أصاباه، ويجري راوي الحديث الجواب على لسانها قائلا: قالت: قلت: سببتهما ولعنتهما، وفي هذا تقرير وتوكيد يعلو بالبيان ويرفع من درجة توثيقه وتقريره من أن يقول الراوي: قال: وما ذاك ؟ قالت: لعنتهما وسببتهما، وهذا يعني أن راوي الحديث ينقل الكلام المنسوب لكل من رسول الله والسيدة عائشة نقلا دقيقا واعيا، فهو لا يكتفي بنسبة الكلام إليهما، بل يجري الكلام على لسانهما.

ويحكي راوي الحديث تعليقَ النبي (ﷺ) على قولها: (سببتهما ولعنتهما) بقوله: (قال: أو ما علمت ما شارطت عليه ربي، قلت:....) بدون (الفاء) في فعل القول ؛ لأنه من كلام الراوي وهو يحكي الحديث ويقيم لغة بنائه، وليس فعل القول مرتبا على كلام السيدة عائشة، حتى يعطف ويرتب عليه بالفاء.

والنبي الكريم يقابل تعجب السيدة عائشة ودهشتها بهذا الاستفهام الذي قصد من ورائه تقريرَها بمضمون ما تعلم، فهي تعلم أنَّ منْ سبَّه النبيُّ (ﷺ) أو لعنه كان له ذلك زكاة وأجرا، وهو بجانب ذلك مبطن بمعاني التعجب والاستغراب من أمرها ؛ إذ كيف تتعجب من هذا الأمر المعلوم لديها مسبقا ؟

(١) دلائل الإعجاز: ٥٤٠.

ولذا لم تشغل السيدةُ عائشة بالها بمحاولة الوقوف على هذا الشيء الذي استوجب لعن هذين الرجلين أو سبهما، ولكن الذي شغل بالها هو كيف حصَّل هذان الرجلان هذا الخير الكثير بموعود ما اشترطه رسولُ الله (ﷺ) على ربه، كما بينت روايةُ مسلم عن جابر قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: إنما أنا بشر، وإني اشترطت على ربي أيُّ عبدٍ من المسلمين سببته أو شتمته أن يكون ذلك له زكاة وأجرا [(١)].

وكأنَّ السيدة عائشة استحضرت هذا الحديث عند مشهد رسول الله (ﷺ) وهو يلعن ويسب هذين الرجلين، فأبدت تعجبها واستغرابها عن هذا الخير الكثير الذي حصلاه، فأراد النبي (ﷺ) بهذا الاستفهام أن يقررها بمضمون ما تعلمه، وكأن لسان حاله يقول لها: لم التعجب والاستغراب وقد علمت أني اشترطت على ربي.....؟

وهذه الواو التي جاءت عقب همزة الاستفهام اختلف العلماء فيها: فقيل: موقعها قبل همزة الاستفهام، وأن الهمزة داخلة على الجملة بعدها ثم تقدمت عليها الهمزة ؛ لأن لها الصدارة، وعليه تكون هذه الواو عاطفة لجملة الاستفهام، وهذا رأي ابن مالك.

وذهب الزمخشري: إلى أن الاستفهام دخل على الواو وما بعدها، وعليه تكون الجملة المقدرة المعطوف عليها داخلة في حيز الاستفهام [(٢)].

والمهم أن هذه الواو كشفت عن هواجس وخواطر خامرت قلب النبي (ﷺ) من موقف السيدة عائشة الذي أبدت فيه التعجب والدهشة ليس من صنيع الرسول معهما بالسب واللعن، بل من كثرة الخير الذي حصله الرجلان بسبب هذا السب واللعن، تحقيقا لمضمون ما اشترطه رسول الله (ﷺ) على ربه.

والتعبير بالفعل (شارطت) فيه إيحاء بنفاذ وعد الله لرسوله، وثقة النبي وشدة تيقنه من ذلك ؛ لأنه اشترط على ربه، وهذا الشرط واجب النفاذ ؛ لأنه مع أكرم الأكرمين، والكريم لا يخلف وعده أبدا، قال – تعالى –: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [(٣)].

---

(١) معجم ابن الأعرابي: (١/ ٢٨٨)، تحقيق وتخريج: عبد المحسن بن إبراهيم بن أحمد الحسيني، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م.

(٢) ينظر: شرح أحاديث من صحيح البخاري: ٢٤٨.

(٣) سورة التوبة، جزء من الآية: ١١١.

ولعل التعبير بالمفاعلة في جانب الله ما يعني بقبول الشرط، وفي هذا مزيد من القوة في الميثاق وأخذ العهد مع الله، والذي أبانت عنه رواية " **اللهم إني أتخذ عندك عهدا لن تخلفنيه، فإنما أنا بشر، فأي المؤمنين آذيته، شتمته، لعنته، جلدته، فاجعلها له صلاة وزكاة وقربة، تقربه بها إليك يوم القيامة** " (١).

والمعنى:" إني طلبت منك حاجة واسعفني بها ولا تخيبني فيها، فوضع العهد موضع الحاجة، مبالغة في كونها مقضية، ووضع (لن تخلفنيه) موضع (لا تخيبني) " (٢).

وتقديم المتعلق (عليه) على المفعول به (ربي) للعناية والاهتمام والتركيز على ما اشترطه الرسول (ﷺ) على ربه ؛ لأنه موطن التعجب والاستغراب، ولذا كان التعبير بلفظ الربوبية (ربي) بما فيه من معاني الرحمة والرأفة والتربية والإنعام والاعتراف بالفضل آنس بهذا المقام، فما اشترطه الرسول الكريم على ربه ليس استعلاء، بل هو من فيض عطاء الله، شفقةً منه، ورحمة بأمته.

وجملة الاستفهام السابقة لما كانت مظلَّلةً بحجبٍ من الخفاء والغموض والإبهام مما جعل النفوس تترقب إلى بيانه، وتتطلع إلى توضيحه، ولذا أسعفها النبي الكريم بقوله " قلت اللهم إنما أنا بشر..." و " الإيضاح بعد الإبهام،أو التفصيل بعد الإجمال، طريق من طرق التشويق إلى المعنى في الحديث النبوي وتهيئة المخاطب لتلقيه، والغرض منه أن يتأكد المعنى لدى السامع وأن يقر بداخله ؛ لأنه من الأمور المهمة التي تحتاج إلى تأكيد وتثبيت " (٣).

ومن هنا جاءت جملة (قلت: إنما انا بشر) مفصولة عن سابقتها، وذلك لما بينهما من كمال الاتصال، حيث جاءت موضحة ومبينة لما فيها من غموض وإبهام، ولا يعتد بكون الفصل لكمال الانقطاع بين الجملتين، وذلك لاختلافهما في الخبرية لفظا ومعنى، وذلك لأن هذه علة لفظية لا تبحث عن الروابط الداخلية بين المعاني.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب:الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ، بَابُ: مَنْ لَعَنَهُ النَّبِيُّ ﷺ، أَوْ سَبَّهُ، أَوْ دَعَا عَلَيْهِ، وَلَيْسَ هُوَ أَهْلًا لِذَلِكَ، كَانَ لَهُ زَكَاةً وَأَجْرًا وَرَحْمَةً، رقم: (٢٦٠١).

(٢) مرقاة المفاتيح: ٧/ ٣٤٣.

(٣) التشويق في الحديث النبوي الشريف (طرقه وأغراضه)، د/ بسيوني عبد الفتاح فيود: ٥٦.

ولعل في عدوله (ﷺ) إلى طرح السؤال والإجابة عنه مباشرة، دون أن يكون بيانه قال: (يا عائشة إني اشترطت على ربي فقلت:...)، وذلك لأن السؤال " وقود المعرفة الذي يدفعها نحو التوثب والارتقاء... وهو وإن كان يعكس فوران العقل وعدم استقراره، كما يعكس حرارة الشك، ووهج البحث، فإنه هو السبيل إلى برد اليقين، فهو وسيلة المعرفة ووسيلة الدفاع، وهو السبيل إلى إبراز الحقيقة " [(١)].

ويتجلى أدب النبوة العالي ورقي بيانه، بتلك التوطئة والتي صاغها في قالب الدعاء: (اللهم إنما بشر).

وقد اتفق العلماء على أن أصل صيغة (اللهم): يا الله، وأن الميم زائدة، وليست من أصل الكلمة [(٢)]، وهذه الصيغة " تستعمل في الأدعية كثيرا ؛ لما فيها من الدلالة على قرب الله – تعالى – من الداعي قرب علم، لا قرب مسافة وتحديد " [(٣)].

وفي حذف حرف النداء ثناء لاهج، وتضرع خاشع، وتذلل من الرسول الكريم بين يدي الله – تعالى – حتى يحصل له مقصوده ويحقق له مطلوبه.

وتبدو دقة بيانه (ﷺ) في جمعه بين لفظي (ربي – اللهم) حيث نصَّ في سياقه على جانبي الربوبية والألوهية، فجمع بين صفات الجمال والجلال، فلفظ (ربي) أنسب للتذلل بين يدي الله حتى يتحقق مطلوبه (ﷺ)، واتخاذُ العهدِ عند الله أنسب إلى علو صوت الألوهية المفاد من صيغة (اللهم).

---

(١) أسلوبية السؤال (رؤية في التنظير البلاغي)، د/ عيد بلبع، ص: ٩ (بتصرف)، دار الوفاء، المنصورة، ط ١، ١٩٩٩ م.

(٢) ينظر تفصيل ذلك في: شرح التصريح على التوضيح للشيخ/ خالد الأزهري: ١/ ١٧٢، وبهامشه حاشية العلامة يس، طبعة عيسى البابي الحلبي، وأوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام الأنصاري: ٤/ ٣١، دار الجيل – بيروت – لبنان – ط ٥ – ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩ م.

(٣) من دقائق البيان النبوي في صيغة التلبية: أ.د/ رفعت إسماعيل السوداني: ١٨، بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية بإيتاي البارود عدد ٢٠٠٣ م.

وجملة (إنما أنا بشر) فيها تقرير لبشريته (ﷺ) بأسلوب مؤكد بطريق القصر بـ (إنما) والتي تأتي غالبا في المقامات التي لا ينكرها المخاطب، ولا يدفع صحتها، وتأتي موافقة لهوى النفس، وفي هذا تأسيس لمطلوبه (ﷺ) من ربه، وكأن النبي (ﷺ) أراد أن يهمس بتلك الحقيقة – والتي لا تحتاج إلى تأكيد – بين يدي ربه ؛ ليكون ذلك كتقدمة العذر، وكأن النبي (ﷺ) يريد أن يقول: إنما أنا بشر فسيصدر مني ما هو من لوازم البشرية، فأغضب أحيانا.

وقد صرَّحت رواية أنس بن مالك بهذا المعنى **" اللهم إنما أنا بشر أرضى كما يرضى البشر وأغضب كما يغضب البشر..."** [(١)].

وإذا كانت هذه الرواية عبرت بالضمير (أنا) تناسبًا مع مقام التكلم، فقد عبرت رواية أخرى باسمه (ﷺ): (اللهم إنما محمد بشر) توكيدا و تقريرا لبشريته، وكأن الإعلان باسمه (ﷺ) اعتراف منه بأنه وإن كان يتلقى من الوحي إلا أنه فرد كآحاد البشر، ولا يمكن بحال أن يفارق ما تقتضيه طبيعة البشر.

وجملة (إنما أنا بشر) من العبارات الدارجة في كلامه (ﷺ)، وذلك عندما يقتضي المقام تقرير بشريته، وذلك مناسبة لما يريد أن يقرره من معان.

ففي مقام النسيان الذي هو طارئ يعتري كل البشر، نراه يقول: **" إنما أنا بشر أنسى كما تنسون، فإذا نسى أحدكم فليسجد سجدتين وهو جالس "** [(٢)].

وفي مقام الاختصام إليه وحكمه (ﷺ) بما يظهر لديه من أدلة يقول: **" إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ، فَأَقْضِيَ لَهُ عَلَى نَحْوِ مَا أَسْمَعُ مِنْهُ... "** [(٣)].

---

(١) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: أبو نعيم الأصبهاني: (٧/ ٢٠٨)، الناشر: السعادة – بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م.

(٢) صحيح مسلم، كِتَابُ: الْمَسَاجِدِ وَمَوَاضِعِ الصَّلَاةَ، بَابُ: السَّهْوِ فِي الصَّلَاةِ وَالسُّجُودِ لَهُ، رقم: (٥٧٢).

(٣) سنن أبي داود، أَبْوَابُ الْإِجَارَةِ، بَابٌ فِي قَضَاءِ الْقَاضِي إِذَا أَخْطَأَ، رقم: ٣٥٨٣، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.

وفي مقام الأخذ برأيه في أمور الدنيا يقول: " **إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيِي، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ**»[(١)].

ثم يكشف النبي الكريم عما شارط عليه ربَّه فقال: " فأي المسلمين لعنته أو سببته فاجعله له زكاة وأجرا ".

وقبل أن ألج في تحليل بلاغة أسلوب الشرط في بيانه (ﷺ) أَوَدُّ أن أميط اللثام عن عدة تساؤلات تطرحها الجملة السابقة.

أولها: قد ثبت أنه (ﷺ) لعن جماعة كثيرة، منهم المصورون والمحلل والسارق وشارب الخمر وآكل الربا وغيرهم، فيلزم أن يكون لعنه لهم رحمة وطهورا وأجرا.

وأُجِيبَ عن ذلك: بأن هذا الإطلاق في بيانه تقيِّدُه روايةُ (**فأيما أحد دعوت عليه من أمتي بدعوةٍ ليس لها بأهل**...) [(٢)] فهذه الرواية صريحةٌ في التقييد بأمرين: أن يكون المدعو عليه من أمته، الثاني: أن تكون الدعوة باللعن صاحبت من ليس لها بأهل، أما من ثبت لعنهم لمعاصي وكبائر معينة فلا يدخلون في الحديث [(٣)].

ثانيها: أن الإجابة السابقة تقودنا إلى تساؤل آخر مفاده: كيف يصدر من النبي (ﷺ) الدعاء على من ليس أهلا للدعاء عليه، وكيف يسبه (ﷺ) أو يلعنه، وهو معصوم من الكبائر والصغائر عمدا أو سهوا ؟

والجواب عن ذلك: أن المراد ليس بأهل لذلك عند الله – تعالى – وفي باطن الأمر، ولكنه في الظاهر مستوجب له، فيظهر له (ﷺ) استحقاقه لذلك بأمارة شرعية، ويكون في باطن الأمر ليس أهلا لذلك، وهو (ﷺ) مأمور بالحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر [(٤)].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب: الْفَضَائِلِ، بَابُ:وُجُوبِ امْتِثَالِ مَا قَالَهُ شَرْعًا، دُونَ مَا ذَكَرَهُ ﷺ مِنْ مَعَايِشِ الدُّنْيَا، عَلَى سَبِيلِ الرَّأْيِ، رقم: (٢٣٦٢).

(٢) صحيح مسلم، كتاب: الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ، بَابُ: مَنْ لَعَنَهُ النَّبِيُّ ﷺ، أَوْ سَبَّهُ، أَوْ دَعَا عَلَيْهِ، وَلَيْسَ هُوَ أَهْلًا لِذَلِكَ، كَانَ لَهُ زَكَاةً وَأَجْرًا وَرَحْمَةً، رقم: (٢٦٠٣).

(٣) ينظر: مرقاة المفاتيح: ٧/ ٣٤٢.

(٤) ينظر: السابق نفسه الجزء والصفحة، وينظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي: ٢/ ١٥٣، ط المكتبة التجارية الكبرى – مصر، الطبعة: الأولى، ١٣٥٦ هـ.

ثالثها: كيف يصدر السب واللعن من النبي (ﷺ) والمعروف عنه سمو خلقه، وعظم نفسه، فلم يكن سبَّابا ولا لعانا ولا فاحشا ولا متفحشا ؟

وأجيب عن ذلك:

١- قيل: يحتمل أن يكون ما ذكره من سب ودعاء غير مقصود ولا منوي، ولكن جرى على عادة العرب في وصل كلامها عند الحرج والتأكيد للعتب، لا على نية وقوع ذلك، كقوله (ﷺ): (تربت يمينك) [(١)]، وفي حديث معاوية: (لا أشبع الله بطنه) [(٢)]، ونحو ذلك، لا يقصدون بشيء من ذلك حقيقة الدعاء، فخاف (ﷺ) أن يصادف شيء من ذلك إجابة، فسأل ربه – سبحانه – ورغَّب إليه في أن يجعل ذلك رحمة وكفارة وقربة وطهورا وأجرا، وإنما كان يقع منه (ﷺ) هذا في النادر الشاذ، وهذا الوجه رجحه القاضي عياض – رحمه الله –.

٢- وقيل: يحتمل أنه (ﷺ) أراد أَنَّ دَعَوْتَهُ عَلَيْهِ أَوْ سَبَّهُ أَوْ جَلْدَهُ كَانَ مِمَّا خُيِّرَ بَيْنَ فِعْلِهِ لَهُ عُقُوبَةً لِلْجَانِي أَوْ تَرْكِهِ وَالزَّجْرُ لَهُ بِمَا سِوَى ذَلِكَ فَيَكُونُ الْغَضَبُ للهِ تَعَالَى بَعَثَهُ عَلَى لَعْنِهِ أَوْ جَلْدِهِ وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ خَارِجًا عَنْ شَرْعِهِ.

٣- قيل: وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ خَرَجَ مَخْرَجَ الْإِشْفَاقِ وَتَعْلِيمِ أُمَّتِهِ الْخَوْفَ مِنْ تَعَدِّي حُدُودِ اللهِ فَكَأَنَّهُ أَظْهَرَ الْإِشْفَاقَ مِنْ أَنْ يَكُونَ الْغَضَبُ يَحْمِلُهُ عَلَى زِيَادَةٍ فِي عُقُوبَةِ الْجَانِي لَوْلَا الْغَضَبُ مَا وَقَعَتْ.

٤- قيل: كَانَ (ﷺ) لَا يَقُولُ وَلَا يَفْعَلُ فِي حَالِ غَضَبِهِ إِلَّا الْحَقَّ لَكِنَّ غَضَبَهُ للهِ قَدْ يَحْمِلُهُ عَلَى تَعْجِيلِ مُعَاقَبَةِ مُخَالِفِهِ وَتَرْكِ الْإِغْضَاءِ وَالصَّفْحِ [(٣)].

---

(١) صحيح البخاري: كتاب العلم باب الحياء في العلم ح(١٣٠)

(٢) صحيح مسلم: كتاب: البر والصلة والآداب، باب: من لعنه النبي ﷺ أو سبه أو دعا عليه وليس هو أهلا لذلك كان له زكاة وأجرا ورحمة، رقم: (٢٦٠٤)

(٣) ينظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر أبو الفضل العسقلاني: ١١/ ١٧٢، تحقيق: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩، ومرقاة المفاتيح: ٧/ ٣٤٥، وطرح التثريب في شرح التقريب: ٨/ ١٢.

وأعود إلى تحليل جملة الشرط في بيانه (ﷺ)، وأول ما نلحظه اقتران أداة الشرط بالفاء العاطفة، وهي تفيد الترتيب والتعقيب، أي: إنما أنا بشر فإذا ترتَّب على مُقتضَى بشريتي أنني سببت أحدا أو لعنته...، فكانت الفاء بمثابة العروة التي ربطت بين بسط عذره (ﷺ) بين يدي ربه – سبحانه – وما اشترطه عليه.

وقد صاغ النبي (ﷺ) مطلوبه في أسلوب الشرط اللافت، وذلك لما يتمتع به هذا الأسلوب من الربط بين أجزاء المعنى، ممثلة في الشرط والجزاء، حرصا منه (ﷺ) على تحقيق مرغوبه من تحقق الجواب إذا ما وقع فعل الشرط.

هذا فضلا عما حققه أسلوب الشرط من تماسك لبنات الحديث وإخراجه في صورة قوية الحبك، متينة السبك، فأسلوب الشرط " بطبيعته يمزج بين المعاني، ويربط بينها ويجعل الجمل في دلالته بمثابة المفردات في الجمل غير الشرطية "[(١)].

يضاف إلى ذلك ما يحققه من إثارة وتشويق " فإذا ذكرت أداة الشرط وأردفت بفعل الشرط تشوقت النفس إلى ذكر ما سيكون، فإذا ذكر الجواب بعد هذه الإثارة وهذا التشويق تمكن أيما تمكن "[(٢)].

وقد جاءت جملة الشرط بنظمها البديع تبرز حرص النبي (ﷺ) على تحقيق مطلوبه من ربه، فأضاف أداة الشرط (أي) إلى (المسلمين) دلالة على عموم حرصه على أمته كلها، ولذا عبر بالمسلمين دون (المؤمنين) وذلك من الأخذ بظاهر الأمر ؛ لأن الإسلام أعم من الإيمان، وفي رواية (**فأي المؤمنين آذيته**) [(٣)]وفيها نظر لبواطن الأمور ؛ لأن حقيقة الإيمان في القلوب، وهذا مما لا يعلمه إلا الله.

---

(١) دراسة في البلاغة والشعر، د/ محمد أبو موسى: ١٩٩، مكتبة وهبة – ط الأولى – ١٤١١ هـ – ١٩٩١ م.

(٢) من أسرار البيان في حديث سيد الاستغفار، أ. د/ رفعت إسماعيل السوداني: ١٣٨، بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية بإيتاي البارود – العدد الحادي والعشرون – ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م.

(٣) صحيح مسلم، كتاب:الْبِرِّ وَالصِّلَةِ وَالْآدَابِ، بَابُ: مَنْ لَعَنَهُ النَّبِيُّﷺ، أَوْ سَبَّهُ، أَوْ دَعَا عَلَيْهِ، وَلَيْسَ هُوَ أَهْلًا لِذَلِكَ، كَانَ لَهُ زَكَاةً وَأَجْرًا وَرَحْمَةً، رقم: (٢٦٠١).

وتتجلى بلاغة التدرج في قوله (ﷺ): (لعنته أو سببته) حيث بدأ النبي (ﷺ) بما هو أشد وأعظم ؛ إذ اللعن يراد به الدعاء بالطرد والإبعاد من رحمة الله وعفوه وكرمه [(١)]، وهو " من الله – تعالى – في الآخرة عقوبة وفي الدنيا انقطاع من قبول رحمته وتوفيقه"[(٢)]، فكلمة (اللعن) تنبئ بالسخط، وتوحي بالقسوة وشدة الوقع وعمق الأثر في قلب من يسمعها، وهذه المعاني أنكى من (السب) ؛ إذ يراد به في سياق الحديث " دعوتُ عليه دعوةً لا يستحقها " [(٣)]، ويقول الراغب: " السب: الشتمُ الوجيع"[(٤)].

ومن هنا قدَّم النبي (ﷺ) ما هو أشد وأوقع في النفس، إذ اللعن في حقه أعظم، فهو الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، والحريص على أمته، فكيف يدعو على أحد منها بالطرد والإبعاد عن رحمة الله ؟

وقد جاء جواب الشرط طلبيا مقترنا بالفاء (فاجعله)، والتي تمثل معبرا ذكيا يجسد حرص النبي (ﷺ) على فورية الامتثال وسرعة المبادرة إلى تحقيق مطلوبه، حرصا منه على أمته، وشفقة عليها، ورغبة في تحقيق كل ما يحقق لها النفع والمغفرة.

والأمر بصيغة (فاجعله) ليس على حقيقته، بل هو على سبيل التضرع والدعاء، مما يتناسب مع حرص النبي (ﷺ) على أمته في استجلاب ما يحقق لها الثواب والأجر، كما أن صيغة (الجعل) هي الأنسب إلى إبراز ما يقصده (ﷺ) من الانتقال من جانب البشرية، والتي يعتريه فيها ما يعتري غيره من البشر من الغضب – أحيانا – إلى ساحة العلم المطلق، وهو علم الله – سبحانه –.

(١) ينظر: لسان العرب: (لعن).
(٢) المفردات للراغب: ٤٥٤.
(٣) فتح الباري لابن حجر: ١١/ ١٧٢.
(٤) المفردات: ٢٢٦.

كما أن التعبير بلفظ (الجعل)، وما فيه من معنى التصيير والتحويل في غاية المناسبة للمقام، أي: أسألك يا رب أن تُصَيِّرَ الدعاءَ عليهم باللعنة والسب إلى ما يحقق المغفرة والرحمة لهم.

والتقديم للمتعلق (له) للعناية والاهتمام، مما يجسد حرص النبي (ﷺ) على ما يحقق النفع لمن وقع عليه السب واللعن.

وتتبدى بلاغة الترتيب في قوله (ﷺ): (زكاة وأجرا) حيث قدم لفظ (زكاة) وهي تعني التطهير له من الذنوب، ثم بعد ذلك جاء التعبير بلفظ (أجرا) وهو في الأصل: " ما يعود من ثواب العمل دنيويا كان أو أخرويا "[(١)]، وهذا الترتيب منه (ﷺ) من باب التخلية قبل التحلية، وتكفير السيئات وجلب الحسنات، أو دفع المضرة وجلب المنفعة، وذلك لأن مقصوده (ﷺ) أن يجعل الله (ﷻ) هذا السب واللعن لمن وقع في حقه مغفرةً لذنبه وتطهيرا منه، مع اكتسابه للأجر والزيادة له في الحسنات، وهذا ما ينهض به تقديم (زكاة) على (أجرا).

يقول الشيخ المناوي – رحمه الله – أي: " أسألك أن تجعله خلاف ما يراد منه بأن تجعل ما بدا مني تطهيرا ورفع درجة للمقول له ذلك. "[(٢)].

وتنكير (زكاة وأجرا) للتفخيم والتعظيم ؛ وذلك لأنهما عطاء من الله، وعطاؤه – سبحانه – لا يحيط به الوصف، ولا يحده حد، ولا يدرك كنهه، يقول بدر الدين العيني: " و هَذَا من جملَة خلقه الْكَرِيم وَكَرمه العميم حَيْثُ قصد مُقَابلَة مَا وَقع مِنْهُ بِالْخَيرِ والكرامة "[(٣)].

(١) المفردات: ٢٠.
(٢) فيض القدير: ٢/ ١٥٣.
(٣) عمدة القاري: ٢٢/ ٣١٠.

المقام الرابع: غضبه (ﷺ) في مقام الاعتراض على قسمته الغنائم

عَنِ الأَعْمَشِ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا وَائِلٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ (رضي الله عنه)، قَالَ: قَسَمَ النَّبِيُّ (ﷺ) قَسْمًا، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ لَقِسْمَةٌ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ (ﷺ) فَأَخْبَرْتُهُ، فَغضب حتى ??يت ?لغضب في ?جهه، ثُمَّ قَالَ: يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى، قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ »[1].

مقام هذا الحديث – كما هو واضح – يحكي غضب النبي (ﷺ) عندما اعترض عليه رجل في قسمته لبعض الغنائم قائلا: " إِنَّ هَذِهِ لَقِسْمَةٌ مَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللهِ " وهذا تطاول واضح منه في مقام النبوة ؛ إذ فيه ما يقدح في عدالته (ﷺ) في توزيع الغنائم.

وإذا كانت هذه الرواية – محل الدراسة – اقتصرت على تأكيد الرجل لكلامه بمؤكدين اثنين (إن) واسمية الجملة، فإن رواية أخرى للحديث قد أضافت إلى تلك المؤكدات قسم الرجل قائلا: " والله إن هذه القسمة ما عدل فيها وما أريد بها وجه الله"[2]، ولعل مقام هذه الرواية فيه ما يكشف عن سر مبالغة الرجل وتأكيده لكلامه بهذا الشكل المبالغ فيه، وهذا المقام يكشف عنه مطلع الحديث " لَمَّا كَانَ يَوْمُ حُنَيْنٍ، آثَرَ النَّبِيُّ (ﷺ) أُنَاسًا فِي القِسْمَةِ، فَأَعْطَى الأَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ مِائَةً مِنَ الإِبِلِ، وَأَعْطَى عُيَيْنَةَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَأَعْطَى أُنَاسًا مِنْ أَشْرَافِ العَرَبِ فَآثَرَهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي القِسْمَةِ، قَالَ رَجُلٌ: وَاللَّهِ إِنَّ هَذِهِ القِسْمَةَ مَا عُدِلَ فِيهَا، وَمَا أُرِيدَ بِهَا وَجْهُ اللَّهِ... الحديث.

فإيثار الرسول (ﷺ) لهؤلاء الناس بهذا الشكل المبالغ فيه، والذي صرحت به هذه الرواية، مما أثار حفيظة الرجل، فأعلن عن اعتراضه بهذه الصورة المؤكدة.

وليس معنى ذلك أن من حق هذا الرجل أو غيره أن يعترض على رسول الله ؛ لأن هذا خروج صريح عن حكم رسول الله، وعصيان له يقدح في طاعته والامتثال له.

---

(١) صحيح البخاري: كِتَابُ: أَحَادِيثِ الأَنْبِيَاءِ، بَابُ: حَدِيثِ الخَضِرِ مَعَ مُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلاَمُ، رقم: ٣٤٠٥.

(٢) صحيح البخاري: كِتَابُ: فَرْضِ الخُمُسِ، بَابُ: مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُعْطِي المُؤَلَّفَةَ قُلُوبُهُمْ وَغَيْرَهُمْ مِنَ الخُمُسِ وَنَحْوِهِ رقم: ٣١٥٠.

ويعلمُ النبي (ﷺ) بما قاله الرجل، مما أثار حفيظة غضبه وكان حاله كما يقول ابن مسعود: (فغضب حتى رأيت الغضب في وجهه) بهذا الوصف الكاشف عن شدة غضبه، ولكنه – مع ذلك – لم يتفوه بكلمة نابية، بل لم يتحدث مع هذا الرجل، ولم يسأل عنه ؛ لأنه الرحمة المهداة، ولم يكن يحمل في نفسه شيئا تجاه أصحابه، ولكنه يتذكر واحدا من أولى العزم من الرسل طالما لاقى كثيرا من العنت والإيذاء من قومه، فيدعو له في أسلوب بليغ، متأسيا به في الصبر والعفو قائلا: " يَرْحَمُ اللهُ مُوسَى... الحديث ".

والذي يبدو من الوهلة الأولى أن السمة البلاغية الظاهرة في هذا الحديث هي الإيجاز، فهو مكون من جملتين، الثانية منهما مرتبطة بالأولى ارتباطا وثيقا.

وقد جاءت الأولى منهما خبرية لفظا، إنشائية معنى (يرحم الله موسى) فلفظها لفظ الخبر، ومعناها إنشائي، بمعنى الدعاء: أي اللهم ارحم موسى، والتعبير ينبئ عن رغبة النبي (ﷺ) في تحقيق مطلوبه، كما يُظهر حرصه البالغ على قبول دعائه، فضلا مما يشعر به تعبيره من التفاؤل، وكأن الرحمة أصبحت واقعة ومحققة، وهذا مما لا يتحقق بلفظ الإنشاء، ثم إن " هذا التداخل والتلاقي بين أساليب العربية في الكلام مظهر من مظاهر الروعة في فنون التعبير، وما بينها من تواصل وتبادل في المواقع، يزيد في أثر التعبير الفني في نفس من يتلقى الكلام " (١).

والتعبير بالرحمة يكشف عن فيض من المحبة التي يحملها النبي الكريم تجاه إخوانه من أنبياء الله (ﷻ)، فالرحمة كما يقول الراغب: " رقّة تقتضي الإحسان إلى المَرْحُوم، وقد تستعمل تارة في الرّقّة المجرّدة، وتارة في الإحسان المجرّد عن الرّقّة، نحو: رَحِمَ اللهُ فلانا. وإذا وصف به الباري فليس يراد به إلّا الإحسان المجرّد دون الرّقّة، وعلى هذا روي أنّ الرَّحْمَةَ من الله إنعام وإفضال، ومن الآدميّين رقّة وتعطّف " (٢).

ومما يضاعف من تلك المحبة إيثاره (ﷺ) التعبير بصيغة المضارعة، مما يشي بمقصده (ﷺ) في تجدد الدعاء بالرحمة واستمرارها لنبي الله موسى.

---

(١) نحو المعاني، د/ أحمد عبد الستار الجواري: ١٥٥، مطبعة المجمع العلمي العراقي – ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م.

(٢) المفردات: ١٩٧.

واستحضار اسم الجلالة العلم على الذات المقدسة، والجامع لكل أسمائه وصفاته – سبحانه – مما يضفي على المقام الإجلال والتعظيم، ويكشف عن نفسية النبي الكريم وهو يواجه هذا التطاول من هذا المعترض على قسمته، فهو لا يهبط إلى الأرض، بل يعيش في رحاب الله، وفي أجواء السماء، ويتذكر واحدا من إخوانه من أولى العزم من الأنبياء، داعيا بمزيد من الإحسان والإنعام، وينتقي أجمل الألفاظ (يرحم)، ويسندها إلى أهيب الأسماء (الله).

والجملة الثانية من بيانه (ﷺ): " قد أوذي بأكثر من هذا فصبر " وأول ما نلحظ أنها جاءت مفصولة عن سابقتها، وذلك لما أثارته الجملة الأولى من خواطر وهواتف مؤداها: لماذا يدعو النبي (ﷺ) لنبي الله موسى بالرحمة في هذا المقام ؟ فجاءت الإجابة: قد أوذي...، وعلى هذا فالفصل لشبه كمال الاتصال، أو ما يعرف بالاستئناف البياني، وقد جاء الإيجاز بحذف السؤال في غاية المناسبة للمقام ؛ لأنه مقام غضب، والإيجاز والاختصار أنسب لتلك المواقف، ومعلوم أن المعاني في هذا الغرض – كما يقول د/ محمد أبو موسى: " تتواصل من طريق أن الأولى تتولد منها الثانية، وكأنها أصل ينبثق منه فرع " [(١)]، ولذا فحمل سر الفصل على هذا الوجه أولى من حمله على كمال الانقطاع بلا إيهام، لاختلاف الجملتين في الخبرية والإنشائية معنى دون اللفظ، وذلك لأن هذا الوجه لا يُنظر فيه إلى ما بين الجمل من روابط وصلات، ولا ينظر إلى ما بين الجمل من العلاقات المعنوية[(٢)]، كما يؤيد الوجه الأول ويقويه صحة دخول لام التعليل، أو فائه على الجملة الثانية.

وقد جاءت هذه الجملة مؤكدة بـ (قد)، تأكيدا لما لاقاه موسى (عليه السلام)من أذى من قومه وشدة ما تعرض له من اضطهاد وابتلاء ؛ وذلك لأن (قد) في توكيد الجملة الفعلية جعلها البعض بمنزلة (إن) في توكيد الجملة الاسمية، قال الهروي: " وتكون بمعنى: إن هذا الفعل من عادتي وصفتي " [(٣)]، وكأن إيذاء موسى (عليه السلام) واضطهاده كان عادة قومه وديدنهم في كل مراحل دعوته، وهذا من التناسب بين الألفاظ والمعاني.

---

(١) دلالات التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د/ محمد أبو موسى: ٣٠٩، ط/ الثانية، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧ م، مكتبة وهبة.

(٢) ينظر البحث ص: ٣٥، ٤٧.

(٣) الأزهية في علم الحروف لعلي بن محمد الهروي: ٢١٢، ت/ عبد المعين الملوحي – مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ط ٢، ١٤٢٣ هـ – ١٩٩٣ م.

كما أن التعبير بـ (قد) في هذا السياق مما يتناسب مع ما أثارته الجملة الأولى من إثارة وتشويق لمعرفة سبب دعائه (ﷺ) لموسى بالرحمة، فقد ذكر الخليل " إن قولك: (قد قعد) كلام لقوم ينتظرون الخبر، ومنه قول المؤذن: قد قامت الصلاة ؛ لأن الجماعة منتظرون "[1].

ويضاعف من دلالة (قد) على التأكيد – في هذا السياق – دخولها على الفعل المبني لما لم يسم فاعله (أوذي) دلالة على كثرة ما تعرض له من صنوف الإيذاء، دون النص على شيء معين منها أو فاعل معين لها، وكذلك التعبير بأفعل التفضيل (أكثر) مما يضاعف من المعاناة والإيذاء الذي تعرض له، والتي يضؤل أمامها ما تعرض له نبينا الكريم، والتي أشار إليها باسم الإشارة الذي للقريب (هذا) وكأن النبي (ﷺ) يوازن بين حاله وحال نبي الله موسى (عليه السلام)، فضلا عما أفاده اسم الإشارة من الإيجار والاختصار، والذي جاء في غاية المناسبة لمقام الغضب.

وبعد أن تشوقت النفوس لمعرفة موقف نبي الله موسى من كثرة ما تعرض له من صنوف الإيذاء، يسعفنا البيانُ النبوي به في قوله (فصبر) مصدَّرا بالفاء، بما تحمله من معاني السببية والترتيب والتعقيب، لتعلن عن محط العناية والاهتمام، وهو الفعل (صبر) الذي هو بيضةُ الحديث ولبُّه ومحوره، وقد جاء التعبير به ماضيا لإفادة تحقق الوقوع، وكان التعبير بهذا الختام في غاية المناسبة للمقام، فالمقام تصوير لكثرة صنوف الإيذاء الذي تعرض له نبي الله موسى، فما كان منه إلا أن استمسك بخير زاد ينهل من معينه كلُّ الأنبياء، وهم يواجهون تطاول السفهاء، ولذا اتخذه الرسول (ﷺ) قدوته، وهو يواجه تطاول هذا المعترض على قسمته.

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي: ٤/ ٣٣ – دار الفكر – ١٤٢٥ هـ – ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م.

المقام الخامس: غضبه (ﷺ) في مقام تنزه بعض الصحابة عن الأخذ برخصه

عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: رَخَّصَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) فِي أَمْرٍ. فَتَنَزَّهَ عَنْهُ نَاسٌ مِنَ النَّاسِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ (ﷺ)، فغضب حتى بان في وجهه، ثُمَّ قَالَ: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَرْغَبُونَ عَمَّا رُخِّصَ لِي فِيهِ، فَوَاللهِ لَأَنَا أَعْلَمُهُمْ بِاللهِ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً»(١)

إن رسولنا الكريم هو إمام الدعاة، والقدوة الحسنة، والداعية المعلِّم، وقد أمرنا الله (ﷻ) بالاقتفاء بنهجه، والاقتداء به، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾(٢)، فاتباعه (ﷺ) أمر واجب، وفرض عين على الأمة كلها، في عسرها ويسرها،ومنشطها ومكرهها، ولا يصير المسلم مسلما حقا حتى يتبع الرسول (ﷺ) في جميع أقواله وأفعاله حسب قدرته واستطاعته.

ومن حسن اتباعه (ﷺ) الأخذ بما رخَّصه في بعض الأمور تيسيرا وتخفيفيا على أمته، ولذا نراه يغضب غضبا شديدا عندما علم بتنزه بعض الصحابة عن الأخذ برخصه، ويستنكر عليهم هذا الصنيع، ويكشف لهم أن هذا ليس من هديه، وأن الخير والفلاح والنجاة في اتباعه والتأسي به.

وقبل أن ألج في تحليل بيانه (ﷺ) نقف مع بيان السيدة عائشة، والتي أبانت عن مقام هذا الحديث بعبارتها البليغة الكاشفة.

تقول السيدة عائشة: (رَخَّصَ رَسُولُ الله (ﷺ) فِي أَمْرٍ. فَتَنَزَّهَ عَنْهُ نَاسٌ مِنَ النَّاسِ) وأول ما يلفت النظر في كلامها أنها وضعت بَيانها وضعا دقيقا مرتبا، فوضعت الفعل (رخص) في أنف كلامها، وهذا هو الترتيب الطبعي الذي تقتضيه فطرة اللغة، وذلك لأن تنزه الصحابة كان بناء على ترخص رسول الله (ﷺ) لهم، ولولا ترخص الرسول لهم ما تنزهو عنه، ولو جاء بيانها: (تنزه ناس عن أمر رخصه رسول الله)، لربما توهم متوهم قبل أن يقف على تتمة كلامها أنها في معرض سرد لشيء يقدح في هؤلاء الناس،

(١) صحيح مسلم، كتاب: الفضائل، باب: علمه ﷺ بالله تعالى وشدة خشيته، رقم: (٢٣٥٦) .
(٢) سورة الأحزاب، جزء من الآية: ٢١.

ولهذا كانت فطنة في تعبيرها بالفعل (تنزه) دون: (تركه ناس من الناس) – مثلا – لما في تعبيرها من الإيحاء بأن هؤلاء القوم لم يقصدوا مخالفة رسول الله، ولم يكن في خلدهم عصيانه، بل أرادوا أن يأخذوا أنفسهم بالأحوط، فتركوا رخصة رسول الله لهم معتقدين أن حاله يختلف عن حالهم، حيث غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وكأن لسان حالهم يقول: أين نحن من رسول الله ؟

كما تبدو دقة إيجازها في قولها: (فبلغ ذلك النبيَّ) فقد استثمرت التعبير باسم الإشارة (ذلك) والمشار به إلى صنيع هؤلاء القوم في عدم أخذهم برخصه (ﷺ)، كما نلحظ أنها جعلت من اسم الإشارة (ذلك) فاعلا للتبليغ، وكأن الخبر وصل إلى النبي بذاته، وهذا مكنها من طي اسم المبلِّغ، لأن مقصدها من بيانها أن تعلم أن الأمر قد بلغ إلى النبي فحسب، ولو أنها أرادت أن تسترسل في بيانها لقالت: (فأبلغ فلانٌ النبيَّ بذلك)، كما نلحظ في بيانها أنها أتت به على وضعه النحوي، فقدمت الفاعل (ذلك)، وذلك لأنها تركز على داعي غضبه (ﷺ) وهو ما عبرت عنه باسم الإشارة، وذلك لأنه الأهم في الكشف عن مرادها.

وهذا العلو في طبقة بيانها ليس بمستغرب عنها، فقد استقت بلاغتها من صحبة النبي (ﷺ)، فجاء كلامها متأثرا بروعة بيانه.

وتكشف في دقة بالغة – أيضا – عن هيئة غضبه (ﷺ) بقولها: (فَغَضِبَ حَتَّى بَانَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ) وهو وصف يكشف عن غاية انفعاله، لدرجة أن غضبه بان في وجهه ويدركه كل من يراه، وفي هذا غاية التناسب لداعي غضبه (ﷺ)، فما كان ليغضب هذا الغضب الجم إلا مع قضية جوهرية مثل هذه تتعلق بروح اليسر في الدين، الذي هو جوهر هذه العقيدة، وفحوى رسالته (ﷺ)﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[1].

ومن دقة بيانها – أيضا – ما نراه في إيثارها التعبير بحرف العطف (ثم) في قولها (ثم قال) ولعلها تقصد من وراء ذلك أن النبي لم يقل هذا البيان إلا بعد أن سكن غضبه.

(١) سورة الأنبياء، جزء من الآية: ١٠٧.

ثم جاء بيانه (ﷺ): «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَرْغَبُونَ عَمَّا رُخِّصَ لِي فِيهِ، فَوَ اللهِ لَأَنَا أَعْلَمُهُمْ بِاللهِ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً».

والطابع الذي يغلب عليه هو طابع الإنشاء بنوعيه الطلبي ممثلا في الاستفهام، وغير الطلبي ممثلا في القسم، وهذا يتناسب مع حرصه (ﷺ) على توجيه صحابته، وتصحيح ما بدا من بعضهم في عدم الأخذ برخصه، ولذا بادرهم بالسؤال: (ما بال أقوام) دون أن يواجه أحدا معينا بخطاب، بل جاء بيانه عاما بعدم التصريح بذكر اسم هؤلاء الذين تنزهوا عن الأخذ برخصه، وعدم مواجهتهم بالعتاب والزجر، وهذا أسلوب من أساليب دعوته، كثيرا ما كان يؤثره في بيانه لطفا منه وحلما وأدبا.

يقول الشيخ النووي: " وهذا مُوَافِقٌ لِلْمَعْرُوفِ مِنْ خُطَبِهِ (ﷺ) فِي مِثْلِ هَذَا أَنَّهُ إِذَا كَرِهَ شَيْئًا فَخَطَبَ لَهُ ذَكَرَ كَرَاهِيَتَهُ وَلَا يُعَيِّنُ فَاعِلَهُ وهذا مِنْ عَظِيمِ خُلُقِهِ (ﷺ) فَإِنَّ الْمَقْصُودَ مِنْ ذَلِكَ الشَّخْصُ وَجَمِيعُ الْحَاضِرِينَ وَغَيْرُهُمْ مِمَّنْ يَبْلُغُهُ ذَلِكَ وَلَا يَحْصُلُ تَوْبِيخُ صَاحِبِهِ فِي الْمَلَأِ " [1].

و(ما) استفهامية، والمطلوب بها معرفة حقيقة الشيء وشرحه [2]، و (البال) معناه: القلب والشأن والحال التي يكترث بها [3]، فالسؤال عنه لا يكون إلا في الأمور المهمة الخطيرة التي يحتفل بها ويهتم بشأنها "وكأنك حين تقول: ما بال زيد بفعل كذا ؟ تريد أي شيء ظهر له وشغل قلبه وعقله وبدل حاله وغير شأنه حتى فعل كذا وكذا " [4].

والاستفهام في بيانه (ﷺ) إنكاري تعجبي، حيث أنكر عليهم تنزههم عن الأخذ برخصه، كما تعجب من صنيعهم، وكأن هذا أمر لم يكن يتوقعه منهم، ولم يطرأ على خلده أبدا، وهذا يؤكد مضمون مقصوده (ﷺ) من وجوب اتباعه والاقتداء به، سواء في

(١) شرح النووي على مسلم (٩/ ١٧٦).
(٢) ينظر: الأساليب الإنشائية في النحو العربي، عبد السلام هارون: ٢٠ – مكتبة الخانجي – القاهرة – ط ٥ – ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م.
(٣) ينظر: المفردات: ٤٥، وينظر: لسان العرب (بول)، والفروق اللغوية: ١٨١.
(٤) شرح أحاديث من صحيح البخاري: ٢٧١.

العزيمة أو الرخصة أو غيرهما، يضاف إلى ذلك " أن استعمال الرخصة بقصد الاتباع في المحل الذي وردت فيه أولى من استعمال العزيمة " [(١)].

هذا فضلا عما أفاده هذا الاستفهام من إثارة نفوس الصحابة وجذب انتباههم، حثا على الاستماع إلى الرسول الكريم، وتصحيحا لما بدر في اعتقادهم من أن هذا الصنيع منهم أدخلُ في البر وأقرب إلى الطاعة.

وإيثار التعبير بالفعل المضارع (يرغبون) فيه استحضار لصورة هذا الصنيع من الصحابة، وهذا أبلغ في التنفير، مما لو قيل: ما بال أقوام ترغبوا عما رخص لهم، وفي التعبير به – أيضا – إشارة إلى استمرار دوام هذا الأمر من هؤلاء القوم إلى أن بادرهم النبي (ﷺ) بهذا الإنكار، ولا يمنع ذلك من امتداد إنكاره(ﷺ) في المستقبل من الزمن على كل من يتنزه عن الأخذ برخصه وكأن هذه العبارة يتردد وقعُها ويمتد صداها لتخترق حواجز الزمان والمكان في كل العصور.

والفعل (رغب) فيه إيحاء باليسر، يقول الراغب: " أصل الرَّغْبَةِ: السّعة في الشيء" [(٢)]، وكأن النبي (ﷺ) بإيثار هذا اللفظ خاصةً ينعي عليهم من طرفٍ خفي تضييقهم لهذا المتسع الذي فتحه لهم بالأخذ برخصه، وكذلك هو من الأفعال التي تفيد المعاني المتضادة وذلك بحسب ما يتعدي به من حروف الجر، فإذا قيل: " رغب فيه اقتضى ذلك معنى الحرص على الشيء، وإذا قيل: رَغِبَ عنه، اقتضى صرف الرّغبة عنه والزّهد فيه"[(٣)].

وفي رواية (يتنزهون) بصيغة (التفعل) وفيها إيحاء بالتكلف والاعتمال، والمعنى على كلا الروايتين يتفق مع ما يرمي إليه النبي (ﷺ) من النهي " عن التعمق في العبادة وذم التنزه عن المباح شكا في إباحته" [(٤)].

---

(١) فتح الباري لابن حجر: (١٣/ ٢٧٩).

(٢) المفردات: ٢٠٤.

(٣) السابق: الصفحة نفسها.

(٤) المنهاج شرح صحيح مسلم بن حجاج للنووي: ١٥/ ١٠٦، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢ هـ.

والتعبير بالاسم الموصول (ما) لإفادة العموم، دلالة على أن النبي (ﷺ) لا يقصد إنكار هذا الموقف بعينه، بل يمتد إنكاره لمن يرغب عن الأخذ بما رخصه في كل الأحوال، إشاعة لمبدأ الأخذ باليسر والسهولة في كل الأمور.

وبناء الفعل (رُخِّص) لما لم يسم فاعله، دلالة على أن النبي (ﷺ) لم يرخِّص في هذه الأمور من تلقاء نفسه، بل رُخِّص له فيها من قِبل الله (ﷻ) وهذا مما يوحي بأن غضبه (ﷺ) إنما كان لله (ﷻ).

وتقديم المتعلق (لي) على تاليه (فيه) دلالة على أن هذا الترخص في بعض الأمور إنما هو منحة وتفضل من الله لرسوله، والترخص له ترخص لأمته، وهذا الترخص ما هو إلا فيض من رحمته – سبحانه – فكان الأولى الأخذ والعمل به، بدلا من الرغبة عنه والتنزه فيه.

والتعبير بحرف الظرفية (في) يتناغم مع معنى السعة والرحابة المفاد من الحث على الأخذ بالرخصة، وكأن النبي (ﷺ) يستجيش المشاعر بهذا القيد (فيه) على اتباعه وإشعار السامعين بسعة رحمة الله، وعظيم عطائه عند العمل برخصه والأخذ بها.

وبعد أن لفت النبي (ﷺ) انتباههم إلى خطأ ما وقعوا فيه إذا به يشدد عليهم ويقرر لهم أنه أعلمهم بالقربة من الله (ﷻ) وأولاهم بالعمل بها، وأنه و" إِنْ كَانَ قد غَفَرَ اللهُ – تعالى – لَهُ ما تقدم من ذنبه وما تأخر فإنه مَعَ ذَلِكَ أَخْشَى النَّاسِ للهِ وَأَتْقَاهُمْ فَمَهْمَا فَعَلَهُ مِنْ عَزِيمَةٍ وَرُخْصَةٍ فَهُوَ فِيهِ فِي غَايَةِ التَّقْوَى وَالْخَشْيَةِ، لَمْ يَحْمِلْهُ التَّفَضُّلُ بِالْمَغْفِرَةِ عَلَى تَرْكِ الْجِدِّ فِي الْعَمَلِ قِيَامًا بِالشُّكْرِ، وَمَهْمَا تَرَخَّصَ فِيهِ فَإِنَّمَا هُوَ لِلْإِعَانَةِ عَلَى الْعَزِيمَةِ لِيَعْمَلَهَا بِنَشَاطٍ "[1]، ولذا أتبع جملة الاستفهام بقوله: (فو الله لأنا أعلمهم بالله وأشدهم له خشية) وقد جاءت عبارته قوية السبك، متينة الحبك، تعلو فيها لهجة الغضب، والفاء في بدئها تصعيد للمعنى، وارتقاء في الإنكار، وإعلان واضح لبغض صنيعهم، كما جاءت عبارته (ﷺ) على درجة عالية من القوة والتأكيد، وهي عبارة لا ينطق بها إلا لسان متصل بالسماء مرتبط بالوحي، يعرف منزلته عند ربه.

(١) فتح الباري لابن حجر: ١٣/ ٢٧٩.

وقد أكدها بالقسم الذي أداته (الواو)، والمقسم به هو الله، والمقسم عليه هو كونه (ﷺ) أعلمهم بالله وأشدهم له خشية، وهذا المعنى لا يقسم عليه إلا نبي، وهذا القسم منه (ﷺ) -في هذا السياق – فيه تأكيد لهذا المعنى في نفوس السامعين، وتهيئة نفوسهم واستجماع حواسهم وإثارة انتباههم لما سيُلقى عليهم، بالإضافة إلى ما له من تأثير نفسي له وقعه على قلوبهم، ويضاف إلى التأكيد بالقسم التأكيد بلام التأكيد، واسمية الجملة، والتي قرر النبي (ﷺ) من خلالها دوام هذا المعنى وثبوته له، فهذا حاله الدائم ولن يكون أحدٌ أعلم بالله وأشد خشية له منه (ﷺ).

ومعلوم أن المخاطبين أو السامعين على يقين بأن رسول الله (ﷺ) أعلمهم بالله وأشدهم له خشية، وهذا يعني أن مقتضى الظاهر أن يأتي كلامه خاليا من التوكيد – إذا راعينا حالهم – ولعل الداعي إلى توكيد الخبر لهم هو إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، حيث نُزِّل غير المنكرين منزلة المنكرين، وذلك لِمَا بدا عليهم من مخالفتهم بعدم الأخذ بالرخصة، فأراد (ﷺ) أن يردهم إلى الطريق القويم، ويؤصِّل لهم مبدأ الأخذ باليسر في الدين، وأن ذلك لا يرتبط بالاجتهاد من أحد، وإنما يكون بمحض السماء واتباع هديه (ﷺ) فلا التشدد ولا التيسير خاضع لرأي أحد أو هواه.

ولا نعدم من ألوان التأكيد ما أفاده تقديم ذكر المحدَّث عنه (أنا) على خبره المشتق من التأكيد والتقرير والتحقيق، وإنما كان الأمر كذلك – كما يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني – رحمه الله –: " من أجل أنه لا يؤتي بالاسم مُعَرًّى منَ العوامل إلاَّ لحديثٍ قد نُويَ إسنادُه إليه، وإذا كان كذلك، فإن قلت: "عبد الله"، فقد أشعرت قلبه بذلك أنك قد أردتَ الحديثَ عنه، فإذا جئتَ بالحديث فقلت مثلاً: "قامَ" أو قلتَ: "خرجَ"، أو قلتَ: "قَدِمَ" فقد عُلم ما جئتَ به وقد وطَّأْتَ له وقدَّمتَ الإعلام فيه، فدخلَ على القلب دُخولَ المأنوسِ به، وقبله قبول المهيأ له المطمئن إليه، وذلك لا محالة أشد لثبوته، وأتقى للشُّبهة، وأَمنعُ للشكِّ، وأدخلُ في التَّحقيق " [1].

(١) دلائل الإعجاز: ١٣٢.

والتركيب كله (فو الله لأنا أعلمهم بالله وأشدهم له خشية) فيه تعريض بخطئهم في مقصودهم، بأن ما فعلوه أقرب لهم عند الله فإنما "يكون القرب إليه – سبحانه وتعالى – والخشية له على حسب ما أمر، لا بمتحملات النفوس وتكلف أعمال لم يأمر بها "[1].

والتعبير بأفعل التفضيل (أعلمهم) على بابه، وفيه إيحاء بأنهم على علم بالله، ولكنهم ليسوا في درجة علمه(ﷺ)، ومن ثم عليهم أن يسيروا وراء هديه.

كما أن التعبير باسم الجلالة في قوله (أعلمهم بالله) من إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، إذ مقتضى الظاهر أن يعبر بالضمير العائد عليه – سبحانه – أي أعلمهم به، وذلك لسبق التعبير بالاسم الظاهر في القسم (فو الله) والتعبير به ظاهرا جاء في غاية المناسبة للمقام، لما في ذكره من وقع عظيم في القلوب الحية، وتأثير شديد في النفوس الخاشعة، وذلك بما يفوح به من معاني الهيبة والجلال، ورسول الله أكثرهم إدراكا وإحساسا بتلك المعاني.

وإذا كان أفعل التفضيل (أعلمهم) جاء على القياس اللغوي إلا أنه لم يأت على هذا القياس في قوله (أشدهم له خشية)، حيث توافرت شروط صياغته من الفعل (خشي)، فيكون البيان: (وأخشاهم له)، إلا أن هذا التعبير في هذا المقام لم يكن لينهض بالمعنى الذي يقصده (ﷺ)، ولذا عدل (ﷺ) إلى صياغته من اسم مناسب (أشد) وجعل الفعل القياسي تمييزا له، وفي هذا العدول دلالة واضحة على عمق خشيته (ﷺ) وعظيم إدراكه لجلال ربه وعظمته، وهكذا نجد أن " وظيفة العدول البلاغية تتمثل في فائدتين: إحداهما عامة في كل صورة، وهي إمتاع المتلقي، وجذب انتباهه بتلك النتوءات أو التحولات التي لا يتوقعها في نسق التعبير، والأخرى: خاصة تتمثل فيما تشعه كل صورة من تلك الصور – في موقعها من السياق الذي ترد فيه – من إيحاءات ودلالات خاصة "[2].

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن حجاج للنووي: ١٥/ ١٠٦.

(٢) استثمار الأسلوب العدولي في تذوق النص القرآني د/ عيد محمد شبايك: ٤١، مجلة كلية الآداب – جامعة المنوفية – العدد الثامن – يناير ٢٠٠٤ م.

وتقديم المتعلق (له) على التمييز (خشية) لإفادة الاهتمام والتوكيد على خشيته (ﷺ) لربه.

كما تبدو دقة بيانه (ﷺ) في تقديمه لجملة (أعلمهم بالله) على جملة (أشدهم له خشية) ؛ وذلك لأن العلم طريق للخشية، ولذا مدح الله (ﷻ)العلماء بقوله: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [1]، فلولا علمهم ما بلغوا تلك المنزلة، وقد ربط الراغب – رحمه الله – في (مفرداته)بينهما في دقة بالغة، فقال: " الخَشْيَة: خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه، ولذلك خصّ العلماء بها في قوله: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ " [2].

كما آثر (ﷺ) التعبير بلفظ (الخشية) دون (الخوف) – مثلا –، وذلك مما يتناسب مع مقصده (ﷺ) بأنه أكثرهم تعظيما لله، والتعبير بلفظ (الخشية) أبين في هذا المعنى، وذلك لما فيه من معاني الهيبة والامتثال، دون الخوف، إذ يدل على " الذعر والفزع " [3].

(١) سورة فاطر: ٢٨.

(٢) المفردات: ١٥٥.

(٣) مقاييس اللغة لابن فارس، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون: ٢/ ٢٣٠، دار الفكر ١٣٩٩هـ – ١٩٧٨ م.

المقام السادس: غضبه (ﷺ) في مقام التطويل في الصلاة

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ)، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي وَاللَّهِ لَأَتَأَخَّرُ عَنْ صَلاَةِ الغَدَاةِ مِنْ أَجْلِ فُلاَنٍ، مِمَّا يُطِيلُ بِنَا فِيهَا، قَالَ: فما رأيت النبي (ﷺ) قط أشد غضبا في موعظة منه يومئذ، ثُمَّ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَأَيُّكُمْ مَا صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيُوجِزْ، فَإِنَّ فِيهِمُ الكَبِيرَ، وَالضَّعِيفَ، وَذَا الحَاجَةِ»(١)

إن التيسير والبعد عن التنفير والتشديد من أهم مقاصد الشريعة الإسلامية، ولاسيما فيما يتعلق بشعائر الله، فلا يحسن التشدد في العبادة بأي حال، ولو كان على سبيل الاجتهاد، وبخاصة إذا كانت عبادة جماعية كإمامة الناس في صلاة الجماعة، ولذلك يغضب نبينا الكريم غضبا شديدا عندما جاء إليه رجل يشكو تأخره عن جماعة الصبح بسبب إطالة الإمام فيها، وتظهر ملامح الغضب على قسمات وجه الرءوف الرحيم، ويعظ الناس داعيا إلى التخفيف والتيسير، وناهيا عن التنفير والتشدد قائلا: أيها الناس... الحديث.

والحديث – كما ترى – فيه كلام تعددت مصادره، ففيه كلام للرجل الذي جاء يشكو للنبي (ﷺ)، وفيه كلام لراوي الحديث أبي مسعود الأنصاري " وهذا الضرب من الكلام يخالف الكلام الذي يخرج من تحت لسان واحد ؛ لأنك ترى فيه أنفاسا مختلفة، وتسمع ألسنة مختلفة، وتذوق طعوما للبيان مختلفة " (٢).

وتبدو قوة التأكيد على كلام الشاكي، فيبدأه بالنداء على رسولنا الكريم، وكأنه يلفت انتباهه ويهيؤه لما يقوله من أمرٍ مهم آلمه وأثرَّ فيه، ثم تأتي المؤكدات اللفظية المتعددة من (إن) والقسم، واسمية الجملة، واللام الداخلة على جملة الخبر، ومعلوم أن الكلام تختلف درجات التوكيد فيه باختلاف المقامات الداعية إليه قوة وضعفا.

وهذه المؤكدات في بيان الرجل تكشف عن قوة وقع هذا الأمر في نفسه الذي قصد أن يُعلِم به النبي (ﷺ)، وأنه جدير بأن يحتشد له بكل هذه المؤكدات.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب: الأَحْكَامِ، بَابُ: هَلْ يَقْضِي القَاضِي أَوْ يُفْتِي وَهُوَ غَضْبَانُ، رقم: ٧١٥٩.
(٢) شرح أحاديث من صحيح البخاري: ٣٠٠.

كما يبدو في كلامه الدقة والوضوح الذي يزيل كل ما يمكن أن يلابس نفس النبي (ﷺ) من شكٍّ في درجة تدين هذا الرجل، فهو يحدد صلاة (الغداة) وهي صلاة الصبح، ومعلوم أنه لا يتخلف عنها إلا منافق، فلذلك يكشف الرجل عن سبب تأخره في دقة وإبانة (من أجل فلان مما يطيل بنا)، وجملة (مما يطيل بنا) لها دورها في الإبانة عن المعنى، فلو لم يذكرها للنبي (ﷺ) لكان ذلك مدعاة للتوهم بأن سبب تخلفه هو الإمام نفسه لشيء يتعلق بدينه، أو ورعه وتقواه – مثلا –، مما جعل الرجل كارها للصلاة خلفه، وهذه قصة أخرى ليست مقصد الرجل، ولذلك كان واضحا ودقيقا بقوله: (مما يطيل بنا) ونلمح فيها تأثر نفسية الرجل، وشدة خوفه من فوات ثواب وفضل صلاة الجماعة لو استمر الأمر على ذلك فـ (ما) وما فيها من مد وانطلاق يوحي بأن الأمر يتجاوز المعهود، كما آثر الرجل التعبير بالفعل المضارع (يطيل) ليكشف عن استمرارية هذا الأمر وتجدد حدوثه، مما يعني أنها ديدن هذا الإمام وعادته، كما يظهر حرص الرجل على جموع المصلين معه، فيقول (مما يطيل بنا) فالقضية ليست تخصه وحده، بل مظهر إطالة هذا الإمام يراها غيره، وربما كان متأثرا هو الآخر، ولكن كان للرجل فضل السبق في بث شكواه للنبي (ﷺ).

وإذا كانت سمة الإيجاز والدقة هي الأسلوب المهيمن على كلام هذا الرجل فنرى البسط والإطناب هي الملمح البارز في كلام الراوي، سيدنا ابن مسعود الأنصاري، فلم يقل: (فغضب النبي غضبا شديدا) – مثلا –، ولكنه كان حريصا على أن ينقل صورة ضوئية كاشفة تنبئ عن شدة تأثر الرسول بشكوى الرجل وانزعاجه من صنيع هذا الإمام، فيبدأ كلامه بفعل (الرؤية) منفيا مع التقييد بالظرف (قط) والتي تستغرق النفي في الزمن الماضي، ويؤثر أفعل التفضيل (أشد)، ويجعل تمييزها لفظ (غضبا) وكان من الممكن أن يقول: (فما رأيت النبي غضب في موعظة مثل يومئذ)، ولكنها – بلا شك – أقل في الكشف والإبانة عن حال النبي (ﷺ) وما بدا عليه من الغضب.

و" بين هذين الكلامين ترى كلام رسول الله في جزالته وبعد غوره، وصدق لهجته، ونصاعة بيانه، ما يجعله بين كلام الناس يوشك أن يفوت هذا الجنس، وهو منه، أو قل إنه يمثل الصورة النقية الخالصة لجنس كلام الناس، والتي لا تتكرر وتبقى وحدها أصفى

وأرقى كلام جرى به لسان، وإن قاربت ألسنةُ الناس بعضَ أطرافه، وخالط ما فذَّ منها، ونبع بعض جوانبه "[1].

وأحسب أن كلام هذين الرجلين، وجلَّ صحابة النبي (ﷺ) ممن قارب كلامُهم بعض أطراف بلاغته (ﷺ)، فكلُّ حرف وكل كلمة نطقت بها ألسنتهم لها دلالتها ومغزاها، وبلاغتها ومرماها، وذلك ليس بدعا في كلامهم، فقد تأثروا ببيان النبوة الذي لا ينطق عن الهوى، ومعلوم أن القرآن الكريم والسنة النبوية نوران من مشكاة واحدة.

وأول ما يطالعنا في لغة النبي (ﷺ) وبيانه هو هذا النداء (أيها الناس) وهو يكشف عن حرص النبي البالغ في هذا التوجيه، وأن الأمر الذي بصدد الحديث عنه جد خطير، واستعداد النفوس له لابد أن يتناسب مع عظمته وخطورته، ولذا يجول حضرة النبي في أعماق النفوس ليوقظ الانتباه، ويثير المشاعر، بهذا الأسلوب الإنشائي لتحقيق مزيد من الانتباه، وجعلِ النفوس في ترقبٍ وتشوقٍ للوقوف على حقيقة ما ينادى من أجله.

يضاف إلى ذلك: أن (أي) اسم مبهم مفتقر إلى ما يوضحه ويزيل إبهامه، ومن ثم فلا بد أن يردفه اسم جنس أو ما يجري مجراه يتصف به، حتى يتضح المقصود من النداء، وفي هذا التدرج من الإبهام إلى التوضيح ضرب من التأكيد، و (ها) كلمة تنبيه مقحمة بين الصفة وموصوفها، وهي تقوى حرف النداء (يا) لتقاربهما في المعنى، فحرف النداء فيه تنبيه وإيقاظ للمدعو، وحرف التنبيه (ها) مما يقوي ذلك الإيقاظ ويؤكده [2].

و (أل) في الناس للعهد، فهو لفظ عام يصدق على المسلمين وغيرهم، ممن يسمعون كلام النبي (ﷺ) و ممن غاب عن سماعه، ولكن دلالة المقام تصرفه إلى المسلمين الذي يبلغهم النبي (ﷺ) تلك الموعظة، وهم جلوس معه.

---

(١) شرح أحاديث من صحيح البخاري: ٣٠٠.

(٢) ينظر: الكشاف: ١/ ٨٥، ومفاتيح الغيب للرازي: ١/ ٩١، ٩٢، دار الفكر – ١٤١٠ هـ – ١٩٩٠م، روح المعاني للألوسي: ١/ ١٨٠ – ١٨١، دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان – والبرهان في علوم القرآن للزركشي: ٢/ ٤٢٩.

وعلى هذا: ففي لفظ (الناس) مجاز مرسل لعلاقة العموم، والتعبير بهذا المجاز مما يتناسب مع المقام تمام المناسبة، فبه اخترق النبي(ﷺ) حواجز الزمان والمكان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ليبلغ موعظته، حتى يرتدع كل من يسمعها ممن يتنطعون في الدين ويتخذون من التشدد والإطالة في إمامة الصلاة مسلكا لهم.

وبعد أن أثار النبي (ﷺ) كوامن النفوس بالنداء، وما فيه من تنبيه وإيقاظ، أعقبه بجملة خبرية (إن منكم منفرين) والطابع الذي يبدو عليها هو اللهجة الحاسمة والنغمة الحادة، وقد جاءت مؤكدة بأم أدوات التأكيد (إن) واسمية الجملة، مما يؤذن بأهمية الخبر، ويلفت وعي كل سامع ارتضى أن يتحمل مسئولية الإمامة، وقد جاء هذا التأكيد متناغما مع المقام الداعي إلى غضبه(ﷺ) ؛ لأنه يتعلق بأهم أركان الإسلام (الصلاة) وهي الفريضة التي تتكرر كل يوم في حياة كل مسلم، وعليها مدار صلاح العبد وتقواه وسعادته وفلاحه في الدنيا والآخرة، ومن ثم كان الحرص النبوي على أدائها بأريحية ويسر، وشغف ومحبة، بعيدا عن الإطالة غير المعتادة والتي من شأنها أن تنفر النفوس وتعرض القلوب.

والتعبير بالجملة الاسمية بما تفيده من معنى الثبوت والدوام يشعر باستمرارية هذا التحذير وثبوته من أول الأمة حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وعدم اختصاص ذلك بالمخاطبين فقط، بل يتعدى إلى كل من يسمع أو يقرأ هذا التحذير.

وتأمل بلاغة التقديم (منكم) فالنبي (ﷺ) يضع يده على موطن الداء المتمثل في بعض النفوس المتنطعة، والتي تضر الدين – من حيث لا تدري – معتقدة أن التشدد في العبادة من

مصلحة الدين ومن تعظيم شعائره، والتعبير بحرف التبعيض يدل على أن الأمر ليس على عمومه، بل هو خاص ببعض المغالين ؛ لأن الخير في الأمة إلى يوم القيامة، وأهلُ الخيرِ أهل يسرٍ ورحمةٍ يأخذون بأيدي الناس في رفق ويسر، والخطاب في (منكم) يفيد

جذب النفوس كافة إلى هذا الكلام، وكأن كل من يسمعه أو يقرؤه مدعوٌ بأن ينظر في حال نفسه، هل هو من هذا الصنف المنفِّر ؟، ومن ثم يقلع عنه ويعدل سلوكه.

و(منفرين) اسم فاعل من (نفَّر)، وهو وصف يفيد الثبوت والدوام تأكيدا على وجود هذا الصنف بين صفوف المنتسبين لهذا الدين، وهي كلمة ناطقة بالتشدد وداعية للبغض، تنبئ مادتها عن الرفض الشديد، والاستنكار القاطع، كما دلت بجرسها على ما تدل عليه بوضعها، فصوتُ (الفاء) بما فيه من طرد النفس من الصدر يحاكي الرفض لهذا السلوك، وقد زادها التضعيف قوة وثقلا على النفس.

كما أن حرف الراء المكسورة وما فيه من تكرير [(١)]، وما يتبعه من المد بالياء مما يترك ترجيعا صوتيا عاليا، يصاحبه رنين ممتد يتردد صداه، خاصة مع الوقوف على رأس تلك الجملة، مما يعين السامع على تمثل المعنى، والتفاعل مع مضمون الكلام، حتى يقلع عن هذا المسلك المذموم.

وتصدير هذا الهدي النبوي بتلك الجملة (إن منكم منفرين) درس تربوي فريد في بث منهج اليسر والتخفيف في كل شئون الدين ومجالاته، وأن الإسلام لا يقر التشدد والتقعر في كل جوانبه، إذ كان من الممكن أن يسلك النبي (ﷺ) في أداء المعنى الذي يقصده طريقا آخر، فيبدأ بالغرض من الحديث مباشرة ويقول – مثلا –: من صلى بالناس فليوجز... دون تلك المقدمة التحذيرية، ولكن الفرق كبير بين هذا البيان، وما نطق به خير الأنام.

فلعل مقصد النبي (ﷺ) في البدء بها أن يحذر من كل ما يدعو إلى تنفير الناس، ويسبب لهم البغض لما أمرهم به من شعائر، فالتنفير ليس في إمامة الناس في الصلاة فحسب، بل تتعدد صوره وتتنوع أشكاله في الحياة، فهناك من ينفِّر الناس من الصلاة، وهناك من ينفرهم من أعمال البر والخير، وهناك من ينفر طلاب العلم في قاعات الدرس، وهناك الجار المنفر، والزوج المنفر، وغير ذلك كثير – عافانا الله من ذلك –.

(١) ينظر: الخصائص لابن جني: ٢/ ١٦٦، ت/ محمد على النجار الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط الرابعة – ١٩٩٩ م.

والنبي (ﷺ) بهذا النظم كالطبيب الذي يضع يده على موطن الداء ثم يضع له الدواء (فمن صلى بالناس فليوجز)، كما أنه يضع في بدء بيانه لافتةً تحذيرية ترفض كل صور التنفير وأشكاله، مستغلا هذا الموقف الذي غالى فيه هذا الرجل في إمامته ؛ ليرسي قاعدة التخفيف والتيسير على الناس في شعائر دينهم وتعاليمه، وقد كان هذا شأنه (ﷺ) في كل شئونه، فما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثما.

وإذا قصرنا نظرنا على سياق الحديث فقط كان التعبير بـ (منفرين) على سبيل المجاز المرسل، لعلاقة (المسببية)، حيث أطلق (ﷺ) المسبب (التنفير) وأراد السبب (التطويل)، وإن كان حملُ اللفظ على عمومه أولى، ليكون التيسيرُ وأخذ الناس بالتخفيف شعارَ هذا الدين وعماد تعاليمه.

ثمَّ فرَّع النبي (ﷺ) على الخبر السابق جملة الشرط (فأيكم ما صلى بالناس فليوجز) وهو تفريع وثيق الصلة بالخبر السابق، وجملته مستمدة منه ومولدة عنه، ومخالفةُ مضمونهِ من أبشع صور التنفير، ولذا كان التعبير بالفاء في غاية المناسبة والربط والإحكام بين الجملتين، ولو جاءت جملةُ الشرط بدون الفاء (أيكم ما صلى) لكانت بيانا لسابقتها، وليست مفرعة عنها.

وقد أفرغ النبي (ﷺ) غرض الحديث ومقصوده في قالب شرطي محكم دقيق، يدفع السامع إلى التطلع والاستشراف إلى جواب الشرط، وهذا من شأنه أن يرسخ المعنى في النفس ويمكنه.

وإذا كانت راوية الحديث – محل الدراسة – آثرت أداة الشرط (أي) مضافةً إلى ضمير المخاطبين، فقد جاءت رواية أخرى للحديث أداة الشرط فيها (من) **(فمن أمَّ الناس فليتجوز)** [1]، ولكل تعبير دلالته، فراوية الشرط (بأي) نلمح فيها لغة الخطاب بادية، وكأنها تُسْمِع كل من يتصدر للصلاة بالناس، ليبلُغَه تحذيرُ الرسول (ﷺ)، ورواية (من) تفيد معنى العموم والشمول ليتسع الأمر ليدخل كلُّ مكلف على مدار الزمان والمكان، وبذلك يعم النفع وينتفى الضرر، ويسعد الجميع بفضل الطاعة والامتثال.

(١) صحيح البخاري، كِتَابُ الأَذَانِ، بَابُ مَنْ شَكَا إِمَامَهُ إِذَا طَوَّلَ، رقم: ٧٠٤.

وإذا كانت رواية الحديث ركزت على جانب الخطاب المباشر (أيكم) فالتعبير بـ (ما) الزائدة فيها نلمح فيه تراحب الزمن وعمومه، بما تتسم به من طلاقة المد وامتداده.

والتعبير بفعل الشرط (صلى) فيه تذكير بما ينبغي أن تكون عليه الصلاة من شعور المصلى بالأمن والطمأنينة والراحة والقرب من الله (ﷻ)، ولاشك أن التطويل من الإمام أكبرُ داع إلى فقدِ تلك المعاني، أما رواية (أَمَّ الناس) ففيها تذكير بمسؤلية الإمامة، وأن الذي يتصدي لإمامة الناس على خطر عظيم ؛ لأنه إذا أحسن الصلاة كان له أجر صلاته وأجر من يصلى خلفه، وإذا أساء كان عليه وزر إساءته ووز من يصلي خلفه – كما قال النبي (ﷺ) **" الإمام ضامن، والمؤذن مؤتمن "** [(١)]، ولذا دعا لهم النبي (ﷺ) بالرشاد فقال **" اللهم ارشد الأئمة، واغفر للمؤذنين "** [(٢)].

والتعبير بحرف الملابسة (بالناس) فيه إيحاء بملابسة الإمام للمؤمنين، وهذا مما يدعوه إلى أن يشعر بنفسياتهم، ويراعي ظروفهم وأحوالهم، ويرفق بهم في سهولة ويسر، بما يحببهم في صلاة الجماعة.

كما أن قوله (بالناس) قيد مهم في بيان المعنى المقصود، إذ ليس الحديث منصبا حول صلاة المنفرد، فالأمرُ فيه توضحُه روايةٌ أخرى من البيان النبوي، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال: **" إذا صلى أحدكم للناس فليخفف، فمنهم الضعيف والسقيم والكبير، وإذا صلى أحدكم لنفسه فليطول ما شاء "** [(٣)].

ورواية هذا الحديث تختلف عن رواية الحديث – محل الدراسة – في عدة أمور، أذكر منها:

١- أنها خلت من لغة التهديد والزجر، فلم تتصدر بجملة (إن منكم منفرين).
٢- التعبير فيها بـ (اللام) التي تنبئ عن الملكية والاختصاص في قوله (للناس) بخلاف الرواية – محل الدراسة – فقد عبرت بباء الملابسة (بالناس).

---

(١) سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب ما يجب على المؤذن من تعاهد الوقت، رقم: ٥١٧.
(٢) السابق نفسه.
(٣) صحيح البخاري، كِتَابُ الأَذَانِ، بَابٌ: إِذَا صَلَّى لِنَفْسِهِ فَلْيُطَوِّلْ مَا شَاءَ، رقم: ٧٠٣.

٣- أن جواب الشرط فيها (فليخفف) بينما في رواية الحديث – محل الدراسة – (فليوجز).

٤- أنها ابتدأت بذكر (الضعيف) في الأصناف الذين علل النبي (ﷺ) حاجتهم إلى التخفيف، بينما في الرواية – محل الدراسة – ابتدأت بذكر (الكبير) ثم أعقبه ذكر (الضعيف).

وسياق كل حديث يوضح سر الاختلاف بين الروايتين، فالحديث – محل الدراسة – قاله النبي (ﷺ) في سياق الغضب، والذي أغضبه هو شكوى هذا الرجل من إطالة الإمام بهم في صلاة الغداة، مما دعاه إلى أن يتأخر عن جماعتها، ومن ثم اقتضت لغة الحديث القوةَ في اللفظ، والتهديد والزجر، ومن ثم غلب على الحديث طابع التأكيد بمختلف صوره وألوانه.

أما حديث أبي هريرة فقد خلت روايته من ذلك، وكان الهدف من بيانه (ﷺ) هو الإرشاد والتوجيه، ومن ثم جاءت صياغتها في صورة المقابلة التي تستوعب صور أداء الصلاة، إما جماعة وهذه يدعو إلى التخفيف فيها، وإما فردية وهذه تؤدَّى حسب القدرة والرغبة.

أما التعبير بلام الاختصاص في رواية أبي هريرة (للناس) و(لنفسه) فهذه اللام فيها ما يشير إلى أن إطالة المنفرد أمر يخصه ويعود عليه نفعُه وحده، ومن ثمَّ إذا أراد كثرة الأجر والثواب فعليه أن يزداد في القرب والوصال بكثرة الإطالة والوقوف بين يدي رب العالمين، بخلاف ما إذا كان إماما فهذا أمر يشاركه فيه المأمومون فعليه أن يراعي أحوالهم.

أما عن سر المغايرة بين جواب الشرط في كلتا الروايتين، فقد جاء كلُّ جوابٍ ملائما لسياق كل حديث، فالرواية – محل الدراسة – جاء الجواب (فليوجز) مناسبًا لحال هذا الرجل الشاكي، فداعي تخلُّفِه هو إطالة الإمام، والإطالةُ غالبا ما تكون في القراءة، ومن ثم اقتضى المقام التعبيرَ بفعل الإيجاز (فليوجز)، ولذلك أنكر النبيُّ (ﷺ) على سيدنا معاذ عندما أطال على الناس في الصلاة قائلا: **" أتريد أن تكون فتانا يا معاذ ؟ إذا أممت الناس فاقرأ بالشمس وضحاها، وسبح اسم ربك الأعلى، واقرأ باسم ربك، والليل إذا يغشى"**[1].

(١) صحيح مسلم، كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ الْقِرَاءَةِ فِي الْعِشَاءِ، رقم: (٤٦٥).

بخلاف رواية أبي هريرة، فقد كان التعبير بـ (فليخفف) أنسب لسياقها، إذ هي في معرض الإرشاد والتوجيه والمقارنة بين حال الفرد إماما أو مأموما، فعليه التخفيف وجوبا وإلزاما إذا كان إماما، وله الإطالةُ رغبة وإرادة منه إذا كان منفردا.

أما عن سر البدء بـ (الكبير) وتقدمه على (الضعيف) في الرواية – محل الدراسة – بخلاف العكس في رواية أبي هريرة فهو يتضح من سياق كل حديث – أيضا –، فمقام غضبه (ﷺ) استدعى أن يقدم الأشد عذرا والأضعف عن تحمل عبء الإطالة، وهذا يتضح أكثر في (الكبير)؛ لأن عذره لا يزول، بل هو وصف ثابت له، وغالبا ما يصاحب الكبر الضعف، بخلاف رواية أبي هريرة، فليس فيها ما يدعو إلى هذا التقديم، بل جاء الترتيب فيها بالأقل عذرا ثم الأشد فالأشد.

وهكذا يتضح أن الوقوف على سياق كل حديث يتحدد به المعنى المراد، ويتضح المغزي، ويختلف التوجيه، وتتنوع الفائدة.

ثم جاءت جملة جواب الشرط (فليوجز) مقترنة بفاء الربط، لأنها جملة إنشائية وردت في صورة الأمر، وهذه الفاء بلمحتها الخاطفة، ودلالتها على الترتيب والتعقيب بلا مهلة تعكس حرص النبي (ﷺ) على فورية الامتثال، وسرعة الاستجابة، ومبالغته في الطلب، وورود الجواب في صورة الفعل المضارع المقترن بلام الطلب المجزوم بها مما يشير إلى درجة أعلى من الإلزام والحث على التخفيف والإيجاز، مما يجسد حرص النبي (ﷺ) على أمته، وذلك لما تتميز به صيغة (فليفعل) من لهجة حاسمة ونبرة حادة، لأنها أصل صيغ الأمر عند الكوفيين [(١)]، ولأن دلالتها على الأمر عامة، فأنت " تأمر بها المخاطب كما تأمر بها الغائب " [(٢)]، ولذا كانت هي أقوى صيغ الأمر إبانة ودلالة على حقيقة معناه [(٣)].

(١) ينظر: الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين لابن الأنباري: ٤١٤، ت: د/ جودة مبروك، د/ رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط الأولى، ٢٠٠٢ م.

(٢) الأصول في النحو لابن السراج النحوي البغدادي: ٢/ ٥٧، ت: د/ عبد الحسين الفتلي – مؤسسة الرسالة، ط ٣، بدون.

(٣) ينظر: صورة الأمر والنهي في الذكر الحكيم، د/ محمود توفيق سعد: ٣٥، مطبعة الأمانة – مصر – ط الأولى – ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣ م.

وحذف متعلق الفعل فليوجز، وتقديره: في صلاته، وذلك لإفادة العموم، فضلا عن دوره في تصفية العبارة وتقوية حبكها، وتوفير العناية على الفعل الذي هو مطلب الحديث وغرضه.

والحث على الإيجاز والتخفيف في إمامة الصلاة لا يُفهم منه الإسراع في الصلاة أو الإخلال بأركانها وواجباتها، ولذا بوب الإمام النووي لهذا الحديث بقوله: " أمر الأئمة بتخفيف الصلاة في تمام "، ثم قال: " معنى حديث الباب ظاهر، وهو الأمر للإمام بتخفيف الصلاة، بحيث لا يخل بسننها ومقاصدها " (١).

يقول ابن القيم: " فالتخفيف أمر نسبي يرجع إلى ما فعله النبي (ﷺ) وواظب عليه لا إلى شهوة المأمومين " (٢).

وجملة التعليل التي أعقبت جواب الشرط مما ينبئ عن أن الأمر ليس متروكا للأهواء والرغبات، بل له ما يتطلبه من الرفق والتيسير وعدم المشقة على تلك النماذج، والتي لا نعدمها في صفوف المصلين.

وابتداء هذه الجملة التعليلية بـ (إن) بلاغة نبوية عالية، ما كانت لتوجد لو جاء التعبير (ففيهم الضعيف...) وذلك لأن (إن) فضلا عن أنها أكثر أساليب التوكيد ورودا في الكلام، فهي " تكثر عقب الأوامر والنواهي التي يحتاج تنفيذها إلى كلفة ومشقة، فكان ما فيها من مصادرة النفس ومغالبة الهوى والتثاقل في أدائها، بحاجة إلى ما في حرف التوكيد من الإلهاب والتهييج " (٣).

وهذا يبرز فقهَ النبي(ﷺ) لما هو مطبوع في نفوس بعض المتشددين الذين قد يتقدمون لإمامة الناس غير معتدين بمثل تلك النماذج التي تتطلب حاجتها التخفيف في الصلاة، ولذا كان التأكيد بـ (إن) في غاية المناسبة للمقام، وأدعى إلى الاستجابة والامتثال.

---

(١) شرح النووي على مسلم: ٤/ ١٨٤، ط دار إحياء التراث العربى - بيروت ط ثانية ١٣٩٢هـ، وينظر: صحيح مسلم (١/ ٣٤٠).

(٢) موسوعة الأعمال الكاملة للإمام ابن قيم الجوزية: جامع الفقه، جَمَعَهُ وَوثّقَ نُصُوصَهُ وَخَرّجَ أَحَادِيثَهُ: يسري السيد محمد، الصلاة – الجنائز: ٢/ ٥٤، نشر وتوزيع: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع – المنصورة، و دار الوراق للنشر والتوزيع – الطبعة الأولى – ١٤٢١ هـ.

(٣) من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم (الفاء – وثم): ١١٣.

كما جاء تقديم قوله (فيهم) في غاية البلاغة والبيان، وذلك اعتناء بشأنهم، واهتماما بحالهم، وحرصا على وجودهم في صفوف المصلين.

وإيثار التعبير بحرف الظرفية والوعاء دون غيره مما يعتقد أداؤه للمعنى، كحرف التبعيض – مثلا – (فإن منهم) له دلالته ؛ لأن حرف الظرفية أدل على خفاء حال هؤلاء، مما يدعو كل من يؤم الناس إلى التخفيف والتيسير ؛ لأنه لا يدري حال من خلفه من المأمومين، فربما فيهم تلك النماذج، وهو لا يدري.

وبهذا نرى الدقة النبوية في المغايرة بين حروف الجر في بنية الحديث، فتأتي لغة النبوة بحرف التبعيض في الجملة الأولى من الحديث (إن منكم) دون (إن فيكم منفرين)، لأن إرادة التبعيض واضحة، بينما تؤثر التعبير بحرف الظرفية (فإن فيهم) إشارة إلى خفاء حال المصلين خلف الإمام.

ولا نغفل من صور البديع في هذا البيان النبوي استيفاءه (ﷺ) لجميع أقسام المعنى[1] الذي يتحدث فيه (فإن فيهم الكبير والضعيف وذا الحاجة)، فقد استوعب بيانه جميع من يُظَنُّ أنهم في حاجة إلى التخفيف والتيسير، بادئا بالأشد عذرا إلى ما هو دونه، كما جاءت لبنات نظمها جميعُها ناطقةً بالرأفة، وداعية إلى اليسر، والنظر إلى تلك النماذج بعين الاعتبار والشفقة فجاءت في غاية الملاءمة للمقام، وفي غاية التناسب بين الألفاظ والدلالات.

كما أسهمت (الواو) العاطفة في الجمع بينها في بوتقة الضعف والحاجة إلى التخفيف والتيسير، وأن كل واحد من تلك النماذج كاف وحده إلى الامتثال لهذا الهدي النبوي الشريف.

(١) وهو ما يسمى بالتقسيم، أو صحة الأقسام.

المقام السابع: غضبه (ﷺ) في مقام الحث على صلاة النافلة في البيت

عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ (رضي الله عنه)، قَالَ: احْتَجَرَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) حُجَيْرَةً مُخَصَّفَةً، أَوْ حَصِيرًا، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) يُصَلِّي فِيهَا، فَتَتَبَّعَ إِلَيْهِ رِجَالٌ وَجَاءُوا يُصَلُّونَ بِصَلَاتِهِ، ثُمَّ جَاءُوا لَيْلَةً فَحَضَرُوا، وَأَبْطَأَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) عَنْهُمْ فَلَمْ يَخْرُجْ إِلَيْهِمْ، فَرَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ وَحَصَبُوا البَابَ، فخر ??إليهم مغضبا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): «مَا زَالَ بِكُمْ صَنِيعُكُمْ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُكْتَبُ عَلَيْكُمْ، فَعَلَيْكُمْ بِالصَّلَاةِ فِي بُيُوتِكُمْ، فَإِنَّ خَيْرَ صَلَاةِ المَرْءِ فِي بَيْتِهِ إِلَّا الصَّلَاةَ المَكْتُوبَةَ»[1].

وأول ما نبدأ به في تحليل هذا الهدي النبوي هو النظر في كلام سيدنا زيد بن ثابت، وقد طال بيانُه في صدر هذا الحديث، مما جعله يستوعب جميع تفاصيل مقام الحديث، وأول ما نلحظه في بيانه أنه ابتدأه بفعلٍ له خصوصية معينة، فالفعل (احتجر) بصيغة الافتعال، مما يومئ بأن هذه الحجيرة كانت خاصة به (ﷺ) كما أن مادة الكلمة نفسها (حجر) فيها معنى المنع والحجب، فالحجر – كما يقول الراغب: " هو الممنوع منه بتحريمه، وقيل للعقل حِجْر، لكون الإنسان في منع منه ممّا تدعو إليه نفسه "[2].

وفي إسناد الفعل (احتجر) إلى رسول الله ما يؤكد معنى التخصيص، وأن هذا الأمر قصد إليه رسول الله قصدا، ولذا صنعها بنفسه دون عون من أحد، ولو أن بيانه كان (اتخذ رسول الله حجيرة) ما كان هذا المعنى، فربما اتخذ تلك الحجيرة مع عدم قيامه بصنيعها بنفسه.

وقوله: (حُجَيْرَةً مُخَصَّفَةً، أَوْ حَصِيرًا) أي: " جعل الحصير كالحجرة ليصلي فيه التطوع، ولا يمر بين يديه مار ليتوفر خشوعه ويتفرغ قلبه "[3].

(١) صحيح البخاري: كتاب: الأَدَبِ، بَابُ مَا يَجُوزُ مِنَ الغَضَبِ وَالشِّدَّةِ لِأَمْرِ اللهِ، رقم: ٦١١٣.
(٢) المفردات: ١١٦.
(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ٣١٢).

ثم رتب على الفعل (احتجر) فعلا آخر ماضيا ليناسب حكاية الحال الماضية، والتي جاء عليها بيانه، وهو الفعل (فخرج)، ولم يُبِن عن مكان خروجه، وهو (من بيته)، بدليل قوله بعد ذلك: (فحصبوا الباب) أي: باب بيته (ﷺ) وذلك لما هو معلوم من قرب حجراته من المسجد، ثم يخالف في صيغ الأزمنة فيستثمر الفعل المضارع (يصلي)، وكان من الممكن أن يأتي بيانه على نسق واحد (فخرج فصلى فيها) وإنما عبر بالمضارع ؛ لأن مقصده أن يربط بين تتبع الرجال له (ﷺ) وحال كونه يصلي ؛ لأنهم ما تتبعوه إلا ليصلوا خلفه، فكان التعبير بالمضارع أعون على استحضار تلك الصورة وإبراز مقصوده.

وقوله: (فتتبع إليه رجال) أي: طلبوا موضعه واجتمعوا عليه [1]، والفاء ليست عاطفة للفعل بعدها على قوله (يصلي) ولكن عاطفة له على الفعل (فخرج) أي: ما إن يخرج ليصلي حتى يتبعه هؤلاء الرجال، والفعل (تَتَبَّع) فيه إيحاء بطلبهم لموضعه، مما يشير إلى حرصهم على التأسي والاقتداء به للعمل بعمله، وقوله: (إليه) متعلق بالفعل (تتبع)، والتعبير به ينبئ عن أن غاية تتبعهم هو الوصول لرسول الله (ﷺ).

ونلحظ في قوله: (وجاؤوا يصلون بصلاته، ثم جاؤوا ليلة فحضروا، وأبطأ رسول الله) التغاير بين حروف العطف في الربط بين معاقد الكلام باديا، حيث ربط بين تتبعهم لرسول الله ومجيئهم للصلاة بصلاته بحرف العطف (الواو) وذلك لأن في مجيئهم للصلاة خلفه (ﷺ) معنى جديدا فأراد أن يبرزه بالواو، لأن جملة (يصلون بصلاته) هي معقد المعنى في كلامه، وما تتبعه (ﷺ) هؤلاء الرجال إلا من أجل ذلك، والتعبير بهذه الجملة دون: (يصلون وراءه) لما في الأولى من الدلالة على مقصودهم من السيرِ على نفس صنيعه، والعملِ بنفس فعله، وهذا المعنى لا يظهر في الجملة السابقة.

ثم تناثرت معاطف الكلام بالتعبير بـ (ثم)، فرأينا المسافات تطول بين المعطوف والمعطوف عليه، ليصور هذا الحرف وقع هذه المفاجأة التي لم يتوقعوها، حيث بقوا على تلك الحال عدة ليال، يخرجُ رسول الله يصلي في حجيرته، وهم يتتبعونه فيصلون بصلاته، وهكذا إلى أن حدث هذا الأمر الجديد عليهم، هذا المعنى نهض بتصويره حرف

(١) السابق نفسه.

العطف (ثم) بما فيه من الدلالة على تراحبٍ الزمن وامتداده، وشدةٍّ أثر تخلف رسول الله على نفوسهم، ولذلك عبر بالفعل (جاءوا) بما فيه من الدلالة على صعوبة ومشقة ذلك على نفوسهم.

وكان من الممكن أن يستغني راوي الحديث عن قوله: (فحضروا و أبطأ رسول الله عنهم) ويقول مباشرة: (ثم جاؤوا ليلة فلم يخرج إليهم) بدون هذين الفعلين، ولكنه يريد أن يبرز أن مدة مكثهم في الحضور لم تَطُل حتى صنعوا ما صنعوه، من رفع الأصوات وحصب بابه (ﷺ)، مما يشير إلى استعجالهم حضورَ رسول الله (ﷺ) رغبةً في الحصول على الأجر والثواب خلفه، وإنما لم يحرج رسول الله إليهم " للخشية من فرضية هذه الصلاة عليهم " [1].

ثم رتَّب على عدم خروجه (ﷺ) إليهم أمرين: وهما في قوله " فرفعوا أصواتهم وحصبوا الباب "، والتعبير بهما من باب التدرج التصاعدي في ردِّ الفعل، فبدأوا برفع الأصوات، ظنا منهم غلبة النوم عليه (ﷺ) أو نسيانه، فأرادوا أن ينبهوه، فلما لم يخرج حصبوا الباب.

وتبدو دقة بيانه في وجازته وشدة اختصاره، فقوله: (حصبوا الباب) أوجز من (رموا بابه بالحصباء) والحصباء هي: الحصا الصغيرة [2]، و (أل) في البيت للعهد الذهني، أي باب بيته، ليخرج منه إلى الحجيرة المخصفة.

وقوله: (فرفعوا أصواتهم) دون: (فارتفعت أصواتهم)، فالأول يوحي بمقصودهم وتعمدهم في رفع أصواتهم، ولذا أَسند الرفعَ إلى ضميرهم، بخلاف الثاني، إذ يفيد مجرد ارتفاع أصواتهم.

و (مغضبا) في قوله: (فخرج إليهم مغضبا).. حال، أي: خرج متلبسا بالغضب، وهو اسم مفعول من (غضب) والتعبير به دون (غاضبا) مما يشير إلى أن النبي (ﷺ) لم يغضب بنفسه وإنما أُغْضِب، أي:حُمِل على الغضب، حيث كانوا سببا في إثارة غضبه، بما

(١) عمدة القاري: ٣/ ٩٥.

(٢) لسان العرب: حصب.

صنعوه من رفع أصواتهم وحصب بابه مما لا يتناسب مع مقتضيات الأدب مع النبي (ﷺ).

وربما كان سبب غضبه هو إلحاحهم بهذا الصنيع على خروجه (ﷺ) ليصلي بهم، فخشى أن تفرض تلك الصلاة عليهم، فيشق ذلك على نفوسهم، وقد صرحت رواية أخرى بذلك " **ما زال بكم الذي رأيت من صنيعكم حتى خشيت أن يكتب عليكم، ولو كتب عليكم ما قمتم به** " (١).

ثم يكشف سيدنا زيد عن بيانه (ﷺ) بفعل القول مصدرا بالفاء (فقال) والفاء حين تدخل عليه مما " يجعل الكلام مرتبا بعضه على بعض، وليس متولدا بعضه من بعض، كما لو كان بدونها " (٢)، وهذا الترتيب يحمل في طياته معنى السببية، وكأن ما بعد فعل القول كان مسببا عما قبله من إثارتهم لغضبه (ﷺ) لمَّا بدا منهم الحرص الشديد على خروجه ليصلوا بصلاته كما اعتادوا.

وأول ما نلحظ في بيانه (ﷺ) أنه ربط بين صنيعهم وما خشيه عليهم بدقة واضحة، مؤثرا في بدئه التعبير بفعلٍ ذي خصوصية معينة، وهي الدلالة على الزمن دون الحدث (ما زال) وهذه الصيغة تدل مع معموليها على اتصاف اسمها بمعنى الخبر اتصافا مستمرا دون انقطاع، وربما يكون مستمرا إلى وقت الكلام ثم ينقطع بعد ذلك بوقت طويل أو قصير حسب السياق أو المعنى (٣).

وسياق الحديث مع المعنى الثاني، أي ما زلتم متصفين بالحرص على الصلاة بصلاتي حتى انقطعتُ عن الخروج إليكم، لمَّا ظننت أنها ستُكتَبُ عليكم، وتقديم الخبر (بكم) مما يتضامن مع شدة اهتمامهم وحرصهم على الصلاة خلف النبي، والباء فيه للملابسة، أي: ما زلتم ملابسين لهذا الأمر.

---

(١) صحيح البخاري، كِتَابُ: أَخْبَارِ الآحَادِ، بَابُ: مَا يُكْرَهُ مِنْ كَثْرَةِ السُّؤَالِ وَتَكَلُّفِ مَا لاَ يَعْنِيهِ، رقم: (٧٢٩٠).

(٢) دلالات التراكيب: ٣١٤.

(٣) ينظر: حاشية الصبان على شرح الأشموني: ١/ ٣٥٩، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، المكتبة التوفيقية – ط: أولى – بدون، وينظر: معاني النحو، د/ فاضل صالح السامرائي: ١/ ٢٢٢، ط: دار الفكر – الرابعة – ٢٠٠٩ م – ١٤٣٠ هـ.

ووصف فعلهم بلفظ (صنيع) بصيغة المبالغة مع إضافته إلى ضميرهم، مما يعني أن فعلهم في حد ذاته أمر مستحسن عند رسول الله (ﷺ)، ولكنه خشى أن يفرض عليهم لو استمروا على ذلك يقول الراغب: " الصُّنْعُ: إجادةُ الفعل، فكلّ صُنْعٍ فِعْلٌ، وليس كلّ فعل صُنْعاً،.... والصَّنِيعَةُ: ما اصْطَنَعْتُهُ من خيرٍ، وفرسٌ صَنِيعٌ: أُحْسِنَ القيامُ عليه. وعبّر عن الأمكنة الشّريفة بِالْمَصَانِعِ " [(١)]، فالكلمة يدور معناها حول الحسن والإجادة.

ويكمل النبي (ﷺ) المعنى ويحيط به مفصلا بالتعبير بحرف الغاية (حتى ظننت أنه سيكتب عليكم) أي: (لو واظبت على إقامتها بالجماعة لفرضت عليكم) [(٢)]فحرف الغاية في هذا السياق هو النافذة إلى جلب ما يسبب لهم العنت ؛ لأنها لو فرضت عليهم لم يقوموا، فيعاقبوا على ذلك.

كما آثر بيانه (ﷺ) التعبير بفعل الظن متبوعا بـ (أن) المشددة ؛ تنبيها على أن فرضية تلك الصلاة قاربت أن تكون حقيقة وواقعة بالفعل، ولكنها لم تفرض، رحمة ويسرا بهم.

والتعبير بالفعل (سيكتب) فيه إلزام ومشقة، يقول الراغب: " ويعبر عن الإثبات والتقدير والإيجاب والفرض والعزم بالكتابة " [(٣)]، والسين في بدئه لتخليص الفعل المضارع للمستقبل، والتأكيد على تحقق الخبر [(٤)].

وبناء هذا الفعل لما لم يسم فاعله لتعين الفاعل، وهو الله وحده ؛ إذ لا مصدر لفرضية هذه الصلاة إلا من جانبه – سبحانه –، يضاف إلى ذلك ما أفاده من التركيز على الحدث وتسليط الضوء عليه ووضعه في بؤرة وعيهم، حتى يدركوا أن ما أراده الله من عدم فرضية تلك الصلاة هو خير لهم وأيسر، ولذا أتبعه بمتعلقه (عليكم) وفيه إلزام ومشقة لهم، وذلك لما ينبئ به التعبير بالحرف (على) من تحميل مجروره أثقالا حسية ومعنوية، وقد خفف الله عنهم هذا.

---

(١) المفردات: ٢٩٠ بتصرف.

(٢) مرقاة المفاتيح: ٤/ ٣١٢.

(٣) المفردات: ٤٢٥.

(٤) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٢/ ٤٣٣.

وتتجلى بلاغة الحذف في بيانه(ﷺ) في موضعين، فقوله: (حتى ظننت أنه سيكتب عليكم) يؤكد أن عقبه شيء محذوف تقديره: ولكنه لم يكتب، وهذا الحذف فضلا عما فيه من تصفية للعبارة ونفي للفضول عنها، فيه ما يجسد قلق النبي (ﷺ) من فرضية تلك الصلاة عليهم، ولذا بادرهم بما يخرجهم من تلك المشقة، مع تحقيق ما يحصل لهم الأجر والثواب والخير والنفع بقوله: (فعليكم...).

الموضع الثاني: حذف فعل الشرط الذي أنبأت عنه الفاء الفصيحة الواقعة في جواب الشرط، والتقدير: إذا علمتم ذلك فعليكم، وفي هذا الحذف توفير للكلام على الغرض المقصود منه، وسرعة لفت لانتباههم، وإثارة لاهتمامهم لتقرير هذا الحكم الجديد في نفوسهم.

ومعلوم أن اللفظ متى قلَّ ودق كان الانتباه إليه أقوى وأشد ؛ لأن" العبارة كلما كانت أجزاؤها أبسط تركيبا، وأتقن ترتيبا، وصادفت موضعها، وطابقت حال سامعها، أدت فاعليتها في نفس السامعين، ووصلت إلى المقصود منها " [(١)].

كما يتجلى صوت الجناس اللافت في قوله (ﷺ): (عليكم فعليكم)، فاللفظتان وإن كانت هيئتهما واحدة، إلا أنهما يختلفان في المعنى، فالأولى مكونة من الجار والمجرور وهو متعلق الفعل (سيكتب) والثانية اسم فعل أمر بمعنى: الزموا، وذلك أن أصله أن يقال: عليك أن تفعل كذا [(٢)].

وتبدو بلاغة هذا الجناس في إيقاظ النفس إيقاظا يأخذ بلب السامعين ويأسر ذهن المتلقين، وهذا أدعى إلى أن يبادروا ويستجيبوا لهذا الحكم الجديد.

وقد صاغ النبي (ﷺ) هذا الحكم في قالب تعبيري يؤذن بوجوب الامتثال من خلال صيغة الأمر والتي صورته استعمال اسم فعل الأمر (عليكم) بما فيه من حث

(١) الاستعارة نشأتها وتطورها وأثرها في الأساليب العربية، د/ محمود السيد شيخون: ١١٠، مكتبة الكليات الأزهرية، ط ٢ – ١٩٨٠ م.
(٢) ينظر: تفسير التحرير والتنوير: ٧/ ٧٦.

وإغراء، مما يرسخ هذا الحكم في نفوسهم، ويمكن له في قلوبهم ويدعوهم إلى الاستجابة الفورية لامتثاله.

والباء في (بالصلاة) للملابسة، أي: عليكم التلبس بالصلاة في بيوتكم، وفيها إيحاء بمعنى النفع وحصول الأجر.

و(أل) في (الصلاة) للعهد الذهني ؛ وذلك لأن سبب ورود الحديث يدل على أن المراد بها صلاة التراويح، ولذلك عنون له صاحب مرقاة المفاتيح بقوله: (باب قيام شهر رمضان) [(١)]، وقال في تعليقه على هذا الحديث: " وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن صلاة رمضان أي التراويح في المسجد أفضل، وهذا يخالف هذا الحديث؛ لأن مورده صلاة رمضان. وأجيب عنهم بأن رسول الله (ﷺ) قال ذلك لخشية الافتراض، فإذا زالت الخشية بوفاته (ﷺ) ارتفعت العلة المانعة، وصار أداءها في المسجد أفضل، كما أداها (ﷺ) في المسجد عدة ليال، ثم أجراها عمر بن الخطاب واستمر عليها عمل المسلمين إلى يومنا هذا؛ لأنه من الشعائر الظاهرة للإسلام فأشبه صلاة العيد " [(٢)].

وهذا يعني أن سبب وروده وإن كان في شأن صلاة التراويح إلا أن ذلك كان من أجل علة خاصة زالت بوفاة الرسول (ﷺ) ثم أصبح الحكم عاما ليشمل جميع النوافل " أي النوافل التي لم تشرع فيها الجماعة والتي لا تخص المسجد " [(٣)].

ومع تغير الزمن وما صنعه الصحابة – رضوان الله عليهم – بدءا من عمر غُيِّر هذا الحكم الخاص بصلاة التراويح – والتي كانت سببا في ورود الحديث – وجُعلت داخلة فيما يستحب أداؤه في المسجد، ولذلك يقول الإمام النووي – رحمه الله –: " هذا عام في جميع النوافل المرتبة مع الفرائض والمطلقة إلا في النوافل التي هي من شعائر الإسلام، وهي العيد والكسوف والاستسقاء، وكذا التراويح على الأصح فإنها مشروعة في المسجد " [(٤)].

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: (٤/ ٣١٠).
(٢) السابق: (٤/ ٣١٤)
(٣) السابق الصفحة نفسها.
(٤)شرح النووي على مسلم (٦/ ٧٠).

وهذا يعني: أن تغير الزمن والوقائع واختلاف الأحكام له أثره في تحديد دلالة (أل) في لفظ (الصلاة) في الحديث، فهي في سياق ورود الحديث للعهد الذهني، إذ يراد بها صلاة التراويح أما إذا أخذنا بعموم اللفظ ولم نتقيد بخصوص السبب وراعينا تغير الحكم فأل فيه للجنس، أي جنس صلاة النافلة التي يستحب أداؤها في البيت، وتكون صلاة التراويح خارجة منها.

وتقديم المتعلق (بالصلاة) على القيد الواقع حالا (في بيوتكم) ؛ لأنه محور الكلام ومقصد الاهتمام، فمن أجل الصلاة كان خروجهم يتتبعون النبي (ﷺ) ومن أجلها خشى النبي (ﷺ) من فرضيتها عليهم، وهذا يتفق مع سنن العرب في كلامهم من أنهم " يقدمون الذي بيانه أهم لهم، وهم ببيانه أَعْنى، وإِن كانا جميعاً يُهِمَّانِهم ويَعْنيانِهم" [(١)].

ومجيء أسلوب الكلام على طريقة الخطاب في قوله (ﷺ): (في بيوتكم)دون: (في البيوت)، إحضارا وشهودا لحال الكلام وبعثا على الاستماع له بالإقبال عليه وإعطائه فضل عناية، وإنما يفعل ذلك حفاوة بالمعنى، وحثا على الاستجابة لمضمونه ومغزاه.

ولذلك نرى النبي الكريم يتبع ذلك الحكم الجديد بعلته: " فإن خير صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة ".

والفاء بما فيها من معاني السببية والترتيب والتعقيب مما يستنفر الهمم، ويحث النفوس على الاستجابة الفورية لما بعدها، وجاء توكيد تلك الجملة بـ (إن) تقوية لمضمونها في النفوس، وتأكيدا لتلك الخيرية للصلاة في البيت إذا كانت على سبيل النافلة.

وقد زادها تأكيدا دخول (إن) على الجملة الاسمية مما دل على ثبوت ودوام تلك الخيرية، وأن هذا الحكم ليس قاصرا على تلك الصلاة التي كانت سببا في ورود الحديث، بل هي خيرية ثابتة لها لا تتغير ولا تتبدل، فهي تشريع للأمة في كل الأزمنة.

(١) دلائل الإعجاز: ١٠٧.

والتعبير بحرف الظرفية (في) دون حرف الملامسة (فإن خير صلاة المرء ببيته) فيه إشعار بحلول الخيرية والبركة في جنبات البيت كله، وأنها تحيطه وتشتمل عليه اشتمال الوعاء للموعى به، ولاشك أن ذلك داع إلى الاستجابة والإكثار من صلاة النوافل في البيت، قال الإمام النووي: " إنما حث على النافلة في البيت ؛ لكونه أخفى وأبعد عن الرياء، ولتبرك البيت بذلك فتتنزل فيه الرحمة، وينفر منه الشيطان " (١).

كما نلحظ ظاهرة العدول الأسلوبي في صياغة النبي الكريم لتلك العبارة في أكثر من موطن ومنها:

١- التعبير بالاسم الظاهر (في بيته) و كان مقتضى الظاهر أن يقال: فإن خير صلاة المرء فيها، وذلك لسبق التعبير بلفظ (بيوتكم)، وفي هذا العدول اهتمام بالمعنى وتأكيد وتقرير له في النفوس، وما ذاك إلا لأن " قدرا كبيرا من التأثير يظل الاسم الظاهر محتفظا به، ولا يستطيع الضمير حملها نيابة عنه؛ لأنها تتولد حين يقرع اللفظ السمع بجرسه، وارتباطاته المختلفة جد الاختلاف، والتي اكتسبها في قصته الطويلة مع الكلمات والأحداث والمواقف " (٢).

٢- كما خالف النبي (ﷺ) في التعبير بين صيغ الإفراد والجمع، فعبر بصيغة الإفراد (في بيته) بينما جاء التعبير بصيغة الجمع، في جملة (فعليكم بالصلاة في بيوتكم) وقد جاء التعبير بهما في غاية المناسبة للسياق، فصيغة الجمع تتناسب مع الحث الجماعي لتغيير السلوك الذي بدا من هؤلاء الرجال الذين تتبعوا رسول الله (ﷺ) ليصلوا خلفه، وصيغة الإفراد تتناسب مع الغالب في أداء صلاة النافلة في البيت، كما أن التعبير بها داعي الاستجابة والامتثال، وذلك لما يحرص عليه كل مؤمن من حلول الخيرية والبركة في بيته.

٣- كما نلحظ أن النبي (ﷺ) التفت من أسلوب الخطاب الذى سرى عليه نسق الحديث منذ بدء بيانه، وذلك في قوله: (بكم - صنيعكم - عليكم - فعليكم - بيوتكم) إلى أسلوب الغيبة في قوله: (فإن خير صلاة المرء) ولو سار على نفس نسق سابقه لقيل: (فإن خير صلاتكم في بيوتكم)، وترجع بلاغة هذا الالتفات إلى لطائف، منها:

---

(١) مرقاة المفاتيح: ٤/ ٣١٢، وينظر: شرح أبي داود للعيني: ٥/ ٣٦١.

(٢) خصائص التراكيب دارسة تحليلية لمسائل علم المعاني: ٢٤٨.

أ – أن الالتفات إلى الغيبة قد هيَّأ ومكَّن من التعبير بالاسم المفرد (صلاة المرء)، وفي هذا إشاعة لعموم المعنى، دون قصره على تلك الحادثة الآنية.

ب- كما أن هذا الالتفات فيه تطرية للأسلوب، وإثارة للقلوب، وتنشيط للأذهان، واستدرار للأسماع إلى مقطع مهم من مقاطع المعنى، وهذا مما يتناسب مع شديد حرصه (ﷺ) على غرس هذا المعنى (خيرية صلاة النافلة في البيت) في النفوس.

جـ – كما كان من ثمار هذا الالتفات: التمكين من التعبير بلفظ (المرء) بأل الجنسية الدالة على العموم ليشمل الحكمُ الرجلَ والمرأةَ على السواء ؛ إذ النساء مطالبات بفروع الشريعة وأصولها كالرجال.

د – كما أن التعبير بلفظ (المرء) بما يبثه من معاني المروءة وأدب النفس مما يتناسب مع الخيرية التي يظهر أثرها في البيت الذي يحرص أهله على الإكثار من النوافل فيه، يقول أبو هلال العسكري في معرض تفريقه بين لفظي (الرجل والمرء):" أن قولنا رجل يفيد القوة على الأعمال،ولهذا يقال في مدح الإنسان إنه رجل، والمرء يفيد أنه أدب النفس، ولهذا يقال المروءة أدب مخصوص "[1].

ثم يحدد النبي (ﷺ) المعنى بدقة واضحة، ويحيط به من جميع جوانبه، ويستقصي كل أحواله، فيختتم بيانه بجملة الاستثناء (إلا الصلاة المكتوبة) وهو استثناء تام متصل، فالصلاة منصوبة على الاستثناء من اسم (إن) (خير)، وهو استثناء يحدد المعنى، وهو أشبه بالاحتراس، إذ لو أطلق النبي (ﷺ) بيانه بدونه لربما خُيِّل إلى بعض الناس أن تلك الخيرية ثابتة للصلاة في البيت على سبيل العموم، فجاء هذا الاستثناء ليدفع هذا التوهم.

واستثناء (الصلاة المكتوبة) من (خير الصلاة) مما يعني أنهما مشتركان في الخيرية، فصلاة النافلة في البيت خير من المكتوبة، والصلاة في المسجد بالنسبة للمكتوبات خير من أدائها في البيت، وهذا يعني أن الأفضلية والخيرية ثابتة لكل منهما، ولكل منهما مقامه ومكانه.

---

(١) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري د/ محمد أبو موسى: ٣١٠، منشورات: محمد على بيضون، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط أولى – ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠ م.

المقام الثامن: غضبه (ﷺ) في مقام رؤيته للنخامة في جدار القبلة

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ النَّبِيَّ (ﷺ) رَأَى نُخَامَةً فِي القِبْلَةِ، فَشق ?لك عليه حتى ?ئي في ?جهه، فَقَامَ فَحَكَّهُ بِيَدِهِ، فَقَالَ: « إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ فِي صَلاَتِهِ فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ، أَوْ إِنَّ رَبَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ القِبْلَةِ، فَلاَ يَبْزُقَنَّ أَحَدُكُمْ قِبَلَ قِبْلَتِهِ، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ أَوْ تَحْتَ قَدَمَيْهِ» ثُمَّ أَخَذَ طَرَفَ رِدَائِهِ، فَبَصَقَ فِيهِ ثُمَّ رَدَّ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ، فَقَالَ: «أَوْ يَفْعَلُ هَكَذَا»(١)

إن المساجد هي بيوت الله في الأرض، وهي البقاع المقدسة، والأماكن الطاهرة، فلا يجوز أن يفعل بها ما يتنافى مع قدسيتها وطهارتها، وغير خاف أن البصاق – عموما – شيء قبيح المنظر، تشمئز منه النفوس، وهو في بيوت الله أشد قبحا وتقززا.

وذات يوم يرى نبينا الكريم نخامة في جدار القبلة، فيشق ذلك عليه حتى رئي في وجهه، ومن حكمته كمعلم للإنسانية أن ينتهز الفرص، ويختار الظرف المناسب للتوجيه والإرشاد فقال: إن أحدكم إذا قام... الحديث.

وسيدنا أنس بن مالك هو الذي يحكي لنا مقام الحديث، ويصور هيئة النبي(ﷺ) في دقة بالغة، وينبئنا بتصرفه تجاه هذا الأمر الذي يخرج عن حدود آداب المسجد وينافي عظمتها وقدسيتها.

فقوله: (رأى نخامة في القبلة) جار على سبيل حذف المضاف، أي: رأى نخامة في جدار القبلة، وذلك على سبيل الإيجاز في تصوير المشهد، وحذف فضول الكلام، وللتأكيد على أن الجهة التي تشتمل على القبلة لا تقل عظمة وقدسية عن القبلة نفسها.

وقوله: (فشق ?لك عليه حتى ?ئي في ?جهه) كناية عن شدة تأثره، مما ينبئ عن رفضه القاطع لمثل هذا الأمر.

ولكن النبي الكريم لم يكن ليقف عند حدود التأثر النفسي، بل نراه يتصرف عمليا، فيقوم بنفسه ليزيل أثر هذا الفعل المرفوض، يقول أنس: (فقام فحكه بيده فقال)، وقد

(١) صحيح البخاري، كِتَابُ الصَّلاَةِ،بَابُ: حَكِّ البُزَاقِ بِاليَدِ مِنَ المَسْجِدِ، رقم: (٤٠٥).

اشتملت تلك العبارة على ثلاثة أفعال معطوفة على بعضها بالفاء التي تنبئ عن شدة الرفض لهذا الفعل وسرعة الرغبة في إزالته والتحذير منه.

وقوله: (فحكها بيده) أي: " تولى ذلك بنفسه، لا أنه باشر النخامة بيده الشريفة، والوارد أنه فعلها مرة بحصاة ومرة بعرجون [1] " [2].

ثم جاء بيانه (ﷺ) القولي: (إن أحدكم..) بعد بيانه الفعلي (فحكه بيده) مما يؤكد أن النبي (ﷺ) لم يكن دوره ليقتصر على التوجيه والرفض فحسب بل يشارك عمليا في إزالة المنكر ومحوه.

وقد استهل (ﷺ) بيانه بأم أدوات التأكيد، واسمية الجملة، مما يشكل مطلعا قويا واستفتاحا ملفتا، بهما يتمكن المعنى الذي يقصده في النفوس، ويقوي الدافع على القبول والامتثال، حرصا منه (ﷺ) على تأكيد رفضه هذا السلوك المذموم الذي ترفضه الفطرة الإنسانية بصفائها وتنفر منه الطبيعة البشرية بعمومها، وتشمئز منه النفوس سواء في بيوت الله أو في غيرها.

فهذا الاستهلال بالتأكيد له أثره البالغ في جذب النفوس واستمالتها إلى الاستماع بحرص بالغ ووعي كامل، ولعل هذا هو سر بدئه (ﷺ) لبيانه به، دون أن يلج إلى المعنى المراد مباشرة فيقول: (إذا قام أحدكم في صلاته فإنه...).

كما جاء التعبير بلفظ (أحدكم) دون غيره، لما فيه من الدلالة على التعميم، مبالغة في الزجر عن الفعل ؛ لأن التحذير كلما كان عاما كان أوقع في النفس، وأشد زجرا لها من ارتكاب الفعل المحذر منه، هذا فضلا عما يوحيه هذا التعميم من وجوب إشاعة الأمر والتزام النهي عنه، حرصا على بيوت الله من أن يشوبها ما ينافي قدسيتها وعظمتها، أو يؤذي روادها بأي نوع من الإيذاء.

---

(١) العرجون: العود الأصفر الذي فيه الشماريخ إذا يبس اعوج. لسان العرب: عرجن.
(٢) سنن أبي داود، كِتَاب الصَّلَاةِ، بابٌ فِي كَرَاهِيَةِ الْبُزَاقِ فِي الْمَسْجِدِ، رقم: ٤٨٥.

ثم يتبع النبي (ﷺ) هذا التأكيد الذي أثار النفوس وهيأها للاستماع والإنصات بأسلوب الشرط مما زادها تشوقا إلى معرفة الجواب المترتب عليه، وجعل المتلقي أكثر تطلعا إلى تمام المعنى وترقبا إلى الحكم الذي سيَصْدرُ على هذا الشرط ممثَّلا في جوابه.

وقد جاء التقييد بأداة الشرط (إذا) والتي تفيد القطع بوقوع الفعل، وذلك مما يتناسب مع طبيعة الصلاة، إذ هي الفريضة الوحيدة التي تتكرر كل يوم على مدار العمر كله، سواء ما كان منها فرضا أو نفلا.

كما أن التقييد بها مما يتناسب مع القطع بوقوع جواب الشرط، فما من عبدٍ أقبل على ربه مصليا إلا وهو في مناجاة معه – جل في علاه –، ولذا جاء فعل الشرط ماضيا (قام) لدلالته على الحصول والوقوع قطعا، والتعبير به دون (إن أحدكم إذا كان في صلاته) لما فيه من معنى الحرص والعناية والتأهب والاستعداد والنهوض والنشاط، يقول الراغب: " وإقامةُ الشيء: توفيتُه حقه " [1]، ولاشك أن هذه المعاني مما تتناسب وتتناغم مع مضمون جواب الشرط (يناجي ربه).

وقوله (في صلاته) قيد مهم يكتمل به المعنى في فعل الشرط، ليُعْلِن بأن البزاق أو التنخم مما يتنافى مع ما تتطلبه الصلاة من حضور القلب وخشوعه، وتفرغه للذكر والتدبر، وكان التعبير بحرف الظرفية (في) مع إضافة الصلاة لضمير الغيبة، مما يتناغم مع الخشوع المطلوب في الصلاة، إعلانا بأن المسلم الذي يقبل على ربه في صلاته، مؤديا لها في خشوع واطمئنان لا يمكن أن يصدر عنه مثل هذا الأمر المقزز تجاه القبلة وهو في معية ربه – سبحانه –.

وبعد أن أثارت جملة الشرط شغف المتلقي وجعلته يستشرف إلى الجواب جاء بيانه (ﷺ) (فإنه يناجي ربه) مقترنا برباط محكم قوي (الفاء) والتي تربط بين أجزاء المعنى وتوثق عراه، وذلك لأن الجواب لا يصلح أن يكون شرطا لكونه جملة اسمية، وهذه الفاء تفيد الترتيب والتعقيب إيذانا بفضل الله وكرمه على عبده إذا رغب في مناجاته – سبحانه – وأنه لا يخيِّب أبدا رجاء من يقرع بابه، وقد جاءت هذه الجملة مؤكدة بـ

(١) المفردات: ٤١٨.

(إن)، واسمية الجملة، ليكون العبد على ثقة تامة بإقبال الله عليه إذا تهيأ لملاقاته والوقوف بين يديه، فهذا التعليل مما يدعو العبد إلى التعظيم والتبجيل والحرص على حرمة المسجد، وبالأخص قبلته ؛ لأن " من أعظم الجفاء وسوء الأدب أن تتوجه إلى رب الأرباب وملك الملوك فتتنخم في توجهك، وقد أعلمنا الله – تعالى – بإقباله على من توجه إليه ومراعاته لحركاته "[1].

وقوله: (يناجي ربه): " إشارة إلى إخلاص القلب وحضوره وتفريغه لذكر الله وتمجيده وتلاوة كتابه وتدبره " [2] فهي عبارة سخية عذبة ؛ لأن الصلاة هي السبيل إلى استرواح النفس واطمئنان القلب وانشراح الصدر ومن أعظم أسباب تزكية النفس وتقوية الإيمان، ولن ينال العبد ذلك إلا بامتنان الله عليه وتفضله بالإقبال عليه، فمن سوء الأدب أن يتنخم تجاه ملك الملوك – جل في علاه – يقول (ﷺ): " ***مَا بَالُ أَحَدِكُمْ يَقُومُ مُسْتَقْبِلَ رَبِهِ فَيَتَنَخَّعُ أَمَامَهُ، أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يُسْتَقْبَلَ فَيُتَنَخَّعَ فِي وَجْهِهِ***؟ " [3]،وذلك مما يضفي على هذا الفعل مزيدا من التقبيح، ويصعد من درجات الإنكار والوعيد.

والتعبير بصيغة المضارعة من شأنه أن يستحضر تلك النعمة على العبد، ليكون ذلك أدعى إلى إقلاعه واجتنابه لهذا الفعل ؛ لأن المناجاة فيها تودد وألفة ومحبة وخشوع ووجل وذكر، وتلك كلها أفضال ونعم، وكان التعبير بلفظ (ربه) مع إضافته لضمير الغيبة آنس بالسياق والمقام، لما فيه من معني الرعاية والولاية وذوب الذات قربا وأنسا ووجدانا.

---

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال: ٢/ ٦٨، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد – السعودية، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣ م.

(٢) التوضيح لشرح الجامع الصحيح لابن الملقن:(٥/ ٤١٨) تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الناشر: دار النوادر، دمشق – سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م.

(٣) صحيح مسلم: كتاب الصلاة، بَابُ النَّهْيِ عَنِ الْبُصَاقِ فِي الْمَسْجِدِ فِي الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا، رقم: ٥٥٠.

ولكن السؤال: إذا كانت المناجاة حقيقة من قِبَل العبد، فكيف هي من جهة الله ؟ قيل: المراد بها " لازم ذلك فيكون مجازا، والمعنى: إقباله عليه بالرحمة والرضوان " (١).

وعلى هذا: ففي التعبير استعارة تمثيلية، حيث شُبِّهت هيئة إقبال الله على عبده بالرحمة والرضوان وهو في صلاته، بهيئة من يناجي أحدا حقيقة، ثم استعيرت هيئة المشبه به لهيئة المشبه، وذلك على سبيل الاستعارة التمثيلية، وهي صورة حسية تبرز قرب الله من عبده وعظيم تفضله عليه، وهو بين يديه في الصلاة.

وقوله: " أو إن ربه بينه وبين القبلة "، قال الخطابي: " معناه أن توجهه إلى القبلة مفض بالقصد منه إلى ربه، فصار في التقدير كأن مقصوده بينه وبين القبلة " (٢).

وقال الكرماني: " معناه التشبيه على سبيل التنزيه، أي كأن الله – تعالى – في مقابل وجهه " (٣).

والذي أميل إليه أن المراد من هذا التعبير تعظيم جهة القبلة ؛ لأن الله منزه عن المكان، فسبحانه محيط بكل شيء علما.

وهذا التعظيم لجهة القبلة من شأنه أن يقلع العبد عن البزاق جهتها، لأنه استخفاف لمن يبزق إليه، بل وتحقير له، وهو فعل لا يليق بمقام المناجاة مع الله، ويتنافي مع ما يقصده العبد في مناجاته، من كون مقصوده بينه وبين القبلة.

والفاء في (فلا يبزقن...) هي الفاء الفصيحة، حيث أفصحت عن شرط مقدر، أي: إذا كان ربه بينه وبين القبلة، أو: إذا علم ذلك فلا يبزقن أحدكم قبل قبلته، وقد أدى هذا الحذف دوره في الكشف عن رفضه (ﷺ) هذا السلوك المذموم، فجاءت عبارته مختصرة بعيدة عن الفضول والزيادة، تركيزا على النهي الواقع عقب الفاء الفصيحة.

---

(١) فتح الباري لابن حجر: ١/ ٥٠٨.

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: ٢/ ٤٥٩.

(٣) عمدة القاري شرح صحيح البخاري: ٢٢/ ١٦١.

والتعبير بالفاء الفصيحة بلمحتها الخاطفة – في هذا السياق – مما يجسد ضرورة المبادرة إلى تحصيل المطلوب وفورية الإقلاع عما نهي عنه.

حيث جاء النهي عقب ما يدعو إلى الإقلاع، ويحث على احترام القبلة وتعظيمها ؛ لأن تذكير المصلي بأن ربه بينه وبين القبلة من أكبر الدواعي إلى البعد عن هذا الفعل المنهي عنه وعدم ارتكابه بأي حال من الأحوال.

ولعل هذا هو السر في ترتُّب جملة النهي على جملة الشرط في الحديث، فلم يكن النظم: (إذا كان أحدكم في صلاته فلا يبزقن قبل قبلته فإن ربه بينه وبين قبلته) – مثلا – فتقدَّم في النظم ما يُنَفِّرُ من الفعل.

والتعبير بـ (لا) الناهية وما فيها من امتداد الصوت وإطالة النطق وإشباع المد كأنه صيحة تحذير مدوية، وقد جاء النهي بها مسلطا على الفعل المضارع (يبزق) إشارة إلى استمرار النهي في الحاضر والمستقبل ودوامه في كل حين، وإعلانا قاطعا عن رفض هذا السلوك، وتحذيرا من ارتكابه تحت أي علة كانت.

وقد ناسب ذلك اقتران الفعل المنهي عنه بنون التوكيد الثقيلة إلحاحا في الطلب وقوة في الحث على النهي عن الفعل ؛ وذلك لأن " النون المشددة أبلغ في التأكيد من المخففة ؛ لأن تكرير النون بمنزلة تكرير التأكيد " [(١)]، فالنون " إذا كانت خفيفة كانت بمنزلة تأكيد الفعل مرتين أو شديدة فبمنزلة تأكيده ثلاثا " [(٢)].

وهذا التأكيد من شأنه أن يشير إلى أن الفعل بلغ حدا بالغا في الذم والرفض، وأنه مخالف للشريعة وآداب وحرمة المسجد، بل والفطرة الإنسانية بصفائها ونقائها، وما تنشدُه من نشر قيم الذوق والجمال.

(١) شرح المفصل لابن يعيش: ٥/ ١٦٣، إدارة الطباعة المنيرية – مصر – بدون.
(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي: ٤/ ٤٣٠.

وإعادة التعبير بالمسند إليه (أحدكم) في جملة النهي من أجل الإقبال على المخاطب والاقتراب منه والالتفات إليه، والتخصيص لكل فرد بالمواجهة والإرشاد، مما يعين على استمالته واستجابته لما طلب منه.

ولكن السؤال: هل هذا النهي خاص بحائط القبلة، ولا يمتد ليشمل بقية أركان المسجد وأجزائه كلها ؟

أقول: إذا كانت هذه الرواية خصصت النهي بحائط القبلة، فالبيان النبوي عموما قد نهى عن هذا الفعل في المسجد كله ونفَّر منه، مع اختلاف علة النهي، فعلة النهي بحرمة التنخم تجاه القبلة أن مقصود العبد بينه وبين قبلته، ولذا كان الواجب أن تصانَ تلك الجهة عن البزاق الذي هو استخفاف من جهة العبد.

بل إن الحافظ ابن حجر – رحمه الله – وسَّع دائرة تحريم البصق في القبلة، سواء كان الباصق داخل المسجد أو خارجه، فقال: " والتعليل بأن ربه بينه وبين القبلة يدل على أن البزاق في القبلة حرام، سواء كانت في المسجد أم لا، ولاسيما من المصلي " [(١)].

أما علة التحريم للبصق في بقية أركان المسجد، ففوق ما في ذلك من أنه فعلٌ يتنافي مع آداب المسجد وتعظيمه، ففيه ما يبرز حرص الإسلام على عدم إيذاء المسلم لأخيه المسلم ؛ لأن البصاق قبيح المنظر تشمئز منه النفوس، وربما أصاب المؤمن في جلده أو ثوبه فآذاه، ومن ثم نهى الرسول الكريم عنه – عموما – في المسجد، وأمر بإزالته إذا وقع، يقول النبي (ﷺ): " **إِذَا تَنَخَّمَ أَحَدُكُمْ فِي الْمَسْجِدِ، فَلْيُغَيِّبْ نُخَامَتَهُ، أَنْ تُصِيبَ جِلْدَ مُؤْمِنٍ أَوْ ثَوْبَهُ فَتُؤْذِيَهُ** " [(٢)]، كما أخبر (ﷺ) أن البزاق في المسجد خطيئة، وكفارة ذلك دفنها، فعن أنس بن مالك (ﷺ) قال: قال النبي (ﷺ): " **البزاق في المسجد خطيئة وكفارتها دفنها** " [(٣)].

---

(١) كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري، محمَّد الشنقيطي: (٧/ ٧١)، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م

(٢) مسند أحمد بن حنبل، مُسْنَدُ الْعَشَرَةِ الْمُبَشَّرِينَ بِالْجَنَّةِ، مُسْنَدُ أَبِي إِسْحَاقَ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، رقم: ١٤٨١.

(٣) صحيح البخاري: كتاب الصلاة، بَابُ كَفَّارَةِ الْبُزَاقِ فِي الْمَسْجِدِ، رقم: ٤١٥.

وغير ذلك من الآثار الدالة على تعظيم المساجد وتنزيهها خاصة قبلتها عن كل ما يخرج من فضلات الفم، ويدخل فيها ما يخرج من غيره بطريق الأولى، وعن بقية القاذروات الأخرى بطريق الأحرى.

وفي قوله (ﷺ): (قبل قبلته) يبدو جناس الاشتقاق بإيقاعه اللافت وجرسه الواضح، مما يلفت المخاطب ويوقظ نفسه وينبهها إلى حرمة هذا الفعل والتنفير منه وتذكيرها بقدسية القبلة وتعظيمها.

وإذا كانت رواية الحديث – محل الدراسة – أبانت عن علة النهي عن البصق تجاه القبلة، إلا أنها لم تفصح عن علة النهي عن جهة يمين المصلي في قوله (ﷺ): (ولا عن يمينه)، وقد أفصحت عنها رواية لأبي هريرة في قوله (ﷺ): **" إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصق أمامه فإنما يناجي اللّه ما دام في مصلاه، ولا عن يمينه فإن عن يمينه ملكا، وليبصق عن يساره أو تحت قدمه فيدفنها "** (١).

وقد جاء في هذه الرواية تعليل النهي عن البصق أمام المصلي بأسلوب مؤكد بطريق القصر بـ (إنما)، دلالة على أن مناجاة العبد لربه في الصلاة أمر معلوم لاشك فيه ولا نزاع، وهذا أدعى إلى احترام حرمة القبلة والحرص على تعظيمها.

ومجيء التعليل عقب النهي عن البصق جهة اليمين بقوله (ﷺ): (فإن عن يمينه ملكا) مؤكدا بـ (إن) واسمية الجملة أدعى إلى الحرص على الاستجابة والامتثال.

كما أن البصق عن اليسار وإن جاء على إطلاقه فقد قيدته رواية **" إذا صليت فلا تبصق بين يديك ولا عن يمينك وأبصق تلقاء شمالك إن كان فارغا..."** (٢).

والتقييد في هذه الرواية مما يتفق مع ما تنشده الشريعة الإسلامية وتحرص على إشاعته من البعد عما من شأنه أن ينفر الناس ويؤذي مشاعرهم، ومحاربة كل ما يورث الكراهية وتَأَذِّى المسلم من أخيه.

---

(١)صحيح البخاري،كِتَاب الصَّلَاةِ، بَاب دَفْنِ النُّخَامَةِ فِي الْمَسْجِدِ، رقم: ٤٠٢.

(٢) مصنف عبد الرزاق، لأبي بكر عبد الرزاق الصنعاني، كِتَابُ: الصَّلاةِ، بَابُ: النُّخَامَةِ فِي الْمَسْجِدِ، رقم الحديث: ١٦٣٠. تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: المجلس العلمي- الهند، المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣ هـ.

وهكذا تتعدد الروايات في المعنى الواحد ما بين الإطلاق والتقييد، حتى يتضح المعنى المراد ويكتمل المغزى، وتستقصي الأحوال، وتتنوع الفائدة، والمعنى المترتب على كل رواية.

ومن هنا كان تعدد روايات الحديث في المعنى الواحد مظهرا من مظاهر البلاغة النبوية، وطريقا بارزا من طرق الإيجاز في هذا البيان الراقي.

وقوله: (ولكن عند يساره) يكتنفه الحذف من طرفيه، فقد حذف القيدُ منه، وأبانت عنه رواية أخرى " ولكن عن يساره إن كان فارغا "، كما حذف المسند عقب حرف العطف (لكن)، وتقديره: ولكن يبزق عن يساره، وهذا الحذف كان له أثره البيِّن في تصفية العبارة، مما قد يكون ترهيلا لها، فضلا عما في حذف الفعل (يبزق) من الإشارة إلى التنفير عن الفعل بعدم إشاعة ذكره في لبنات نظم الحديث.

ونلحظ في لغة الحديث أن النبي (ﷺ) استوفى جميع الجهات التي يمكن للمصلي أن يبصق فيها وهذا يدخل فيما يسمى في فنون البديع (استيفاء الأقسام) فبدأ بالمنهي عنه (قبل قبلته) و (لا عن يمينه) تلاؤما مع سياق الحديث ومقام غضبه (ﷺ) عندما رأى نخامة في القبلة، ثم ذكر النبي (ﷺ) ما هو مباح بقوله: " ولكن عن يساره...إلخ الحديث ".

وهذا يتفق مع حكمته (ﷺ) وهديه، فإذا ذكر للناس ما هو ممنوع أعقبه بذكر ما هو جائز ومباح، حتى لا تُسَدَّ الأبواب عليهم، مما يشير إلى رفقه بأمته ويسر شريعته.

وعلى هذا: فالتقسيم الذي جاء عليه بيانه (ﷺ) لم يكن شيئا تزَّين به، أو يمكن الاستغناء عنه، بل جاء في غاية المطابقة للمقام والملاءمة لمقتضى الحال.

أما جهة الخلف فلم يذكرها النبي (ﷺ) في بيانه ؛ لأن تلفَّتَ المصلي للخلف مما يفسد الصلاة ذاتها، ومن ثم لا تدخل تلك الجهة في دائرة التحريم أو الإباحة، بل تدخل في دائرة الإبطال للصلاة.

كما ابتدأ النبي (ﷺ) في ذكر ما هو مباح بقوله (ولكن عن يساره) فتمت المطابقة بين جهة اليمين وجهة اليسار، ومن ثم ترابط النظم بعضه ببعض عن طريق علاقة

التضاد، وكان له دوره في جذب الانتباه ولفت الأنظار مما أسهم في تقوية المعنى وتأكيده في النفس.

كما تظهر بلاغة النبوة بتعبيره (ﷺ) بـ (أو) في نظم الحديث، والتي تفيد مجرد العطف، حتى يكون في الأمر متسع يشمل كل الأحوال، دون فرض شيء معين على المصلي، وفي هذا الاتساع تناسب واضح مع تغير الأزمان، فللمصلي أن يبزق عن يساره إن كان فارغا، وله أن يبزق تحت قدمه اليسرى ولكن تلك الإباحة تختلف باختلاف أحوال المساجد، تبعا لاختلاف الأزمنة، ففي زمن النبوة كانت فرشُ المساجد من الرمل والحصى أو ما شابه ذلك، وهذا أمكن للمصلي في دفن النخامة وإزالة أثرها، أما في أزماننا فحال المساجد يختلف حيث أرضيتها تكون عادة من رخام، أو بلاط أو مغطاة بالسجاد ونحو ذلك، مما لا يمكن المصلي من إزالة أثرها بالدفن فله حينئذ أن يلجأ للخيار الثالث الذي أبان عنه (ﷺ) بالتطبيق العملي بقول الراوي للحديث: (ثم أخذ طرف ردائه فبصق فيه... الحديث).

ولذلك يقول ابن حجر: " ولو كان تحت رجله مثلا شيء مبسوط أو نحوه تعين الثوب، ولو فقد الثوب مثلا فلعل بلعه أولى من ارتكاب المنهي عنه " (١).

وقال يحيي النووي: " أَمَّا إِذَا كَانَ الْمَسْجِدُ مُبَلَّطاً أَوْ مُجَصَّصاً، فَدَلَكَهَا عَلَيْهِ بِمَدَاسِهِ أَوْ بِغَيْرِهِ كَمَا يَفْعَلُهُ كَثِيرٌ مِنَ الْجُهَّالِ، فَلَيْسَ ذَلِكَ بِدَفْنٍ، بَلْ زِيَادَةٌ فِي الْخَطِيئَةِ وَتَكْثِيرٌ لِلْقَذَرِ فِي الْمَسْجِدِ" (٢).

وعلى هذا نستطيع القول بأن الوقوف على الروايات المتعددة للحديث في المعنى الواحد والنظر فيما أطلق فيها وما جاء مقيدا، والنظر في أقوال العلماء واستنباطاتهم يجعلنا نقترب من الربط بين السياق المقامي (الخارجي) والسياق المقالي (اللغوي) للحديث، ومما لاشك فيه أن الربط بين هذين النوعين من السياقين حال تناغمهما يعين على فتح طاقات دلالية رحبة ما كانت لتوجد بدون تفقه وتفهم العالم الخارجي الذي

(١) فتح الباري لابن حجر: ١/ ٥١١.

(٢) تطريز رياض الصالحين فيصل النجدي، تحقيق: د/ عبد العزيز آل حمد: ٩٥٤، الناشر: دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.

ينبعث منه النص ويشع، والوعي بهذا الأفق الحضاري (العالم الخارجي) يعد رافدا مهما من روافد فهم المعنى، واستنباطه من تلك البنية اللغوية... ومن ثم كان من الجدير بالعناية في فقه المعنى في بيان النبوة الوعي البالغ بدقائق حركة الحياة زمن الوحي في الجزيرة العربية وما حولها... لأن كثيرا من دقائق ولطائف الهدي في النص لا ينكشف سترها إلا بعمق الخبرة في الواقع المشهود، والإحاطة بكثير من حركة الحياة فيه [1].

وجملة (ثم أخذ طرف ردائه فبصق فيه، ثم رد بعضه على بعض فقال: أو يفعل هكذا) من كلام الراوي، وكان تعبيره بحرف العطف (ثم) في بدئها مما يشير إلى التفاوت الرتبي بين البيان المقالي للنبي (ﷺ) والبيان العملي، وكأن تعبيره بها – بما فيها من تراحب الزمن امتداده – مما يؤذن بأنه بصدد البيان بلون آخر يغاير ما تقدم.

والتعبير بالأفعال الماضية (أخذ – بصق – رد – فعال) مما يتناسب مع حكاية الحال الماضية.

ولعل النبي (ﷺ) عمد إلى البيان الفعلي في هذا الخيار الأخير (البصق في الرداء) دون أن يكون بيانه (أو يأخذ بطرف ردائه فيبصق فيه) ؛لأن البيان بالفعل أوقع في النفس، كما أن طبيعة هذا الخيار مما يقتضي أن يدعم بالبيان الفعلي، وذلك لأنه يتعلق بوضع النخامة بما تحويه من جراثيم وميكروبات في ثوب الإنسان، وقد يخطئ الإنسان في هذا الاستعمال، ومن ثم قام به النبي (ﷺ) عمليا، وعمد إلى طرف ثيابه ؛ لأنه أبعد عن نقل العدوي والميكروبات، كما لا يظهر فيه أثر النخامة – غالبا – مما من شأنه أن يؤثر في المظهر العام للمسلم.

وبعد: فما أعظم هذا الهدي النبوي في حرصه على نظافة أبناء الأمة وطهارة أماكن عبادتهم، مما يؤكد أنه دين الذوق السليم، والإحساس الرفيع، والأخلاق الحسنة، وصدق الشيخ الغزالي – رحمه الله – في قوله: " إن الله ربي محمدا ليربي به العرب، وربى العرب بمحمد ليربي بهم الناس أجمعين " [2].

(١)ينظر: فقه بيان النبوة منهجا وحركة: ١٤ – ١٦.

(٢) الطريق من هنا: الشيخ الغزالي: ١٢٣، ط دار الشروق – بدون.

المقام التاسع: غضبه (ﷺ) في مقام الاختلاف في الكتاب

عَنْ عَبْدَ اللهِ بْنَ عَمْرٍو، قَالَ: هَجرْتُ إلَى رَسُولِ اللهِ (ﷺ) يَوْمًا، قَالَ: فَسَمِعَ أَصْوَاتَ رَجُلَيْنِ اخْتَلَفَا فِي آيَةٍ، فخر? علينا ?سو?? الله (ﷺ)، يعر ? في ?جهه ?الغضب، فَقَالَ: «إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، بِاخْتِلَافِهِمْ فِي الْكِتَابِ»[(١)]

لقد حثنا ديننا الحنيف على الاتحاد، ونهانا عن الفرقة والاختلاف، ودعانا إلى الاعتصام بحبل الله (ﷻ)، وحذرنا من أن نسير على نهج المتفرقين من الأمم السابقة أو أن نقتدي بهم، حيث أعد لهم أسوأ العقاب، جزاء تفرقهم، فقال – جل شأنه – ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخۡتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[(٢)].

وراوي الحديث سيدنا عبد الله بن عمر يحكي لنا سبب وروده، فذات يوم يسمع رجلين قد ارتفعت أصواتهما لاختلافهما في آية من كتاب الله، فيخرج الرسول الكريم: " يعرف في وجهه الغضب) ويقول: (إنما هلك من كان.... الحديث).

والذي يلفت النظر في كلام الراوي وهو يصف هيئة النبي (ﷺ) عند مقام الحديث أنه قدم المتعلق (في وجهه) على نائب الفاعل (الغضب)، مما يؤكد أن الغضب الذي بدا على رسول الله (ﷺ) يدركه كل من يري وجهه، حيث أضحى بينا لكل راء.

ولذلك يعبر بعد ذلك بالفاء في فعل القول: (فقال) عطفا بالفاء، وهي بومضتها السريعة ولمحتها الخاطفة مع ما تحمله من معاني السببية والترتيب والتعقيب تومئ " إلى شدة استدعاء المقام هذا القول، وأن داعيه كان أقوى من أن يحمل المرء على مؤنة الصبر عنه "[(٣)]، فالتعبير بها في غاية المناسبة للمقام، فهي تعني أن النبي (ﷺ) جرى هذا البيان على لسانه وما زال الغضب يعرف في وجهه، مما يؤكد أن الأمر جلل، والتحذير منه

---

(١) صحيح مسلم، كتاب: العلم، باب: النهي عن اتباع متشابه القرآن والتحذير من متبعيه والنهي عن الاختلاف في القرآن، رقم: (٢٦٦٦).

(٢) سورة آل عمران، جزء من الآية: ١٠٥.

(٣) فقه بيان النبوة منهجا وحركة، د/ محمود توفيق سعد: ٣١، مطبعة الأمانة، ط: أولى، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م.

ضرورة ملحة ؛ لأنه لا يتعلق بالاختلاف فحسب – وإن كان مبغوضا ومنهيا عنه – بل يتعلق بأبشع صوره، وهو الاختلاف في آية من كتاب الله.

وفي عبارة موجزة تقرع الأسماع، ونبرة تهديد بالغة ترهب النفوس، يعالج النبي الكريم هذا الأمر البغيض، ويهجم على غرضه من أول الأمر، دون أن يسأل الرجلين عن هذه الآية التي يختلفان فيها أو داعي اختلافهما حولها " واتجاه الكلام نحو مقصوده وما انعقد عليه يورثه جزالة ويوفر انتباه السامع فلا يشغل بغير هذا الغرض "[1].

وقد جاءت عبارته (ﷺ) محددة ودقيقة، تتضمن حكما قاطعا مؤكَّدا بأسلوب القصر الذي طريقه (إنما)، حيث قصر النبي (ﷺ) هلاك الأمم السابقة على اختلافهم في الكتاب، قصر صفة على موصوف، قصرا حقيقيا على سبيل المبالغة، لأن الواقع يشهد بأن هلاك الأمم السابقة، لم يكن مقصورا على هذا السبب، بل تعددت أسبابه وتنوعت دواعيه، كارتكاب الفواحش والموبقات، والزنا واللواط، وتطفيف الكيل، وعدم شكر نعم الله، واستغلالها في المعاصي والآثام، وغير ذلك مما أخبرنا به القرآن ورسولنا الكريم.

ولكن النبي (ﷺ) لم يعتد بكل هذه الأسباب، وقصر هلاك الأمم على الاختلاف في الكتاب ؛ تنبيها على خطورة هذا الاختلاف، وتحذيرا من مغبته وعاقبته.

وإيثار النبي (ﷺ) لتلك الأداة (إنما) مما يتناسب مع المقام تمام المناسبة، وذلك لما هو معلوم من أنها تستعمل في الأمور المعلومة والتي لا تنكر ولا غرابة فيها، وكأن النبي (ﷺ) أراد أن يستثمر تلك الأداة ليُعْلِم هذين المختلفين أن عاقبة هذا الاختلاف معلومة لاشك فيها، ومن المسلمات التي لا خلاف حولها، حتى يكونوا في حذر دائم، وبعد تام، فلا يتكرر هذا الأمر، ويرى تلك الصورة البغيضة بين صفوف الصحابة، أو يقع فيها أحد من أبناء أمته من بعده.

(١) شرح أحاديث من صحيح البخاري: ٣٠٢.

يقول الإمام عبد القاهر – رحمه الله –: " وما يجب أن تجعله على ذكر منك من معاني (إنما) أنها تدخل في الشيء على أن يخيل فيه المتكلم أنه معلوم، ويدعي أنه من الصحة بحيث لا يدفعه دافع "(١).

ولسائل أن يقول: معلوم أن (إنما) أداة هادئة رقيقة ناعمة، والمقام مقام غضب، فكان ذلك يقتضي أن يعبر بالنفي والاستثناء حيث النبرة العالية واللغة القوية، فكيف جاء التعبير بـ (إنما) ؟

وإجابة على ذلك أقول: إن التعبير بتلك الأداة – في ظل هذا المقام – ليس على خلاف مقتضى الظاهر، بل هو في غاية الملاءمة للمقام، ففوق ما أفادته من تأكيد المعنى وتقريره، أفادت معنى زائدا على دلالتها على القصر، وهو التعريض بفساد مسلك هذين الرجلين المختلفين، وأنهما بهذا الصنيع يفتحان بابا من أبواب هلاك الأمة، كما هلكت الأمم السابقة عندما وقعت في براثن الاختلاف في كتابها، ولم تعض عليه بالنواجذ.

وقد بيَّن الإمام عبد القاهر – رحمه الله – القيمة البلاغية لهذا اللون من التعبير – دلالة (إنما) على التعريض – محللا بعض النماذج التي تجذب العقول والقلوب إلى إعجاز القرآن في ملاءمته دائما لأحوال المخاطبين، وما يجب عليهم من تعلقٍ بالفعل أو ترك له، يقول – رحمه الله –: " ثم اعلم أنك إذا استقريت وجدتها أقوى ما تكون وأعلق ما ترى بالقلب إذا كان لا يراد بالكلام بعدها نفس معناه، ولكن التعريض بأمر هو مقتضاه، نحو أنّا نعلم أن ليس الغرض من قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ (٢)، أن يعلم السامعون ظاهر معناه، ولكن أن يذمّ الكفّار، وأن يقال إنهم من فرط العناد ومن غلبة الهوى عليهم، في حكم من ليس بذي عقل، وإنكم إن طمعتم منهم في أن ينظروا ويتذكّروا، كنتم كمن طمع في ذلك من غير أولي الألباب "(٣).

(١) دلائل الإعجاز: ٣٥٧.
(٢) [سورة الرعد، جزء من الآية: ١٩]، و [سورة الزمر، جزء من الآية: ٩].
(٣) دلائل الإعجاز: ٣٥٤.

والفعل (هلك) يوحي بالضياع، والمحو، والفناء، والسقوط، والذهاب بغير رجعة، وقد ذكر الراغب في مفرداته أن الهلاك يأتي على عدة أوجه وهي: افتقاد الشيء عنك وهو عند غيرك موجود، وهلاك الشيء باستحالة وفساد، والموت كقوله – تعالى -: ﴿ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ ﴾ (١) وبطلان الشيء من العالم وعدمه رأسه، وذلك المسمى فناء، المشار إليه بقوله: ﴿ كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ ﴾(٢)، ويقال للعذاب والخوف والفقر الهلاك (٣).

فدلالة الفعل تحمل تحذيرا ترتعد منه القلوب ؛ لأنه يرفع الضوء الأحمر أمامها بأن مصير كل من يختلف في مثل هذا الأمر (الكتاب) مصيره الضياع والهلاك والمحو والاندثار.

والتعبير باسم الموصول العام (من) ليشمل الأمر جميع الأمم على اختلاف لغاتهم وأجناسهم وألوانهم من يوم أن وافتهم السماء بمواكب الهداية الإلهية، ومن ثم انسجم التعبير بـ (من) بدلالتها المطلقة الواسعة لتشمل عموم الأزمنة السابقة، فهي تستعمل للعاقل مذكرا أو مؤنثا، مفردا أو غيره (٤) لكن دلالتها على المفرد من قبيل الحمل على اللفظ وعلى الجمع من قبيل الحمل على المعنى (٥).

وإذا كانت لغة البناء النبوي استثمرت دلالة (مَن) على العموم فنجد النبي (ﷺ) يعمم الخطاب في قوله (قبلكم) دون (قبلكما)؛ تعميما للتحذير، ونشرا لمعناه بين كل أبناء الأمة، حثا لها على نبذ الاختلاف في هذا الأمر، ونلمحُ من عمومية الخطاب فيضا من رحمة النبوة بالأمة كلها، وكأن النبي (ﷺ) يقبل بخطابه على كل من يسمع هذا الهدي ؛ غلقا لباب الاختلاف الذي ربما يعرض الأمة كلها للهلاك.

---

(١) سورة النساء، جزء من الآية: ١٧٦.
(٢) سورة القصص، جزء من الآية: ٨٨.
(٣) ينظر: المفردات: ٥٢٢.
(٤) ينظر: المعجم الوافي في أدوات النحو العربي، د/ علي توفيق الحمد، وأ/ يوسف جميل الزغبي: ٣١٨، دار الأمل، الأردن، ط الثانية، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣ م.
(٥) ينظر: النحو الوافي، أ/ عباس حسن: ٤/ ٤٢٨ – دار المعارف – مصر – ط الثالثة ١٩٧٤ م.

والتعبير بباء السببية في (باختلافهم) له دلالته في أن الله (ﷻ) لم يهلكهم ظلما وعدوانا، بل كان هلاكهم بأيديهم، وأن بقاء الأمم مرهون بقدر تمسكها بتعاليم شرعها والعض بالنواجذ على كتابها المنزل من عند ربها.

وأصل الاختلاف والمخالفة – كما يقول الراغب: " أن يأخذ كلّ واحد طريقا غير طريق الآخر في حاله أو قوله،..... ولمّا كان الاختلاف بين النّاس في القول قد يقتضي التّنازع استعير ذلك للمنازعة والمجادلة " [(١)].

وعلى هذا فقد استعير الاختلاف في الكتاب للمنازعة والمجادلة فيه، وذلك على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية، وفيها إيحاء بكثرة الأهواء وتشعب الآراء، وهذا هو طريق الشك والحيرة الذي يفضي إلى زوال الأمم وهلاكها ؛ لأن كتابَ أية أمة هو مصدر عقيدتها، وحين تصبح العقيدة مصدر شك ومثار ريبة ينصرف عنها أتباعها، وتُحَقّقُ – حينئذ – سنةُ الله في الكون، فيُهلك هؤلاء القوم، ويستبدل قوما غيرهم، يحملون مشعل الهداية لمن بعدهم.

و(أل) في (الكتاب) للعهد الذهني العلمي، اعتمادا على القرائن التي تعود بها الكلمة إلى معهود خارجي معلوم بين المتكلم والمخاطب [(٢)]، وقوله: (في الكتاب) قيد مهم في بيان المعنى وتحديد المراد، فالهلاك لم يكن بسبب الاختلاف، بل كان في أبغض صوره، وأكثرها مذمة وضررا.

(١) المفردات: ١٦٢ بتصرف.

(٢) ينظر: عروس الأفراح – ضمن شروح التلخيص، للبهاء السبكى: ١/ ٣٢٢، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.

المقام العاشر: غضبه (ﷺ) في مقام التنازع في القدر

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) وَنَحْنُ نَتَنَازَعُ فِي الْقَدَرِ فَغَضِبَ حَتَّى كَأَنَّمَا فُقِئَ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ فَقَالَ « أَبِهَذَا أُمِرْتُمْ أَمْ بِهَذَا أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حِينَ تَنَازَعُوا فِي هَذَا الأَمْرِ عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تَنَازَعُوا فِيهِ »[1].

لقد نهانا ديننا الحنيف عن التنطع والتشدد والبحث فيما غاب عن علم الإنسان مما استأثر الله – سبحانه وتعالى – بعلمه، ومن ذلك البحث في القدر والتعمق فيه ؛ لأن ذلك من الأمور التي استأثرها الله – سبحانه – بعلمه فلم يُطْلِع عليها أحدا، لا ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا، ولذلك يغضب النبي (ﷺ) غضبا شديدا عندما خرج ذات يوم، ورأى أصحابه يتنازعون في القدر، فحذرهم من الخوض والتمادي في هذا الأمر، وبين لهم أن ذلك طريق هلاك الأمم السابقة.

لا ريب أن هذا الحديث – محل الدراسة – يتكون من رافدين، يبدأ أولهما بكلام الصحابي الجليل أبي هريرة (خرج علينا رسول الله...)، والثاني: يمثله بيان رسول الله، والذي يبدأ من حيث انتهى السابق.

وكلام سيدنا أبي هريرة يصور المقام الذي جاء من أجله بيانه (ﷺ)، وقد حرص الصحابي الجليل على أن ينقل المشهد الذي أثار غضب النبي (ﷺ) من خلال إيثاره التعبير بالجملة الحالية (ونحن نتنازع في القدر) والتي كان عليها مدار الحديث، وهي التي شكلت بنيته، واستدعت هذا الموقف الغاضب من رسول الله (ﷺ)، وهي تعني أن خروجه (ﷺ) كان مصاحبا لتلك الحالة، وقد جاءت مقترنة بواو الحال، مما جعل الجملتان نفسا واحدا، لا يتم المعنى الذي يحسن السكوت عليه والمراد بيانه إلا بتمامهما معا، وذلك لأن معنى الجملة الحالية " مسكوب في معنى الجملة قبلها، وصار الخبران بهذا السكب واحدا "[2]، والواو

(١) سنن الترمذي، أَبْوَابُ: الْقَدَرِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ)، بَابُ: مَا جَاءَ فِي التَّشْدِيدِ فِي الخَوْضِ فِي القَدَرِ، رقم: ٢١٣٣، تحقيق وتعليق/ إبراهيم عطوة، طبع مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر- ط الثانية ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

(٢) شرح أحاديث من صحيح البخاري: ٣١٢.

حين تدخل على جملة الحال لا يكون " الغرض متجها إلى الحال وحدها، وإنما يقصد إلى أمرين على سبيل الاستقلال، يجمع بينهما بـ (واو الجمع) [1].

يقول الإمام عبد القاهر مستجليا الفرق بين مجيء جملة الحال بالواو وبين عدم مجيئها كذلك: " واعلمْ أنَّ كلَّ جملةٍ وقعَتْ حالاً ثم امتنعَتْ منَ "الواو"، فذاك لأَجْلِ أنَّك عمَدْتَ إلى الفعل الواقع في صدرِها فضَمَمْتَه إلى الفعلِ الأَول في إثباتٍ واحدٍ، وكلُّ جملةٍ جاءتْ حالاً، ثم اقتضتْ "الواو"، فذاكَ لأنكَ مستأنِفٌ بها خَبَراً، وغيرُ قاصدٍ إلى أنْ تَضُمَّها إلى الفعلِ الأولِ في الإثبات " [2].

وقد اتسم بناء تلك الجملة بما ينبئ عن التقرير والتوكيد، حيث قدم فيها المسند إليه على خبره الفعلي، كما أوحى التعبير بالفعل المضارع ومجيئه على صيغة التفاعل بحالة الشد والجذب التي سيطرت على جو حديثهم في هذا الشأن، كما اتسمت بالإيجاز بالحذف، حيث حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، والتقدير: ونحن نتنازع في شأن القدر " فَيَقُولُ بَعْضُنَا: إِذَا كَانَ الْكُلُّ بِالْقَدَرِ فَلِمَ الثَّوَابُ وَالْعِقَابُ كَمَا قَالَتِ الْمُعْتَزِلَةُ، وَالْآخَرُ يَقُولُ: فَمَا الْحِكْمَةُ فِي تَقْدِيرِ بَعْضٍ لِلْجَنَّةِ، وَبَعْضٍ لِلنَّارِ؟ فَيَقُولُ الْآخَرُ: لِأَنَّ لَهُمْ فِيهِ نَوْعَ اخْتِيَارٍ كَسْبِيٍّ. فَيَقُولُ الْآخَرُ: فَمَنْ أَوْجَدَ ذَلِكَ الِاخْتِيَارَ وَالْكَسْبَ وَأَقْدَرَهُمْ عَلَيْهِ ؟، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ " [3]، وقد أوحى هذا الحذف بالمبالغة في صنيعهم، وكأن نزاعهم كان في القدر ذاته.

ثم يكشف الصحابي الجليل عن هيئة غضبه (ﷺ) في تصوير كاشف وواضح فيقول: (فَغَضِبَ حَتَّى احْمَرَّ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّمَا فُقِئَ فِي وَجْنَتَيْهِ الرُّمَّانُ فقال:..) والتعبير بالفاء بما فيها من معنى الترتيب والتعقيب مما يؤذن بأن غضبه (ﷺ) كان بمجرد سماعه لهم وهم يتنازعون، وقد أوحى التعبير بحتي الغائية في موطنين من الجملة السابقة بذلك، فهي في قوله: (حتى احمر وجهه) تفيد أن غاية غضبه كان احمرار الوجه، و (حتى) الثانية تفيد أن

(١) الواو ومواقعها في النظم القرآني، د/ محمد الأمين الخضري: ٤٧٤، رسالة دكتوراة – مخطوط بكلية اللغة العربية – جامعة الأزهر – القاهرة – ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ م.

(٢) دلائل الإعجاز: ٢١٣.

(٣) مرقاة المفاتيح: ١/ ١٧٥.

غاية احمرار وجهه كان إلى أن وصل إلى درجةِ مَنْ فقئ في وجنتيه الرمان والجملة " كناية عن مزيد حمرة وجهه المنبئة عن مزيد غضبه " (١).

وتعبيره بـ (كأنما) مما يفيد شدة التطابق بين صورة المشبه (احمرار وجهه (ﷺ))، والمشبه به: هيئة من فقئ في وجنة خديه حب الرمان،وإنما غضب (ﷺ) كل هذا الغضب: " لأنَّ القدر سرّ من أسرار الله، وطلبُ سر الله تعالى منهيٌّ عنه، ولأنَّ من يبحث في القدر لم يأمن أن يصير قدريًّا أو جبريًّا، بل العباد مأْمورن بقبول ما أمرهم الشرع من غير أن يطلبوا سِر ما لا يجوز طلب سرِّه"(٢).

ولعل في اختياره (ﷺ) للرمان لما هو معلوم من انه شديد الحمرة، فوق ما تتسم به حمرته من الثبات والدوام، بحيث لا يسهل إزالتها.

أما عن بيانه (ﷺ) فالواضح أنه يتقاسمه الخبر والإنشاء، وقد ابتدأه بما يتناسب مع ما بدا عليه من الغضب الشديد، وبما يتلاءم مع مقام الحديث مشدِّدا عليهم من مغبة النزاع في القدر، ومنكرا عليهم هذا الصنيع، فعمد إلى مواجهتهم بالاستفهام الإنكاري التوبيخي بقوله: (أبهذا أمرتم ؟)، والمعنى: ما كان ينبغي أن تتنازعو في القدر، أو: لا ينبغي لكم ذلك، بانصباب النفي على فعل الانبغاء ، سواء كان الانبغاء في الزمن الماضي أو المضارع، ومعلوم أن الإنكار التوبيخي " إذا كان متعلقا بفعل واقع في الماضي فإن الغرض منه يكمن في تنبيه المخاطب وتعييره وتوبيخه حتى يرجع إلى نفسه فيخجل عما فعله، أما إذا كان متعلقا بفعلٍ واقع في الحال أو بصدد الوقوع في المستقبل فالغرض منه تنبيه المخاطب حتى يرتدع عن فعل ما همَّ به " (٣).

فهذا الاستفهام فيه تحريك لفكر المخاطبين، وإثارة لانتباههم، وأخذٌ لنفوسهم لسماع ما يُلقَي عليهم قصدا إلى تأكيد الإنكار عليهم، وتقرير مغبة الاختلاف والتنازع في القدر.

---

(١) السابق نفسه الجزء والصفحة.

(٢) قوت المغتذي على جامع الترمذي، جلال الدين السيوطي: (١/ ٤٩٦)، إعداد الطالب: ناصر بن محمد بن حامد الغريبي، رسالة دكتوراة – جامعة أم القرى، مكة المكرمة – كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الكتاب والسنة– ١٤٢٤ هـ.

(٣) بحوث في علم المعاني، أ. د/ رفعت إسماعيل السوداني: ٩١، ط ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م.

ونلحظ أن النبي الكريم قد سلط الإنكار على الجار والمجرور (أبهذا) المقدم على عامله، وذلك تسليطا للإنكار عليه ؛ لأنه موضع الإنكار وبؤرة الاهتمام، وذلك يتفق مع ما ذكره الإمام عبد القاهر – رحمه الله – من أن الأمر المنكر يلي همزة الإنكار دائما [(١)]، وقد وقع هنا في محل نصب مفعول به ثان ؛ إذ أصل الكلام: آمرتُكم بهذا ؟، وذلك إذا كان الرسول هو فاعل الأمر، أو: آمركم اللهُ بهذا ؟، وذلك إذا كان فاعل الأمر هو الله (ﷻ).

وتعريف تنازعهم في القدر باسم الإشارة (هذا) دون: أبالتنازع في القدر أُمرتُم، حتى يقع الإنكارُ عليه مميزا أكمل تمييز، وذلك لأن اسم الإشارة بطبيعة دلالته يحدد المراد منه تحديدا ظاهرا و يميزه تمييزا كاشفا، وهذا من شأنه أن يمنح الخبر مزيدا من القوة والتقرير [(٢)].

فضلا عما في التعبير به من التعظيم والتفخيم من مغبة التنازع في القدر ؛ لأنه من الأمور الغيبية التي لا ينبغي أن تشغل بالهم، لما يترتب عليه من الخطر العظيم في جوهر الإيمان وحسن الاعتقاد، والتعمق والجدال فيه طريق الخذلان ؛ لأن المجادل فيه لن يدرك مراده أبدا، وربما أفضى به ذلك إلى الإلحاد – والعياذ بالله.

وبناء الفعل (أُمِرتم) لما لم يسم فاعله، فيه إيحاء بأن ما وقع منهم بعيد كل البعد عما أمر به الله أو رسوله (ﷺ)، لدرجة أن النبي (ﷺ) لم ينسب الفعل ولو في ظاهر اللفظ إليهما، كما أن صيغة (أمرتم) أنسب إلى المسارعة في النكير عليهم.

ثم يرتقي بيانه (ﷺ) في التوبيخ والإنكار، ويصعِّد من درجات الذم والتوبيخ واللوم والتأنيب، فيتبع الاستفهام السابق بآخر من جنسه (أم بهذا أرسلت إليكم) و (أم) فيه منقطعة بمعنى (بل)، أي للإضراب عن الاستفهام عن الأول إلى الاستفهام عن الثاني [(٣)]،

(١) ينظر: دلائل الإعجاز: ١١٨ – ١٢٣.
(٢) ينظر: خصائص التراكيب: ٢٠٠.
(٣) ينظر: مذكرات في علم المعاني، أ. د/ رفعت السوداني وآخرون: ٧٦ – بدون.

وإنما أضرب (ﷺ) عن الاستفهام السابق إلى هذا الاستفهام، وذلك " ترقيا من الأهون للأغلظ وإنكارا غب إنكار " [1].

هذا فضلا عما يحدثه أسلوب الاستفهام بخاصة في المقامات المتوترة الغاضبة – كما هو الحال في الحديث – في التركيب " ما يشبه التيار الكهربي تزيده الكلمات والحروف وتكرار الاستفهام أحيانا توهجا وتأججا، حتى يصل إلى مدى يناسب الموقف وحال المخاطب والنسق الخاص والسياق العام " [2]، ولو جاء بيانه (ﷺ) بأسلوب الخبر، فقيل – مثلا –: ما بهذا أمرتم، وما بهذا أرسلت إليكم، أو جاء بأسلوب النهي كأن يقال: لا تتنازعوا في هذا الأمر، لفقد الأسلوبُ قوته وفخامته ورعدته، ولم يكن مُصِّورا ما ألمَّ بنفس النبي (ﷺ) من الغضب وشدة الانفعال.

وإنما جاء هذا الاستفهام الثاني عقب سابقه، ولم يكن الأمر بالعكس ؛ لأنه أعم منه، فهو انتقال من الخاص إلى العام، فقد قدم (ﷺ) الاستفهام الأول لينص على استنكار أن يقع منه تخصيص لأمرهم بهذا الشيء، ثم انتقل إلى ما هو أعم فقال: (أم بهذا أرسلت إليكم)، وكأنه (ﷺ) ينكر على الصحابة أن يختزلوا الهدف من رسالته في مثل هذا الأمر، فالرسالة أكبر وأعم وأوسع وأشمل من ذلك، ومن صميمها وما يتصل بجوهرها عدم الاختلاف في القدر وتفويض الأمر فيه إلى الله (ﷻ).

وتقييد الإرسال بـ (إليكم) استنكار منه (ﷺ) أن تكون الغاية من إرساله إليهم هي الاختلاف والتنازع حول هذا الأمر، وهذا مما ينبئ عن أن ذلك باب من أبواب الخروج من الدين، لمنافاته للأهداف العليا لرسالته (ﷺ).

ثم أخذ بيانه (ﷺ) طابع الأسلوب الخبري فقال: (إنما هلك من كان قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر).

---

(١) قوت المغتذي على جامع الترمذي: ١/ ٤٩٦.

(٢) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، د/ صباح عبيد دراز: ١٢٦، مطبعة الأمانة – ط الأولى – ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م.

وهي جملة وثيقة الصلة بما قبلها، وكأن الصحابة – رضوان الله عليهم – لما سمعوا هذا الإنكار الشديد منه (ﷺ) استثارت نفوسهم، فهاجت فيها الخواطر والهواتف، فبادروا بسؤاله (ﷺ) عن سر هذا الغضب الشديد، وكأنهم قالوا: ولماذا كل هذا الإنكار منك يا رسول الله ؟ فجاء جوابه: إنما هلك...

ولذا فصلت هذه الجملة عن سابقتها لشبه كمال الاتصال و المسمى بالاستئناف البياني، وهذا الاستئناف قد زاد النفوس تشويقا وأفاض على المعنى بيانا ووضوحا، وذلك لأن " الجملة الأولى دائما مكتنزة، فيها بعض الظلال والغموض الخفيف، إنها ليست واضحة جدا بحيث يمكن الوقوف عليها والسكوت عندها، بل تثير فيضا من الاستفسارات والاستفهامات، تثار حتما في نفس المتلقي وتجذبه وتشركه في الصياغة، ثم تأتي الجملة الثانية تجيب عن السؤال وتطفئ أشواق النفس، وتروى ظمأها، وتشبع هذا التطلع العاطفي المجهول، فيتأكد المعنى من الناحية العقلية، وتتحقق المتعة النفسية، وتشبع حاسة الفن والجمال " [1].

والاعتبار السابق من كون الفصل بين الجملتين لشبه كمال الاتصال أوْلى من القول بأن الفصل بينهما مرده إلى ما بينهما من كمال الانقطاع بلا إيهام، لاختلافهما في الخبرية والإنشائية لفظا ومعنى، لأن هذه – كما قلت سابقا [2] – نظرة تقف عند حدود اللفظ، فلا ينبغي أن يُعوَّل عليها ونحن نبحث عن سر الفصل والوصل بين الجمل، أما الاعتبار السابق فهو يتجه إلى النظر إلى ما بين الجمل من صلات وروابط، والبحث عن العلاقات المعنوية بينها الجمل التي استدعت هذا الفصل.

وقد صاغ النبي (ﷺ) هذه الجملة مؤكدة بأسلوب القصر الذي طريقه (إنما) تنبيها على أن هذا الأمر من الأمور المعلومة والمسلم بها، والتي ليست محل خلاف أو نقاش، وفي هذا تحذير بليغ لهم من مغبة الاستمرار على هذا الأمر، وهذا مفاد من دلالة (إنما)

(١) أسرار الفصل والوصل في البلاغة القرآنية، د/ صباح دراز:١١٥، ١١٦، مطبعة الأمانة، ط أولى، ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م.
(٢) ينظر البحث: صـ ٣٥، ٥٧.

على معنى التعريض بهلاكهم، وكأن النبي (ﷺ) من خلال تلك الأداة يضع أمام بؤرة وعيهم طريقَ الهلاك لمن سبقهم من الأمم، تحذيرا لهم من هذا المصير.

وقد عبر (ﷺ) باسم الموصول (من) دلالة على العموم والشمول، وأتبعه بـ (كان) التامة، أي: من وُجِد قبلكم، والتعبير بها يضرب في أعماق الزمان، مما يشير إلى أن سنة الله واحدة في كونه، فمتى وقع هذا الاختلاف كان أمر الله نافذا لا محالة.

وتعبيره (ﷺ) بالفعل (هلك) يختلف عن (أهلك) بهمزة التعدية، والتي بها يتحول الفعل من لازم إلى متعد ،فالفعل (هلك) مما يشير إلى أنهم سبب الهلاك، وأنهم أجلبوا الهلاك لأنفسهم بهذا الأَمر، بخلاف أهلك ؛ إذا المعنى فيها: أوقع الهلاك عليهم، مما يعني أن شيئا آخر هو الذي أهلكهم.

كما بنى (ﷺ) كلامه على طريقة التعميم في الخطاب (قبلكم) حفاوة بأمر هذا المعنى، وأنه ليس خاصا بهؤلاء القوم الذين خرج عليهم، بل هو أمر عام لكل سامع، وكل من يتأتى منه هذا الخطاب، حتى يكون كلُّ مكلفٍ في هذه الأمة مأمورا باجتناب هذه الآفة المهلكة.

وتقييد الهلاك بهذا الظرف (حين تنازعوا..) دون التعبير بباء السببية أي بتنازعهم... مما يشير إلى وقوع الهلاك عقب التنازع مباشرة، يقول صاحب مرقاة المفاتيح: " وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ غَضَبَ اللهِ، وَإِهْلَاكَهُمْ كَانَ مِنْ غَيْرِ إِمْهَالٍ، فَفِيهِ زِيَادَةُ وَعِيدٍ "(١).

وفي تعبيره (ﷺ) بصيغة (تنازعوا) إشارة إلى ما يجلبه الحديث في هذا الأمر من الشقاق والخصام وإثارة العداوات، لأن النزاع هو مدخل الفشل لأية أمة، فما بالك إذا كان في هذا الأمر الغيبي ؟، ولعل في ذلك إشارة من النبي (ﷺ) إلى وجوب أن يُغَيَّب هذا الأمر من حياة الجماعة المسلمة ويُقْطَع دابره، فلا تبقى له رائحة في حياتها.

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: (١/ ١٧٥).

وتعبيره(ﷺ) باسم الإشارة في (هذا الأمر) تحديد لموضع الداء، وتمييز لسبب الهلاك، وفي التعبير عنه بلفظ (الأمر) تهويل وتعظيم من خطر الاقتراب منه أو الولوج فيه ؛ لأنه يفتح باب الاعتراض وإثارة الشكوك والشبهات ؛ لأن الإنسان – كما يقال – في شأن القدر أعمى.

وبعد أن أوقف النبي (ﷺ) نبض القلوب بما أثاره من الإنكار الشديد في ثوب أسلوب الاستفهام، وبيَّن مآل السابقين، إذا به يقسم على السامعين، ألا يتنازعوا فيه مرة ثانية، ويحث أصحابه حثا بليغا مؤثرا بصيغة لافتة تسترعي الانتباه، وتلفت الأذهان، وتثير دواعي الاهتمام (عزمت عليكم)، " أَيْ: أَقْسَمْتُ أَوْ أَوْجَبْتُ (عَلَيْكُمْ) قِيلَ: أَصْلُهُ عَزَمْتُ بِإِلْقَاءِ الْيَمِينِ، وَإِلْزَامِهَا عَلَيْكُمْ "[1].

وهذه الصيغة فيها معنى القسم من حيث اللفظ، وليس من حيث الاصطلاح، ولو سلك النبي (ﷺ) طريق القسم الاصطلاحي لقال: بالله عليكم، أو أقسم بالله عليكم ألا تتنازعوا فيه، وإنما آثر بيانه التعبير بهذه الصيغة لما تنبئ به من معاني الوجوب والفرضية وقوة الإلزام، يقول الراغب: " العزمُ والعزيمةُ: عقدُ القلب على إمضاء الأمر "[2]، وكأن هذه الجملة من بيانه (ﷺ) طرقة تنبيه حازمة شديدة الوقع بعدم ولوج هذا الباب مرة أخرى.

وإسنادُ العزم إلى ضميره (ﷺ) يشير إلى عظم الأمر، ووجوب التكليف، وهذا من شدة حرصه على أمته ورحمته بها وعظيم إشفاقه وخوفه عليها ؛ لاستشعاره خطورة ما يئول إليه النزاع في شأن القدر، ولذا رأينا سلفنا الصالح – رضوان الله عليهم – يحذرون من النظر والتعمق في مسائله يقول الإمام الطحاوي[3] – رحمه الله –: " الحذر الحذر من ذلك نظرا وفكرا ووسوسة، فإن الله – تعالى – طوى علم القدر عن أنامه

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: (١/ ١٧٦).
(٢) المفردات: ٣٣٧.
(٣) هو أحمد بن سلامة الأزدي الطحاوي أبو جعفر الإمام الحافظ برز في علم الحديث والفقه، كان ثقة ثبتا عادلا مصنف العقيدة الطحاوية المشهورة، وتوفي سنة ٣٥١، ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي: (١٥/ ٢٧)، مؤسسة الرسالة، سنة النشر: ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

ونهاهم عن مرامه، كما قال في كتابه: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [(١)]، فمن سأل لِمَ فعل فقد رد حكم الكتاب، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين " [(٢)].

والتعبير بحرف الاستعلاء (عليكم) يشير إلى قوة التكليف وشدة الإلزام بالبعد التام عن هذا السلوك، وإنما خصهم النبي (ﷺ) بالخطاب وإن كان العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ؛ لأنهم الفئة التي أنشأت في هذا الأمر، فهو أحوج إلى لفت الانتباه والتشديد وفرض العزيمة عليهم.

وقد يبدو للوهلة السريعة أن سر فصل هذه الجملة (عزمت عليكم) عن سابقتها هو ما بينهما من كمال الانقطاع بلا إيهام، لأن الجملة السابقة: (إنما هلك...) خبرية لفظا ومعنى، وهذه خبرية لفظا، إنشائية معنى، ولكن هذه نظرة لفظية صناعية، لا تُهِمُّ في تذوق الكلام وإدراك العلاقات والروابط بين معانيه، ولذا أرى أن هذه الجملة من بيانه (ﷺ) مستأنفة استئنافا ابتدائيا تمييزا لما تحمله من معنى، وتقريرا له في أذهان المخاطبين، أراد النبي (ﷺ) من خلالها أن يجتث هذا المسلك من نفوس الصحابة بعدم العود إليه مرة أخرى في المستقبل من الزمن، فهو استئناف يتناسب مع تَغَيُّر الأزمنة في بيانه (ﷺ) حيث نقل النبي (ﷺ) النفوس من خلاله نقلةً مستقبلية، أما الجملة السابقة فهي تتعلق ببيان مغبة النزاع في القدر على الأمم السابقة وأثره في إهلاكهم.

وتتجلى معاني الحرص والشفقة على الأمة بتكراره (ﷺ) للجملة السابقة، ليقرر هذا المعنى في النفوس ويؤكده في الأذهان، ويكثِّف من معاني وجوب الإذعان والامتثال، والتكرار صورة من صور الإطناب " وفائدته العظمى: التقرير، وقد قيل: الكلام إذا تكرر تقرر " [(٣)]، وقال السيوطي في مزهره: " من سنن العرب التكرير والإعادة إرادة الإبلاغ بحسب العناية بالأمر " [(٤)]، ولا يخفى ما للتكرار من دورٍ في

(١) سورة الأنبياء، جزء من آية: ٢٣ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي: ٢٤٩، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت – الطبعة الرابعة، ١٣٩١ هـ.

(٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي: (٣/ ١٠).

(٤) المزهر في علوم اللغة للسيوطي: ١/ ٢٦٢، ت/ فؤاد على منصور، دار الكتب العلمية – بيروت – ط: أولى، ١٤٨٣ هـ – ١٩٩٨ م.

تثبيت المعاني في النفوس، وماله من " تأثير في عقول المستنيرين وتأثيره أكبر في عقول الجماعات من باب أولى، والسبب في ذلك كون المكرر ينطبع في تجاويف الملكات اللاشعورية التي تختمر فيها أسباب أفعال الإنسان، فإذا انقضى شطر من الزمن نسى الواحد منا صاحب التكرار وانتهى بتصديق المكرر ؛ إذ الشيء إذا تكرر رسخ في الأذهان رسوخا تنتهي بقبوله حقيقة ناصعة " [1].

و(أن) في قوله: (ألا تتنازعوا فيه) قيل: يمتنع كونها مَصْدَرِيَّةً وَزَائِدَةً؛ لِأَنَّ جَوَابَ الْقَسَمِ لَا يَكُونُ إِلَّا جُمْلَةً، فهِيَ إِذًا مُفَسِّرَةٌ، كَأَقْسَمْتُ أَنْ لَا ضَرَبْتُ، و(لا) جازمة، وتنازعوا مجزوم بها [2].

وهذا يعني: أنها فسَّرت العزم الذي أخذه الرسول عليهم، وفيها توضيح لما فيه من إبهام وغموض، ولاشك أن المعنى إذا جاء مبهما ثم وُضِّح كان ذلك أمكن له في النفس وآكد، حيث جاءها وهي متطلعة إليه ترغب في تحصيله " فالشيء إذا نيل بعد الطلب والمشقة يكون أوقع في النفس وأشد تأثيرا، ويحدث لها بالوقوف عليه لذة ومتعة " [3].

والنهي في قوله: (ألا تنازعوا فيه) يراد به أصل حقيقة من تحريم الفعل وعدم الوقوع فيه مرة أخرى، وتسليط (لا) الناهية على الفعل المضارع لئلا يتجدد منهم هذا التنازع مرة أخرى، حتى ولو طال الزمن، وكأن النبي (ﷺ) يأخذ العزيمة على الأمة كلها بعدم ولوج هذا الباب المهلك في أي زمن كان.

وتبدو دقة اصطفائه (ﷺ) لكلماته بتعبيره باللفظ الدال على المعنى المراد (تتنازعوا) مما يؤكد أن المنهي عنه صراحة هو الحديث في القدر الذي يفضي إلى التنازع والجدال والمراء والخوض فيه بالظن، ومحاولة علم ما لا تهتدي العقول إلى معرفته، أما القدر نفسه ففهم مسائله وتأصيله أو تدريسه وتعلم مفهومه ومضمونه، وكلامِ العلماء فيه في ضوء كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) فهذا غيرُ داخلٍ في حيز النهي.

وختام بيانه(ﷺ)بجملة (عزمت عليكم...) يعد من حسن الانتهاء؛ إذ لا تتطلع النفسُ بعده إلى كلام آخر، حيث كانت هذه العزيمة التي أخذها النبي (ﷺ) على

(١) روح الاجتماع، د/ جوستاف لوبون: ١٣٩، ترجمة من اللغة الفرنساوية المرحوم: أحمد فتحي زغلول باشا، صححه ونشره: توفيق الرافعي، المطبعة الرحمانية بمصر، الطبعة الثانية.

(٢) ينظر: مرقاة المفاتيح: ١/ ١٧٦.

(٣) علم المعاني، د/ بسيوني فيود: ٥١٢، مؤسسة المختار، ط الثانية – ١٤٣١ هـ – ٢٠١٠ م.

الصحابة والأمة كلها من بعدهم هي آخر ما استقر في السمع من الكلام المتعلق بهذا الشأن.

وأود أن أختم كلامي في هذا الحديث بما حدَّث به سيدنا على بن أبي طالب عندما سأله رجل عن القدر فقال: " طريق مظلم لا تسلكه، وأعاد السؤال فقال: بحر عميق لا تلجه، وأعاد السؤال فقال: سر الله قد خفى فلا تفشه " (١).

(١) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي نقلا عن شرح السنة: ٦/ ٢٧٨، ط دار الفكر.

المقام الحادي عشر: غضبه (ﷺ) في مقام سؤاله عن ضالة الإبل

عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الجُهَنِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ (ﷺ)سَأَلَهُ رَجُلٌ عَنِ اللُّقَطَةِ، فَقَالَ: «اعْرِفْ وِكَاءَهَا، أَوْ قَالَ وِعَاءَهَا، وَعِفَاصَهَا، ثُمَّ عَرِّفْهَا سَنَةً، ثُمَّ اسْتَمْتِعْ بِهَا، فَإِنْ جَاءَ رَبُّهَا فَأَدِّهَا إِلَيْهِ» قَالَ: فَضَالَّةُ الإِبِلِ؟ فغضب حتى؟حمر ؟ ؟جنتا؟، ؟؟ قا؟ ؟حمر ؟جهه، فَقَالَ: « وَمَا لَكَ وَلَهَا، مَعَهَا سِقَاؤُهَا وَحِذَاؤُهَا، تَرِدُ المَاءَ وَتَرْعَى الشَّجَرَ، فَذَرْهَا حَتَّى يَلْقَاهَا رَبُّهَا» قَالَ: فَضَالَّةُ الغَنَمِ؟ قَالَ: « لَكَ، أَوْ لِأَخِيكَ، أَوْ لِلذِّئْبِ»[1].

لقد حثنا ديننا الحنيف على حفظ المال ورعايته، ودعا إلى احترامه كقيمة، ومن أوجه المحافظة عليه ما يسمى بأحكام اللقطة، وقد اهتمت الشريعة الإسلامية فجعلت من تلك الأحكام بابا من أبواب الفقه، وهو باب اللقطة.

وهذا الحديث يكشف عن بعض أحكامها، ويضع الضوابط العامة التي تتعلق بأنواعها، سواء كانت هذه اللقطة مادية أو غير ذلك.

والصورة البلاغية البارزة في الحديث هي صورة الاستفهام، والذي جاء على حقيقته، وبخاصة من السائل لرسول الله (ﷺ) ؛ لأنه يريد أن يستكشف ويعْلم ويتعلَّم، وكان أسلوب الاستفهام خير وسيلة تعينه على ذلك.

وهذا الحديث يُلحظ فيه أنه بدأ بداية مباشرة بدخول الراوي على نصه مباشرة على حكاية صدر القصة " أن النبي (ﷺ)سأله رجل عن اللقطة "، ولم يحدد اسم هذا السائل؛ لأن المغزى هو الوقوف على حكم اللقطة، وليس معرفة السائل ؛ إذ لا يتعلق بذكره غرض بلاغي.

واللقطة في اصطلاح الفقهاء: ما ضاع من الشخص لسقوط أو غفلة فيأخذه غيره، وهي بفتح القاف على اللغة المشهورة، وقيل بسكونها، وقال الخليل: بالفتح هو اللاقط، وبالسكون الملقوط[2].

(١) صحيح البخاري، كِتَابُ: العِلْمِ، بَابُ: الغَضَبِ فِي المَوْعِظَةِ وَالتَّعْلِيمِ، إِذَا رَأَى مَا يَكْرَهُ، رقم: ٩١.
(٢) ينظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢/ ١٠٨).

والمراد بها في قول الراوي (سأله رجل عن اللقطة)، أي: الشيء الملتقط، وقد استثمر راوي الحديث الإيجاز بالحذف في العبارة السابقة، والتقدير: عن حكم اللقطة، إذ ليس مقصود الرجل من سؤاله للرسول عنها أن يُبيِّن له ما هيتها، أو يضع تعريفا وضابطا لها.

و (أل) في (اللقطة) للعهد الذهني ؛ إذ يراد بها ما يستحق أن يُعرَّف لأنه شيء ذو بال، بخلاف الأشياء التافهة والتي لا قيمة لها والتي لا تتبعها همة أوساط الناس، كالسوط والرغيف والتمرة ونحو ذلك، إذ لا يُعقَل أن تدخل هذه الأشياء في قوله(ﷺ): (عرفها سنة)، يؤيد ذلك ما روي عن جابر قال: **" رخص رسول الله (ﷺ) في العَصَا والسوطِ والحَبْلِ وأشباهه يلتقِطُه الرَّجُلُ ينتفعُ به "** (١).

فمثل هذه الأشياء ليس فيها تعريف، لأنها مما يعفى عن طلبها وتطيب النفس غالبا بتركها.

وقد جاءت إجابته (ﷺ) عن سؤال الرجل دقيقة وواضحة ومفصَّلة فقال: (اعْرِفْ وِكَاءَهَا، أَوْ قَالَ: وِعَاءَهَا، وَعِفَاصَهَا، ثُمَّ عَرِّفْهَا سَنَةً...) والسمة الغالبة على تلك الإجابة هي أسلوب الأمر: (اعرف – عرِّفها – أدِّها) وقد جاء على حقيقته من معنى الوجوب والإلزام، وهذا المعنى هو الأصل في تلك الصيغة، ما لم تأت قرينة تصرفه عن ذلك، والتعبير بهذه الصيغة مما يؤكد إلقاء المسئولية على الملتقِط، وأنه يلزمه أن يتحرَّى الدقة ويبتغي الحرص حفاظا عليها حتى ينعم بها صاحبها مرة ثانية، ولا يعدها غنيمة، ويُفْهَمُ من هذا أنه لو علم من نفسه أنه لن يوفى هذه الأوامر حقها يلزمه تركُها لغيره ممن هو أهل للقيام بذلك.

أما صيغة الأمر في (استمتع) فيراد بها مطلق إباحة الفعل، دون إيجاب أو إلزام، ولا نعدم معنى الإرشاد في صيغ هذه الأوامر الأربع السابقة، وخاصة أن الرجل سائل، وهو في أمس الحاجة إلى ما يرشده ويثبت ما يدور في نفسه من خواطر وهواتف تجاه تلك اللقطة.

---

(١) سنن أبي داود، تحقيق: شعَيب الأرناؤوط: (٣/ ١٤٠).

وأول ما أرشد به النبي (ﷺ) هذا السائل أن يضبط صفاتها بمعرفة وكائها ووعائها فقال: (اعرف وكاءها أو قال: وعاءها وعقاصها).

والوكاء: هو ما يشد به الكيس وغيره [١]، والوِعاءُ والإِعاءُ عَلَى البَدَل والوُعاءُ، كُلُّ ذَلِكَ: ظَرْفُ الشَّيْءِ، وَالجُمْعُ أَوْعِيةٌ [٢]، العِفاصُ: هُوَ الوِعاءُ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ النَّفقة، إِنْ كَانَ مِنْ جِلْدٍ أَو مِنْ خِرْقة أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، وَخَصَّ بَعْضُهُمْ بِهِ نفقةَ الرَّاعِي وَهُوَ مِنَ العَفْص مِنَ الثَّنْي والعَطْف، وَلِهَذَا سُمِّي الجِلْدُ الَّذِي تُلْبَسُه رأْسُ القارُورة العِفاصَ؛ لأَنه كَالْوِعَاءِ لَهَا [٣]، وهذه العبارة من بيانه (ﷺ) بجملتها: كناية عن معرفة أوصافها ؛ إذ ليس المقصود قصر المعرفة على ما ذكر، بل المراد ضبط صفاتها بمعرفة وكائها وعفاصها وقدرها وجنسها وصنفها، وإنما اقتصر النبي (ﷺ) على ما ذكر ؛ لأنه أشهر ما يُستدَل به عليها.

و " إِنَّمَا أَمر بِمَعْرِفَة العفاص والوكاء ليعرف صدق واصفها من كذبه، وَلِئَلَّا يخْتَلط بِمَالِه، وَيسْتَحب التَّقْيِيد بِالْكِتَابَةِ خوف النسْيَان " [٤]، وهذا من تمام حفظه لها، حتى يتقين أنها عادت إلى صاحبها، إذا ما جاء يسأل عنها.

ثم أرشده النبي (ﷺ) إلى خطوة ثانية بقوله (ثم عرِّفها سنة) والتعبير بـ (ثم) بما توحي به من تثاقل الزمن وتباطؤه مما يشير إلى معنى الحرص الكامل على الاستيثاق من أوصافها، والمبالغة في التثبت من ذلك، وفي إيثار التعبير بالفعل (عرفها) وما فيه من تشديد الراء، مما يوحي بضرورة أخذ الأمر مأخذ الجد والأمانة في البحث والتحري، و(سنةً) منصوب على نزع الخافض أي: مدة سنة [٥]، وفي حذف المضاف ما ينبئ عن المبالغة في شدة التعريف لها، بحيث لا يكون تعريفا سطحيا أو شكليا، وتعبيره (ﷺ) بـ (سنة) دون (عام) مثلا، فيه مراعاة لأصل المعنى فيها ؛ إذ " أكثر ما تستعمل السنة في

(١) لسان العرب: وكأ.
(٢) السابق: وعى.
(٣) السابق: عفص.
(٤) عمدة القاري: ٢/ ١١٠.
(٥) ينظر: السابق: ٢/ ١٠٩.

الحول الذي فيه جدب " [1]، ولذا فالتعبير بها هو الأنسب في هذا السياق، وكأن فيها إشارة إلى ما يبذله الملتقِط في تعريفها من جهد، وانشغال بال، وبذلٍ للوقت.

وإذا كان تنكير (سنة) يستفاد منه معنى العموم، فإن العرف يخصصه، ولذلك ذهب صاحب (عمدة القاري) إلى أن الصحيح أن مدة التعريف تختلف بقلة المال وكثرته، وروي محمد بن أبي حنيفة: إن كانت أقل من عشرة دراهم عرفها أياما، وإن كانت عشرةً فصاعدا عرفها حولا، وروي الحسن عن أبي حنيفة: أنها إن كانت مائتي درهم فصاعدا يعرفها حولا، وفيما فوق العشرة إلى مائتين شهرا، وفي العشرة جمعة، وفي ثلاثة دراهم ثلاثة أيام، وفي درهم يوما، وإن كانت ثمرة ونحوها تصدَّق بها مكانها، وإن كان محتاجا أكلها مكانها [2].

وأرى أن العبرة بما جرت به العادة في مدة التعريف، وأنها تقدر بالمدة التي يغلب على الظن أن الفاقد للشيء أَعْرَض عن طلبه والبحث عنه، وأن الأمور تقدَّر بقدرها واختلاف الأزمنة والأمكنة، ففئةُ الألفِ جنيه مثلا، كانت منذ زمنُ تُعَدُّ ثروةً بخلاف اليوم، وهكذا ينظر للأمور.

كما نلحظ أن النبي(ﷺ)أطلق العموم في تحديد مكان وجهات التعريف، وهذا من بلاغة فقهه (ﷺ) لتغيُّر الواقع ؛ لأن ذلك يختلف باختلاف الأزمنة والوسائل، والنظر في قيمة الشيء الملتَقط، والتقدير في بيانه (ﷺ) عرِّفها: للناس سنة، ويشمل ذلك النداء عليها في مكان التقاطها ؛ لأنه مكان مظنة بحث صاحبها عنها، وفي مجامع الناس كالأسواق، وعند أبواب المساجد وقت الصلوات، وتبليغ الجهات المسئولة عنها كدوائر الشرطة مثلا، وفي زماننا يكون بالنشر في الصحف والإذاعات إذا كانت لقطة خطيرة.

وهكذا نرى أن هذا الإطلاق في بيانه (ﷺ) كان من البلاغة بمكان، إذ إن هذه الأمور تقدر بقدرها، وتختلف باختلاف الأزمنة والقيمة.

---

(١) المفردات: ٢٥٠.

(٢) ينظر: عمدة القاري: ٢/ ١١١.

ولا يخفى جناس الاشتقاق [1] الواقع بين لفظي (اعرف) و (عرفها) فالفعل (اعرف) من المعرفة، والفعل (عرفها) من التعريف، وقد جاء كسائر جناسه (ﷺ) سهلا مطبوعا استدعاه المعنى وتطلبه المقام، وليس المقصود منه مجرد إحداث وقع موسيقي يستميل القلوب وتلذ به الأسماع، وإن كانت هذه العلة اللفظية لها أهميتها وبلاغتها، ولكن لابد من سبر أغوار المعاني ومعرفة الداعي إلى هذا التقارب اللفظي بين (اعرف) و (عرِّفها)، ولعل في ذلك ما يشير إلى حرصه (ﷺ) على الوصول بتلك اللقطة إلى صاحبها الحقيقي، فمعرفة الوعاء والوكاء من أجل ضبط الأوصاف المتعلقة بها، حتى إذا جاء صاحبها وذكرها أخذها من ملتقطِها، وتعريفُها للناس من أجل الإعلان عنها حتى يجدها ربها، وعلى هذا فاللفظان وإن اختلف معناهما اللغوي إلا أنهما يوصلان لهدف واحد.

وإذا كانت هذه الرواية – محل الدراسة – تقدَّم فيها طلبهُ (ﷺ) بمعرفة وكاءها ووعاءها وعفاصها ثم تعريفها سنة، فهناك رواية أخرى للحديث تقدم فيها الأمرُ بتعريفها سنة ثم جاء الأمر بمعرفة أوصافها، وهي رواية عن زيد بن خالد الجهني – أيضا –: " أن رجلا سأل رسول الله (ﷺ) عن اللقطة فقال: عرفها سنة، ثم اعرف وكاءها ووعاءها وعفاصها... الحديث [2].

وقد وفق الإمام النووي – رحمه الله – بينهما فقال: " الْجَمْعُ بَيْنَهُمَا بِأَنْ يَكُون مَأْمُورًا بِالْمَعْرِفَةِ فِي حَالَتَيْنِ فَيُعَرِّفُ الْعَلَامَاتِ أَوَّلَ مَا يَلْتَقِطُ حَتَّى يَعْلَمَ صِدْقَ وَاصِفِهَا إِذَا وَصَفَهَا ثُمَّ بَعْدَ تَعْرِيفِهَا سَنَةً إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَمَلَّكَهَا فَيُعَرِّفُهَا مَرَّةً أُخْرَى مَعْرِفَةً وَافِيَةً مُحَقَّقَةً لِيُعْلَمَ قَدْرُهَا وَصِفَتُهَا لِاحْتِمَالِ أَنْ يَجِيءَ صَاحِبُهَا فَيَقَعَ الِاخْتِلَافُ فِي ذَلِكَ " [3].

(١) وهو ما يجتمع فيه اللفظان في أصل الاشتقاق، ينظر: دراسات منهجية في علم البديع، د/ الشحات أبو ستيت: ٢١٤.

(٢)سنن الترمذي، أَبْوَابُ الْأَحْكَامِ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، بَابُ مَا جَاءَ فِي اللُّقَطَةِ وَضَالَّةِ الإِبِلِ وَالغَنَمِ، رقم: ١٣٧٢.

(٣) صحيح البخاري: كِتَاب فِي اللُّقَطَةِ، بَابُ: إِذَا جَاءَ صَاحِبُ اللُّقَطَةِ بَعْدَ سَنَةٍ رَدَّهَا عَلَيْهِ، لِأَنَّهَا وَدِيعَةٌ عِنْدَهُ، رقم: ٢٤٣٦.

وقوله: (ثم استمتع بها) يمثل بندا ثالثا في بيان حكم اللقطة، فإذا لم يأت صاحبها بعد تعريفها حولا كاملا كانت ملكا لواجدها، وقد جاء بيانه (ﷺ) معبِّرا بـ (ثم) وهي على حقيقتها من إفادة الترتيب مع التراخي الزمني المناسب لتعريفها؛ تأكيدا على مقصوده (ﷺ) من التريث وعدم التعجل في التصرف فيها باعتبارها مغنما، فإذا بذل واجدُها الجهدَ المناسب في التعريف واطمأن قلبُه أُحِلَّ له التصرف فيها.

والأمر بـ (استمتع) للإباحة، وإيثار التعبير بتلك الصيغة فيه ما يشير إلى مطلق الحِلِّ ورفع الحرج عن واجدها، بحيث لا تشوبه شائبةُ حرمةٍ أو تأنيبُ نفسٍ ينغِّصُ عليه كلما أنفق منها، وبخاصة أن الرجل بذل الجهد وأدى ما عليه بأمانة وحرصٍ بالغٍ عسى أن يعثر على صاحبها.

وقد صرحت رواية أخرى بطلب الاستنفاق فقال (ﷺ): (ثم استنفق بها) [1]، فلا حرج عليه أن ينفق منها على نفسه وأهله عن طيب نفس وراحة ضمير.

وزيادة الهمزة والسين والتاء في كلتا الروايتين فيه ما يؤكد حلية التصرف، وفي هذا إشارة إلى سماحة الإسلام ومرونته، وأنه لا يطلب اكتناز المال حتى ولو كان ملتقَطا، بل ينبغي أن يُصْرَف في وجوهه المشروعة، ويدور في عجلة الإنتاج ليعود نفعُه على الملتقِط وعلى المجتمع من حوله، وهذا شيء مما نلمحه من بلاغة التعبير بهاتين اللفظتين (استمتع – استنفق) ولو كان بيانه (ﷺ) (ثم هي لك) لأفاد مجرد الحل، دون أن نرى ظلالا لتلك المعاني.

ويستقصى النبي (ﷺ) أحوال الحكم الذي بصدده وأطراف المعاني التي تتعلق به، فيقول: " فإن جاء ربها فأدها إليه " فربما يعثر صاحبُها على ملتقطِها بعد انقضاء مدة التعريف، ولما كان ذلك من الندرة بمكان عبر (ﷺ) (إن) بما تحمله من معنى عدم القطع بوقوع الشرط وفي ذلك إشارة إلى استبعاد أن يظهر صاحبُها بعد مضي مدة تعريفها، ومن ثم ناسب ذلك التعبير بفعل (المجيء) دون (فإن أتى صاحبها)، وذلك لما يؤذن به

(١) عون المعبود شرح سنن أبى داود لمحمد شمس الدين الحق أبادى: ٥/ ٨٥. دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٥ هـ.

التعبير بالمجيء من الصعوبة والمشقة [1]، وهو ما يتناسب مع مجيء الرجل مشغولَ النفس، وربما نزل به من الجهد ما نزل وهو يبحث عنها، فكان التعبير بالمجيء أوفقَ لحاله.

و(ربها) أي " مالكها، ولا يطلق الرب على غير الله إلا مضافا مقيدا " [2]، ولعل في إيثار التعبير بهذا اللفظ ما يشير إلى أحقيته في ملكيتها وإن طال الزمان بمضي مدة تعريف ملتقطها لها.

ولذا جاء جواب الشرط مقترنا بالفاء (فأدها) دلالة على السرعة في ردها إليه، وعدم المماطلة بحجة مضى مدة التعريف، وأنها بذلك انتقلت إلى ملكية واجدها، والتعبير بالفعل (أدها) فيه استنفار للهمة في إيصالها كاملة إلى صاحبها، دون محاولةٍ إلى مساومته في الحصول على جزء منها، ولو يسيرا، كما هو الحال من البعض اليوم، أو دفعها له على فترات وأقساط، ولعل في التعبير بهذا اللفظ خاصةً (الأداء) فيه ما يشير إلى أنها تعامل كمعاملة الأمانة في سرعة ردها وإيصالها كاملة، يقول الراغب: " الأداء: دفعُ الحق دفعةً وتوفيتُه " [3].

وإيثار التقييد بحرف الغاية (إليه) دون: (فأدها له) فيه ما يشير إلى سماحة نفس الملتقط في إعطائها لصاحبها عن طيب خاطر ورضا نفس ؛ إذ ربما يدفعه طولُ مدة وجودها عنده إلى الطمع فيها أو التنكر لصاحبها.

ولما وقف السائل على حكم اللقطة واستوفى جوانبه، إذا به يسأل النبي (ﷺ) عن ضالة الإبل، ظنا منه أنها تأخذ حكمها فقال: (فضالة الإبل ؟) وقد بنى سؤاله على الإيجاز بالحذف، فضالة الإبل مبتدأ، خبره محذوف، والتقدير: ما حكمها، بحذف المسند، إيجازا في الكلام وتصفية للعبارة بعدم ذكر ما هو معلوم ؛ لأن سؤال الرجل إنما يتعلق بمعرفة حكمها.

---

(١) ينظر: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل: ١٤٠، د/ فاضل السامرائي، دار عمار، عمان – الأردن.
(٢) عمدة القاري: ٢/ ١٠٩.
(٣) المفردات: ٢٣.

وقوله: (فضالة الإبل) من إضافة الصفة إلى الموصوف، والأصل: فالإبل الضالة ؟ وتقديم الصفة مما يتناسب مع حال السائل، فليس سؤالهُ عن ذات الإبل، بل عن أمر يتعلق بضياعها، ولذا قدَّم ما هو أعلق بغرضه.

وإنما وصف الإبل بالضوال ولم يعدها من قبيل اللقطة فيقول: فلقطة الإبل، وذلك لأن اسم (الضالة) لا يقع إلا على الحيوان، يقال: ضل الإنسانُ والبعيرُ وغيرهما من الحيوان فهي ضوال، وأما الأمتعة وما سوى الحيوان فيقال له لقطة، ولا يقال ضال [(١)].

ولعل في اختصاص الحيوان بلفظ (الضوال) فيه ما يشير إلى انعدام العقل فيه، فلما غاب عن صاحبه وتاه في الأرض أشبه من ضل عن الطريق وسار بغير هوى من أمره.

وسؤال هذا الرجل عن ضالة الإبل كان محل إثارة لدواعي الغضب عند النبي (ﷺ) و " إنما غضب لقلة فهم السائل ؛ لأن اللقطة إنما أبيح أخذها ؛ لأنها لا تصرف لها يوجب هدايتها إلى السبيل الذي يوقع صاحبها عليها، والإبل بخلاف ذلك " [(٢)]، وهذا يعني أنه ما كان ينبغي له أن يسأل عن هذا الأمر الواضح الجلي ؛ لأنها – الإبل – غير عادمة أسباب البقاء حتى يلقاها صاحبها، فما كان لهذا السائل أن يقيس أمرها على حكم اللقطة.

ويصور راوي الحديث هيئة غضبه (ﷺ) فيقول: (فغضب حتى احمرت وجنتاه) أو قال: (احمر وجهه) مما ينبئ عن شدة غضبه (ﷺ) حتى بدا أثره على وجهه.

وفي رواية (فتمعر وجه النبي) أي: تغير وجهه من الغضب، وأصل مادة (معر) في الشجر إذا قل ماؤه، فصار قليل النضارة، عديم الإشراق، ويقال للوادي المجدب أمعر [(٣)].

(١) ينظر: عمد القاري: ٢/ ١٠٩.
(٢) كشف المشكل من حديث الصحيحين، لابن الجوزي: ٢/ ٢٦٤، تحقيق: على حسين البواب، دار الوطن، الرياض.
(٣) ينظر: عمدة القاري: ١٢/ ٣٧٠.

وعلى هذا: فالتعبير بهذا الفعل جار على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، حيث استعير المعر لتغير الوجه، ثم اشتق منه (تمعر) بمعنى (تغير وجهه).

وهي تكشف في صورة محسة عن تغيُّر وجهه (ﷺ) عما هو معهود للصحابة من شدة الإشراق والاستنارة والنضارة.

ولما أدرك النبي (ﷺ) سوء فهم السائل واستقصار علمه كانت إجابته عليه بصيغة السؤال، تنبيها له وإثارة لقوى التفكير عنده، فقال: (ومالك ولها ؟) وهو استفهام إنكاري يشتم منه رائحة التوبيخ والتعجب من هذا السؤال، وبخاصة أنه يخاطب أعرابيا، بدليل ما جاء في إحدى الروايات من التصريح بأن السائل من الأعراب (جاء أعرابي النبيَّ (ﷺ) فسأله عما يلتقطه...) [(١)] وأمثال هؤلاء لا ينبغي أن يخفى عليهم أن الإبل الضالة لا يقاس حكمها على اللقطة ؛ لأن معها أسباب تعيُّشها، ولذا أنكر النبي (ﷺ) عليه السؤال عنها، فكأنه قال: ما شأنك بها ؟ ولم تأخذها ؟

والواو قبل (ما) الاستفهامية في (ومالك ولها ؟) نلمح فيها زيادة تعنيف وتصعيد من لهجة الإنكار والرفض للتعرض لها والحث على إخلاء سبيلها وتركها حتى يلقاها وبها.

والمراد بهذا الاستفهام " النهي عن التعرض لها ؛ لأن الأخذ إنما هو الحفظ على صاحبها، إمَّا بحفظ العين أو بحفظ القيمة، وهذه لا تحتاج إلى حفظ، لأنها محفوظة بما خلق الله فيها من القوة والمنعة، وما يسر لها من الأكل والشرب " [(٢)].

وقد أبان الرسول الكريم عن ذلك فقال: (معها سقاؤها وحذاؤها) ويبدو لأول وهلة أن سر الفصل بين هذه الجملة وسابقتها هو ما بينهما من كمال الانقطاع، فهي خبرية لفظا ومعنى، والسابقة عليها إنشائية لفظا ومعنى، وإن كنت أرجح أن علة الفصل لشبه كمال الاتصال، وكأن الجملة الأولى أثارت هواتف وخواطر في نفس هذا السائل فقال: ولم هذا الإنكار والرفض منك يا رسول الله؟، فقال: معها سقاؤها وحذاؤها.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب: في اللقطة، بَابُ ضَالَّةِ الإِبِلِ، رقم: (٢٤٢٧).

(٢) عون المعبود: ٥/ ٨٦.

وهذا الوجه أبين في الكشف عن الوشائج والصلات والروابط بين الجمل " وكأن بذرة الجملة الثانية مضمرة في الجملة الأولى.. ثم إن في طي هذه الهواتف وترك الإفصاح عنها والتعبير الجهير بها ضرب من وجازة الكلام واختصاره ودمجه واكتنازه " (١).

وتعبيره (ﷺ) بالجملة الاسمية دلالة على استمرارية هذا الوصف لها في كل أوقاتها وأن هذا هو شأنها الدائم، وكان في تقديم قوله (معها) الواقع خبرا مقدما، مزيد من التأكيد على أن معها حافظا من نفسها ملازما لها بدلالة حرف المعية، وفي هذا مزيد من الحث على تركها وعدم التعرض لها، حيث توفرت لها: " كل أسباب المعيشة من حذاء قوي صلب تسير عليه وهو خفها، وسقاء ضخم تحفظ به الماء وهو بطنها، ثم هذا هو العشب بين يديها، والماء موجود ترده ولو بعد أيام فتخزنه في بطنها فيرويها " (٢).

وتعبيره (ﷺ) وإن أريد به حقيقته إلا أن مقصوده الكناية عن عدم الخوف عليها من العطش والجوع، حيث ترد الماء وتأكل الأشجار دون أن يمنعها مانع، وهذا منه (ﷺ) أبلغ مما لو قال: (معها أسباب تعيشها وبقائها).

والمراد بالحذاء في الحديث: الخف الذي تسير عليه الإبل، حيث استعار النبي (ﷺ) هذا اللفظ من أصل معناه للخف الذي تسير عليه، بجامع: السير عليه ووقاية القدم في كل، وهي استعارة تصريحية أصلية، وقد قامت بدورها في التأكيد على قدرتها على السير وقطع البلاد الشاسعة والفيافي الصعاب.

كما استعار النبي (ﷺ) لفظ (السقاء) من أصل معناه وهو: القربة التي تتخذ من الجلد لوضع الماء فيها (٣)، استعار هذا اللفظ لجوف الإبل أو بطنها بجامع: تخزين الماء في كل، وقد جاءت هذه الاستعارة مصورة لما تتسم به الإبل من القدرة على تخزين الماء

(١) دلالات التراكيب: ٣١٢ بتصرف.

(٢) منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري، حمزة محمد قاسم: ٣/ ٣٥٨، راجعه: الشيخ عبد القادر الأرناؤوط، عني بتصحيحه ونشره: بشير محمد عيون، مكتبة دار البيان، دمشق - الجمهورية العربية السورية، مكتبة المؤيد، الطائف - المملكة العربية السعودية، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م

(٣) لسان العرب: (سقى).

في أكراشها والاستعانة بما في جوفها من المياه على مواصلة السير عدة أيام دون أن يصيبها أذى.

والاستعارة في كلا الموطنين تكشف في صورة محسة عن مقصده (ﷺ) من عدم التعرض لها والتقاطها إذا ضلت ؛ لأنها مأمونة على ذاتها بما معها ما شأنُه أن يحفظها من الضياع والهلاك " فبقاؤها حيث ضلت أقرب لأن يجدها ربها من أن يطلبها في أملاك الناس " [(١)]،ولذلك قيل يدخل في " معنى الإبل: الخيل والبغال والظباء وما أشبهها من كبار الدواب التي تمعن في الأرض وتذهب فيها " [(٢)] ، فهذا وأشباهه يلحق بالإبل في حرمة التقاطه ؛ لأن العبرة في النهي عن التعرض للإبل الضالة هو توافر عناصر الأمان لها، فكل ما توفر له ذلك يدخل في النهي عن إيوائه والتقاطه من أجل حفظه ولذلك استثنى البعض فقال: " اللهم إلا إذا كانت في أرض فيها قطاع طريق تخشى أن يأخذوها ويضيعوها على صاحبها، فلا بأس أن تأخذها حينئذ أو إذا كنت تعرف صاحبها فتأخذها لتردها عليه، فهذا لا بأس به " [(٣)] .

ورواية الحديث جاءت بتقديم قوله (ﷺ): (سقاؤها) على قوله: (حذاؤها) وفي روايات أخرى للحديث كان ترتيب النظم بالعكس، وكلٌّ بليغ في موضعه، فتقديم (سقاؤها) فيه مراعاة لظروف الحر، وتقديم (وكاؤها) فيه مراعاة لسيرها في الأماكن المتوعرة.

وجملة (ترد الماء وترعى الشجر) أجاز فيها الإمام بدر الدين العيني أن تكون بيانا لما قبلها، فلا محل لها من الإعراب، وأجاز فيها الرفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف، أي: هي ترد الماء [(٤)].

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم، للقاضي عياض، تحقيق: د/ يحيى إسماعيل: ٣/ ٦.

(٢) معالم السنن للخطابي: ٢/ ٨٨، تحقيق: عزت عبيد الدعاف، ط دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع – سوريا – ط أولى ١٣٩٣ هـ – ١٩٧٣ م.

(٣) شرح رياض الصالحين، محمد بن صالح بن محمد العثيمين: ٢/ ٦١٧ – دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: ١٤٢٦ هـ

(٤) ينظر: عمدة القاري: ٢/ ١٠٩.

وعلى الوجه الأول تكون الجملة فعلية دلالة على التجدد والاستمرار، وعلى الوجه الثاني: تكون الجملة اسمية حُذِف أحد ركنيها (المسند إليه) مبادرة في إثبات الخبر ؛ لأنه الأهم في بيان مقصده (ﷺ).

وعلى كلا الوجهين السابقين فالفصل بين هذه الجملة وسابقتها لكمال الاتصال، باعتبار الجملة الثانية بيانا لما قبلها، فاستغنت بذلك عن الرابط الخارجي، وذلك لما هو معلوم من أن المبيَّن والبيان كالشيء الواحد، ومن ثم لم تعطف الثانية على الأولى بالواو لامتناع عطف الشيء على نفسه، ولو جاء التعبير بالواو لآذن بالمغايرة بين معنى الجملتين.

والتعبير بصيغة المضارعة (ترد وترعى) فيه استحضار للصورة، ليكون ذلك أكثر تأثيرا في نفس السائل في عدم التعرض لها، كما لا يخفى ما بين ألفاظ (الماء – ترعى – الشجر) من تناسب آذن بتلاحم الكلام، وترابط أجزائه، وكان له أثره البالغ في التأكيد على توفر كل مقومات الحياة لهذه الإبل الضالة.

ولعل في تقديمه (ﷺ) لجملة (ترد الماء) على المعطوفة عليها، ما يتناسب مع ما هو معلوم من أن الماء هو أساس الحياة، وفي تعبيره (ﷺ) بـ (الشجر) دون (ترعى العشب) دلالة على كثرة الخير المتوفر لها صيفا وشتاء، وربما كان في التعبير به إشارة إلى ما تتمتع به الإبل من طول أعناقها، مما يسمح لها بتناول أوراق الشجر، ومن باب أولى ترعى ما نبت من أعشاب، وفي التعبير بالفعل (ترد) دون: تشرب الماء، إشارة إلى قدرتها على السير والورود إلى الماء بنفسها.

والفاء في الفعل (فذرها حتى يلقاها ربها) واقعة في جواب شرط محذوف، أي: إذا كان الأمر كذلك فذرها [1]، وفي هذا الحذف تصفية للعبارة ونفي للفضول عنها، وإشعار بمبادرته (ﷺ) إلى ذكر الأمر بتركها، لأنه الأهم في المعنى.

(١) ينظر: عمدة القاري:٢/ ١٠٩.

والأمر في الفعل (ذر) على حقيقته من وجوب تركها وحرمةِ عدِّها لقطة، والتعبير بمادة هذا الفعل وجرسه الذي يتميز بالخفة والطلاقة فيه ما يشي بالتشديد على واجدها من أن يتعرض لها، ولو من باب الخوف عليها من الضياع.

والتعبير بـ (حتى) الغائية يدل على أن عاقبتها مأمونة، لا يخشى عليها من الهلاك، فلا حاجة إلى أخذها، ولذا عبر بـ (يلقاها)، وذلك لما تدل عليه هذه الصيغة من أنه لقاء سهل على غير موعد، يقول الراغب: " اللقاء: مقابلة الشيء ومصادفته معا " [1] .

ولما أدرك السائل مقصد الرسول من نهيه عن التعرض لضالة الإبل حيث لا يخشى عليها من الهلاك، دفعه ذلك إلى السؤال عن ضالة الغنم ؛ لأن هذه حالها يختلف، فهي ضعيفة، يخشى أن تفترسها الحيوانات المفترسة فقال: فضالة الغنم ؟ وهو استفهام حقيقي، يقصد به الوقوف على حقيقة حكمها، وهو قائم على الإيجاز بالحذف – أيضا –، والتقدير: فضالة الغنم ما حكمها ؟

وجاءت إجابته (ﷺ) في غاية الإيجاز والدقة والتحديد فقال: (لك أو لأخيك أو للذئب).

والملاحظ أن هناك اتساقا بيِّنا بين سؤال الرجل وإجابة النبي (ﷺ)، حيث جاء السؤال على طريقة الإيجاز، وجاءت الإجابة متناغمة مع ما في السؤال من إيجاز، والتقدير: هي لك إن أخذتها، أو لأخيك إن لم تأخذها، أو هي للذئب إن لم يأخذها أحدكما.

ولا يخفى ما في الإيجاز – هنا – من تناغم مع حث النبي (ﷺ) على أخذها للحفاظ عليها والانتفاع بها بعد تعريفها كاللقطة، بخلاف ما جاء في إجابته (ﷺ) عن ضالة الإبل من بسط وتفصيل وبيان وإيضاح، هذا فضلا عن أن المحذوف معلوم لا يخفى على أحد، فكان حذفه نفيا للفضول من الكلام، وهذا من البلاغة النبوية العالية.

(١) المفردات:٤٥٦.

وإذا كانت رواية هذا الحديث – محل الدراسة – أضفت طابع الإيجاز على بيانه (ﷺ) فقد جاءت رواية أخرى للحديث تضفي طابع الإسهاب والإطناب بقوله (ﷺ): (خذها فإنما هي لك أو لأخيك أو للذئب) [(١)]، وفيها التأكيد الواضح على حِليَّة أخذها، بالتصريح بالأخذ والتأكيد بأسلوب القصر بـ (إنما)، وذكر المسند إليه.

وفي تقديم قوله: (لك) على (لأخيك) لأن المقام للانتفاع، وملتقطُها أحق بالانتفاع بها من ملتقِط آخر، وتقديم (لأخيك) على (للذئب) فيه حث على أخذها للانتفاع بها، إذ لا سبيل إلى تركها، لأن ذلك إضاعة للمال.

و(أو) في بيانه (ﷺ) للتنويع والتقسيم، استطاع النبي (ﷺ) من خلالها أن يستوفي الأقسام والأحوال التي تكون عليها ضالة الغنم، فهي إما لملتقطِها، أو لغيره أن لم يأخذها أو للذئب يأكلها لضعفها وعدم قدرتها على الدفاع عن نفسها، وليس وراء ذلك للشاة من ملتقط، ومن ثم جاء هذا التقسيمُ مطابقا لمقتضى الحال وفي غاية الملاءمة للمقام.

والتعبير بلفظ (أخيك) دون (أو لغيرك) فيه ما يشير إلى قوة الرابطة بين الجنس الإنساني كله، فالمهم هو انتفاع الإنسان بها أيا كانت ديانته، وهذا مما يشير إلى عظمة الإسلام في حرصه على نفع الإنسان أيا كان، وعدم إهدار المال طالما كان ذلك في حدود الشرع، وعدم الجور على حقوق الآخرين.

والتعبير بالذئب ليس بقيد، فالمراد جنس ما يأكل الشاة ويفترسها من السباع [(٢)]، ولعل في تخصيصه (ﷺ) له بالذكر ؛ لأن هذا الحيوان كان هو الأكثر شيوعا في مثل تلك البيئات، وهو الأكثر حرصا على افتراس الشياه بالأخص، ولذا يلحق بهذا الحيوان – الشياه – في حكمه غيره من الحيوانات الصغار التي لا تستطيع حماية نفسها أو القدرة على البقاء لمدة زمنية يتوقع أن يجدها صاحبها فيها، وهذا مما يعني أن هذا الحكم الخاص

(١) سنن ابن ماجه، أَبْوَابُ اللقطة، بَابُ ضَالَّةِ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ، رقم: ٢٥٠٤.
(٢) ينظر: عون المعبود: ٥/ ٨٥.

بالشياه " محمول على إذا ما وجدت في أرض فلاة، فأما إذا وجدت بين ظهراني عمارة فلا ؛ لأنه لا يؤمن عليها هناك والأفضل تركها " (١).

ولا يخفى على القارئ الكريم تلك المقابلة المعنوية بين حكمه (ﷺ) على ضالة الغنم وحكمه على ضالة الإبل، فالأُولى حثَّ النبيُّ (ﷺ) على أخذها مراعاة لحالها ؛ لأنها ضعيفة معرضة للهلاك والثانية أمر بتركها لاستغنائها بما جعله الله في أصل خلقتها من الجلادة على العطش، والقدرة على تناول المأكول من الشجر بغير تعب، وكان لهذه المقابلة أثرها البالغ في إظهار المعاني المتعلقة بكل منهما في صورة قوية واضحة، مع عقد مقارنة بينهما، مما ساعد على تحديد تلك الأحكام المتعلقة بهما في الذهن تحديدا قويا بالغا.

(١)كشف المشكل من حديث الصحيحين (٢/ ٢٦٤).

المقام الثاني عشر: غضبه (ﷺ) في مقام النهي عن التشبه بخلق الله (التصوير واتخاذ التماثيل)

عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْقَاسِمِ، عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ سمع عَائِشَةَ، تَقُولُ: دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ (ﷺ)، وَقَدْ سَتَرْتُ سَهْوَةً لِي بِقِرَام فِيهِ تَمَاثِيلُ، فلما ؟؟ هتكه ؟تلو؟ ؟جهه وَقَالَ: «يَا عَائِشَةَ أَشَدُّ النَّاسِ عَذَاباً عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللهِ» قَالَتْ عَائِشَةَ: «فَقَطَعْنَاهُ فَجَعَلْنَا مِنْهُ وِسَادَةً أَوْ وِسَادَتَيْنِ»[١].

لقد حرصت الشريعة الإسلامية على تحذير أتباعها من كل مظاهر الوثنية وما يفضي بهم إلى الانزلاق إلى عقيدة الشرك – والعياذ بالله –، وقد دلت الأحاديث النبوية على أن الصور والتماثيل كانت وسيلة لنشر الوثنية في الأمم السابقة، ففي حديث أم سلمة وأم حبيبة قوله (ﷺ): " **أُولَئِكِ إِذَا مَاتَ مِنْهُمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، ثُمَّ صَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّورَةَ أُولَئِكِ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ** "[٢].

وقد روي أن الأصنام التي عبدها قوم نوح (ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا) كانت أسماء لأناس صالحين من قوم نوح، فلما ماتوا اتخذ قومهم لهم صورا تذكرهم بهم وبأعمالهم، ثم انتهي الحال آخر الأمر إلى عبادتهم.

ذكر الثعلبي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ۝٢٣﴾[٣] أنه قال: " هذه الأصنام أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشياطين إلى قومهم أن انصبوا في مجالسهم التي كانوا يجلون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم تذْكُرُوهم بها، فَلَمْ تُعْبَد، حتى إذا هلك أولئك ونُسِخَ العلم عبدت من دون الله "[٤].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب: اللِّبَاسِ وَالزِّينَةِ بَابُ لَا تَدْخُلُ الْمَلَائِكَةُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ، حديث رقم: (٢١٠٧).

(٢) صحيح البخاري، كِتَابُ الجَنَائِزِ، بَابُ بِنَاءِ المَسْجِدِ عَلَى القَبْرِ، رقم: ١٣٤١.

(٣) سورة نوح: ٢٣.

(٤) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن، عبد الرحمن السعدي:(٨٨٩) تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ –٢٠٠٠ م.

قال أبو بكر ابن العربي: "والذي أوجب النهي في شريعتنا -والله أعلم- ما كانت عليه العرب من عبادة الأوثان والأصنام، فكانوا يصورون ويعبدون فقطع الله الذريعة، وحمى الباب" (١).

ويدخل النبي الكريم ذات يوم على السيدة عائشة وقد سترت سهوة لها بستر رقيق به صورة (قرام فيه تماثيل)، فيتلون وجهه ويغضب، ويمزق الستر ويفسده، ثم ينادي على أم المؤمنين محذرا إياها: يا عائشة.... الحديث.

وفي استهلال بارع وابتداء فازع يفرغ النبي الكريم تحذيره للسيدة عائشة وكل من يسلك مسلكها ولكنه لا يلقي المعنى غفلا ساذجا، وإنما يضفي على بيانه لمحات من الإنذار والوعيد، مبادرة منه بالعقاب والتهديد الذي يخلع القلوب وتقشعر به الجلود، حتى تدرك النفس قيمة الفعل وقدر عقوبته، ومن ثم تفر منه هربا وتكف عنه زجرا.

وقد استهل النبي (ﷺ) بيانه بالنداء على السيدة عائشة نصحا وإرشادا وإثارة لاهتمامها وبعثا لها إلى الإصغاء لما بعد النداء للوقوف على معناه، وتلك بلاغة عالية من نبينا الكريم ؛ لأن الأمر المنادى إذا جاء بعد النداء صادف نفسا يقظة متطلعة إلى المعنى، فيثبت ويتمكن فيها فضل تمكن ويزداد حرصها على الامتثال والاستجابة.

وبعدما تهيأت النفس وتشوقت إلى معرفة ما ينادى من أجله الرسول (ﷺ) يأتي الأمر المنادَى في ثوب الجملة الاسمية (أشد الناس...) الدالة على الثبوت والدوام، مبالغة في التحذير، ونفيا وقطعا للرجاء في تخفيف العذاب، حتى تزدجر نفس كل من تسول له ارتكاب الفعل.

وتبدو دقة التعبير النبوي في إيثار التعبير بلفظ (أشد) دون غيره من البدائل اللغوية كلفظ (أعظم) أو (أكثر) لما يوحيه الأول من معاني القسوة والتغليظ والألم المضني، مبالغة منه (ﷺ) في التنفير من الفعل والتحذير من ارتكابه.

(١) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام لابن الملقن المصري: ١/ ٦٧٥، تحقيق: عبد العزيز بن أحمد بن محمد المشيقح، دار العاصمة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

وصيغة (أشد) أفعل تفضيل، ومعلوم أنها تقتضي اشتراك شيئين في صفة ما، وزيادة أحدهما عن الآخر في تلك الصفة، والمفاضلة – في سياق هذا الحديث – ليست على إطلاقها بين فئة المصورين وغيرهم من الناس مطلقا، بل هي بين فئة المضاهين لخلق الله وغيرهم من المعذَّبين، وهذا يعني تفاوت دركات العذاب، وأن تلك الفئة بلغت الذروة في النكاية والعذاب فكانوا أشد الناس عذابا يوم القيامة.

وتلك المبالغة في العقاب في غاية المناسبة للمقام ؛ لأن المقام تحذير من المضاهاة لخلق الله، وهي ذريعة إلى الاشراك بالله – وسبحانه – يغفر الذنوب جميعا سوى الإشراك به.

و (أل) في (الناس) للعهد، فهو لفظ عام يصدق على جميعهم، ولكن دلالة المقام تصرفه إلى فئة معينة، وهم الذين يضاهون بخلق الله، ترهيبا وتغليظا لهم، وتحذيرا بليغا لمن يسلك مسلكهم.

و"العذاب: كل ما يعيي الإنسان ويشق عليه، وأصله في كلام العرب: من العذب وهو المنع، يقال: عذبته عذابا إذا منعته، وسمي الماء عذبا ؛ لأنه يمنع العطش، فسمى العذاب عذابا لأنه يمنع المعاقب من معاودة مثل جرمه، ويمنع غيره من مثل فعله "[1].

وتنكير (عذابا) مبالغة في إيجاعه وإيلامه، وتهويلا من شدته وقوته، وقوله (ﷺ): (أشد الناس) فيه إبهام وغموض لما فيه من العموم، فجاء التمييز (عذابا) ليزيل هذا الإبهام والغموض، مما كان له أثره في تأكيد المعنى وتقويته، وتمكينه في النفس فضل تمكين.

وقوله (عند الله) قيد يربي المهابة في النفوس ويغرس الخشية في القلوب، وذلك باستحضار عظمة الله – تعالى – إيذانا بقدرته الغالبة وسلطانه القاهر، وفي هذا تشنيع وتقريع بالغ على مرتكبي تلك المعصية.

ومعلوم أن (عند) اسم لمكان الحضور أو زمانه [2] فإن أضيفت إلى مكان كانت ظرف مكان، وإن أضيفت إلى زمان كانت ظرف زمان، وهي من الظروف عادمة

(١) شرح النووي على مسلم: ٢/ ١٠١.

(٢) ينظر: مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام الأنصاري: ٢/ ٤٤٥، تحقيق: د/ عبد اللطيف محمد الخطيب، دار التراث العربي، الكويت – ط الأولى – ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠ م.

التصرف ولا تستعمل إلا مضافة، ولا يفارقها النصب على الظرفية إلا مجرورا بمن، وهي لبيان كون مظروفها حاضرا حسا أو معنى، وإضافتها إلى رب العزة- سبحانه – تعتبر من قبيل الحضور المعنوي[1].

وقوله (ﷺ): (يوم القيامة) جاء تتميما للمعنى، وتحديدا للدلالة، وتحريرا للمراد، وهو قيد يؤكد عظم الوعيد، باستحضار مشاهد وأهوال ذلك اليوم المهيب، يوم المجازاة والخزي على رؤوس الأشهاد، والتحديد بهذا القيد في ظل هذا المقام مما يربي المهابة ويضاعف الخشية من ارتكاب فعل المضاهاة لخلق الله.

وهذا التحذير البالغ منه (ﷺ) يُظْهِر حرصَه على الأمة كلها بأن تظل فطرتها الإيمانية نقية مما قد يشوبها من مظاهر الشرك والخلل في العقيدة.

وبعد أن أذكى النبي (ﷺ) دواعي الشوق والإثارة في نفس السيدة عائشة وكل من يسمع بيانه لمعرفة هذا الصنف الذين حكم عليهم بأنهم أشد الناس عذابا يأتي البيان باسم الموصول (الذين يضاهون بخلق الله)، وذلك مما يبرز الوصف الذي أحالهم إلى هذا العقاب الشديد، ولولا الاسم الموصول لكان النظم: (أشد الناس عذابا.. المضاهون لخلق الله)، فالتعبير بالاسم الموصول – في هذا السياق – مكَّن من التعبير بالفعل المضارع (يضاهون) الذي يستحضر تلك الصورة المنفرة والتي ترتب عليها هذا الوعيد الشديد.

و (يضاهون بخلق الله) أي " يشبهون ما يصنعونه بما يصنعه الله "[2].

كل هذا وما يزال أمر هذا الخاسر مبهما، وقلوب السامعين ترتجف خوفا وتستعر شوقا إلى الوقوف على حاله كاملا فيأتي القيد (بخلق الله) ليوقفنا على جرمه الذي أودى به إلى هذا المصير.

ونظم هذا القيد يكشف عن قبح هذا المسلك فباء الملابسة تنبئ عن أن مضاهاتهم ملابسة لأبشع صورة وأشدها جرما، وهي المضاهاة (بخلق الله) بالإضافة إلى اسم

(١) ينظر: شرح التسهيل لابن مالك: ٢/ ٢٣٤ – ٢٣٥، تحقيق: د/ عبد الرحمن السيد وآخرون، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع – ط الأولى، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.

(٢)فتح الباري لابن حجر: (١٠/ ٣٨٧).

الجلالة، إضافة تخصيص، فعملية الخلق من خصوصياته – سبحانه – فمن الوقاحة أن يتجرأ أحدُ خلقهِ فيضاهي الخالق في صنعته – جل في علاه –، وهذا مما يصعد الإنكار إلى أقصى درجاته، ويغلظ التحريم، ويزيد في الترهيب.

والتعبير باسم الجلالة من إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، إذ مقتضى الظاهر أن يعبر بالضمير فيقال: (الذين يضاهون بخلقه) لسبق اسم الجلالة في قوله (عند الله) والتعبير به فيه تربية للمهابة، باستحضار أهيب أسمائه (الله) فهو " أعظم الأسماء، لأنه دال على الذات الجامعة لصفات الألوهية كلها بخلاف باقي الأسماء، فإن كلا منها لا يدل إلا على بعض المعاني من علم أو فضل أو قدرة أو غيرها "[(١)].

وبمعاودة النظر في نظم الحديث نجد أن الحديث كان يمكن بناؤه بناءً آخر يتوافق مع ما هو في الواقع من تأخر الجزاء عن الفعل، فيكون البناء: (يا عائشة الذين يضاهون بخلق الله أشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة).

والسؤال: ما السر البلاغي في مجيء نظم الحديث على ما حكاه بيان النبوة ؟

وأقول: إن البدء بذكر الجزاء وتقديمه على الفعل الذي استدعاه تفخيم لشأنه وتهويل من أمره في خلد السامع لتذهب نفسه كل مذهب في تصوره، ولو أخر الجزاء عن الفعل لم يكن له هذا الموقع من البلاغة، وقد أعان على تمكين هذا الجزاء اللاذع في النفس وترسيخه ما اتسم به من طول يشوق النفس إلى ذكر ما بعده.

وهكذا أفرغ النبي (ﷺ) هذا المعنى التحذيري في صياغة اتسمت بالقوة والجزالة، وخلعت على المعنى التهديد البالغ في صورة من شأنها أن ترجف القلوب وتقرع الأسماع، وقد امتزجت ألفاظ الحديث كلها مزجا جعل الحديث نسقا بليغا في شكله ومضمونه.

(١) الفتوحات الإلهية للجمل: ٢/ ٦٥٥، مطبعة مصطفى الباب الحلبي – دار المنار – القاهرة.

المقام الثالث عشر: غضبه (ﷺ) في مقام النهي عن لبس الثياب المعصفر

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ (ﷺ)وَعَلَيْهِ ثَوْبَانِ مُعَصْفَرَانِ، فغضب?لنبي(ﷺ) وَقَالَ: «اذْهَبْ فَاطْرَحْهُمَا عَنْكَ» قَالَ: أَيْ نَبِيَّ اللَّهِ؟ قَالَ: «فِي النَّارِ»[1].

لقد حرص الإسلام على أن يُبْعد رجال الأمة عن كل ما يخدش في رجولتهم، مما فيه تشبه بالنساء، حتى يظل للرجال سمتهم الذي يميزهم ويليق بهم كأناس يتحملون عبء تكاليف هذه الرسالة، ولذلك حرَّم عليهم الذهب والحرير، ونهى عن لبس الثياب المعصفرة[2].

وفي هذا الحديث ينفر النبي (ﷺ) الرجال عامة من لبس تلك الثياب، وعلة حظره على الرجال تتمثل في أمرين:

١- ما فيه من التشبه بالنساء، يدل على ذلك رواية عبد الله بن عمرو قال: رأى النبي (ﷺ) عليَّ ثوبين معصفرين فقال: أأمك أمرتك بهذا ؟ قلت: أغسلهما ؟ قال: بل احرقهما "[3]، قال النووي في معناه: " هذا من لباس النساء وزِيِّهن وأخلاقهن"[4].

(١) سنن النسائي، كِتَابُ الزِّينَةِ، ذِكْرُ النَّهْيِ عَنْ لُبْسِ الْمُعَصْفَرِ،رقم: ٥٣١٧، ت: عبد الفتاح أبو غدة، ط مكتبة المطبوعات الإسلامية ـ حلب ط ثانية ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

(٢) عصْفَر الثَّوبَ وغيرَه: صبغه بالعُصْفُرِ وهو نبات يُستخرج منه صبغ أصفر ويستخدم زهرُه تابلاً في الطعام. ينظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، د أحمد مختار عبد الحميد عمر: (٢/ ١٥٠٩)، عالم الكتب، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

(٣) صحيح مسلم، كتاب اللِّبَاسِ وَالزِّينَةِ، بَابُ النَّهْيِ عَنْ لُبْسِ الرَّجُلِ الثَّوْبَ الْمُعَصْفَرَ، رقم:٢٨/ (٢٠٧٧).

(٤) شرح النووي على مسلم: (١٤/ ٥٥).

٢- ما فيه من التشبه بالكفار، يدل على ذلك قوله (ﷺ): " إن هذه من ثياب الكفار فلا تلبسها " [١].

ومن هنا تظهر بوادر الغضب على نبينا الكريم عندما أتى عليه سيدنا عبد الله بن عمرو وعليه ثوبان معصفران فيقول له: اذهب فاطرحهما عنك... الحديث.

وفي حديث مباشر موجز، وبيان تقريري مركز، يهجم الرسول الكريم على الغرض من أول الأمر، ويقبض على المقصود قبضا ويصفيه، ويوفر انتباه السامع لتلقيه، ينفر النبي (ﷺ) من لبس الثياب المعصفرة، ويوجِّه هذا الصحابي الجليل بتلك الكلمات الحاسمة الصارمة القاطعة، وتصديرُ الكلام بهذا الأسلوب الخطابي اللافت إبرازا لأهمية الطلب وإظهارا للعناية به، والتعبير بهذا الفعل (اذهب)، وكان من الممكن أن يكون بيانه (ﷺ) (اطرحهما عنك) هكذا مباشرة، دون تصدير كلامه بأمره بالذهاب، فيه ما يوحي بكراهية النبي (ﷺ) لرؤية هذا المشهد ولو للحظات قليلة، ولذا أمره بالذهاب عنه أولا، ولم يحدد له مكانا أو وجهة معينة يذهب إليها، لأن المهم أن يكون منه ذهاب وبعد.

ومن الواضح أن النبي (ﷺ) لم يناقشْه في شأن تلك الثياب التي يرتديها، وإنما عمد إلى توجيهه مباشرة إلى إزالتها عن جسده، توفيرا منه على الغرض المقصود، والتعبير بالفاء في (فاطرحهما) بهمستها البارقة، ولمحتها الخاطفة، مما يتناغم مع مقصوده (ﷺ) في سرعة إزالتها عن جسده، فربما يذهب الرجل وبعد فترة يطرحهما عنه، ولكن التعبير بالفاء فيه إيحاء بعدم التواني في هذا الشأن.

وتتناغم الألفاظ جميعها في الدلالة على هذا المعنى، فيعبر النبي (ﷺ) بفعل (الطرح) دون الخلع، أو الرمي، أو الإلقاء مثلا ؛ وذلك لما يفيده من إلقاء الشيء وإبعاده مع قلة الاعتداد به [٢]، وكذا التعبير بضمير الغيبة (هما) تحقيرا وتزهيدا واستخفافا وصونا للسان عن ذكرهما.

---

(١) صحيح مسلم، كتاب اللِّبَاسِ وَالزِّينَةِ، بَابُ النَّهْيِ عَنْ لُبْسِ الرَّجُلِ الثَّوْبَ الْمُعَصْفَرَ، رقم:٢٧/ (٢٠٧٧).

(٢) ينظر: المفردات: ٣٠٥.

ومما يؤازر تلك الدلالة التعبير بـ (عن) بما فيها من معاني المجاوزة والمباعدة والمزايلة، تأكيدا على وفور الرغبة في تحقيق ذلك وسرعة الانصياع له، وهذا من التناسب الدلالي بين الحرف (عن) والفعل (اطرح) فكلاهما ينبئ عن معنى المجاوزة والإبعاد.

ويبادر الصحابي الجليل بسؤال النبي (ﷺ) عن مكان طرحها فيقول: (أين يا رسول الله ؟) وهنا يؤدي الإيجاز بالحذف دورا بارزا في الكشف عن نفسية المتكلم ؛ إذ استدعت حالتُه تقطير الكلام وتصفية العبارة، وفي هذا ضرب من الاختصار، وتركيز يجسد القلق وعدم الاستقرار، والتلهف إلى معرفة الجواب مسارعة إلى المطلوب، وتقدير المحذوف: أين أطرحها يا رسول الله ؟، ومما يتسق مع لهفة الرجل إلى معرفة الجواب،أنه أخر نداءه على الرسول (ﷺ) ولم يكن بيانه: يا رسول الله أين أطرحها ؟ ؛ وذلك لأنه حريص على إزالة ما اقترفه من معصيةٍ أغضبت النبي (ﷺ).

ويستشعر النبي (ﷺ) ما بدا على الرجل من تلهُّف، فيقابل إيجازَه في سؤاله بالإيجاز في الإجابة عنه فيقول: (في النار) وهما متعلقان بفعل محذوف تقديره: اطرحها في النار، وهذا المحذوف من شأنه أن يصفى العبارة، ويقوي حبكها، ويشد سرها، ويوفر العناية على سرعة الإلقاء في النار، محوا لتلك المعصية وإزالة لسببها.

و(أل) في (النار) للعهد الذهني (العلمي) ؛ لأن المراد بها نار الدنيا، ومما يؤكد ذلك رواية (بل احرقها)، إمعانا في الإفناء والخلاص، قال النووي: " وأما أمره (ﷺ) بإحراقها، فهو عقوبة وتغليظ لزجره وزجر غيره عن مثل هذا الفعل "[1]. وروايات الحديث يفسر بعضها بعضا.

ولعل في قوله (ﷺ): (في النار) تذكيرا بنار الآخرة، لأنه إن لم يحرقها في نار الدنيا حرقته نار الآخرة.

والله أعلى وأعلم.

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح: (٧/ ٢٧٧١).

الخَاتِمَة

أحمد الله -تبارك وتعالى-، وأصلى وأسلم على خاتم أنبيائه ورسله، نبينا محمد وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

?بعـــد،،،

فبعد تلك المعايشة الممتعة مع بيانه (ﷺ) في تلك المواقف التي كانت محل إثارة لغضبه (ﷺ) يمكن إيجاز أهم النتائج التي أسفرت عنها تلك الدراسة المتواضعة فيما يلي:

(١) كان لكل حديث طابع بلاغي خاص يميزه، وقد جاء متناغما مع السياق والمقام الذي أثار كوامن الغضب في نفسه (ﷺ).

(٢) تبين حرص الرواة لتلك الأحاديث على تصوير المقام الذي أثار غضبه (ﷺ) بكل تفاصيله وجزئياته، وهذا يتناسب مع ما كان لديهم من يقين بأن دقة التبليغ عن رسول (ﷺ) من صميم الدين ومن الأمانات التي حملوها.

(٣) جاءت أوصافهم لهيئة غضبه (ﷺ) في غاية الدقة، كاشفة عن الجانب النفسي لدى النبي (ﷺ) ومتناسبة مع مقدار غضبه ومتناغمة مع مقام كل حديث.

(٤) اقتضت تلك المقامات أن تُصاغَ عباراته (ﷺ) في بيان قوي فخم، تتسم ألفاظه – أحيانا – بالشدة الموحية بالرهبة، وقد جاءت تعكس مشاعر الغضب عنده (ﷺ).

(٥) لم يترك النبي (ﷺ) صحابته متلبسين بتلك المواقف التي أثارت غضبه دون توجيه، وهذا يتفق مع حكمته (ﷺ) وهديه، فكان إذا ذكر للناس ما هو ممنوع ومحرَّم أعقب ذلك بذكر ما هو جائز ومباح، حتى لا تسد الأبواب عليهم، وهذا ما يشير إلى رفقه بأمته، ويسر شريعته.

(٦) اتضح من خلال البحث أن النبي (ﷺ) لم يُقْصِر خطابه على الأشخاص الذين كانوا محل إثارة لتلك المواقف التي استدعت غضبه، بل جاء خطابه – في أغلب تلك الأحاديث – عاما، مبالغة في الزجر عن الفعل ؛ لأن التحذير كلما كان عاما كان أوقع في النفس وأشد زجرا لها من ارتكاب الفعل المحذر منه، هذا فضلا عما يوحيه هذا التعميم من وجوب إشاعة الالتزام بالبعد عن الأمر المنهي عنه والذي كان محل إثارة غضبه (ﷺ).

(٧) جاء بيانه (ﷺ) في أغلب تلك الأحاديث متسما باللهجة الحاسمة والنغمة الحادة، وذلك لأن غضبه (ﷺ) في تلك المواقف لم يكن لذاته، بل جاءت متعلقا بأمور تخالف شريعته وهديه (ﷺ) ونهى عنها ديننا الحنيف.

(٨) إذا كان السمت الغالب على تلك الأحاديث هي الألفاظ الموحية بالشدة والرهبة والقوة المتناسبة لمقام الغضب، فقد رأينا ألفاظه (ﷺ) عندما تعلق الأمر بشخصه في مقام الاعتراض على قسمته في توزيع الغنائم تقطر رحمة وشفقة وهدوءا وسكينة، مما يؤكد ما هو معلوم من أنه (ﷺ) لم يكن ليغضب لنفسه إلا أن تنتهك حرمة من حرمات الله.

(٩) كثر التعبير بأساليب النهي في بيانه (ﷺ) وقد جاءت متناغمة مع تلك المواقف حرصا منه (ﷺ) على الكف والترك والابتعاد عن تلك الأفعال والإشارة إلى درجة أعلى في الإلزام وإرادة الانتهاء.

(١٠) كثيرا ما أتبع النبي (ﷺ) هذا النهي ببيان علته، حرصا منه (ﷺ) على استمالة السامعين إلى الطاعة والامتثال، والبعد عن تلك المواقف التي لا تتوافق مع صحيح الدين وهدى الإسلام.

(١١) كان لأسلوب الاستفهام أثره البالغ في إثارة نفوس الصحابة وجذب انتباههم، حثا على الاستماع، وتصحيحا لما بدر من بعضهم من مواقف أثارت غضبه (ﷺ).

(١٢) اتضح من خلال البحث ندرة صور المجاز، وقد جاء ذلك متناسبا مع مقام الغضب، حيث حرص النبي (ﷺ) على البعد عن تلك الملابسات المثيرة لغضبه، ومن ثم لم تكن هناك حاجة إلى المبالغة التي تحملها صور المجاز.

(١٣) استعان النبي (ﷺ) أحيانا – أسلوب التعريض، تحذيرا منه من الاستمرار على تلك الأمور التي أثارت غضبه أو المعاودة إليها والوقوع فيها مستقبلا.

(١٤) كثيرا ما صاغ النبي (ﷺ) مطلوبه في أسلوب الشرط اللافت، حرصا منه على تحقيق مرغوبه من الاستجابة لما يحمله جواب الشرط، وقد جاء هذا الجواب كثيرا مصدَّرا بالفاء مما يكشف عن حرصه (ﷺ) على فورية الامتثال وسرعة الاستجابة، ومبالغته في الطلب.

(١٥) ظهر أيضا من خلال البحث تكاتف عناصر التأكيد في تلك الأحاديث وكان لها دورها البارز في تقرير المعاني في النفوس وفتح نوافذ القلوب للاستجابة لتوجيهه (ﷺ) والبعد عن هذا الفعل الذي أثار غضبه(ﷺ).

(١٦) جاء نظم تلك الأحاديث – في معظمها – مبنيا عل الإيجاز، وقد جاء ذلك متناغما مع مقام الغضب ومتفقا مع ما استقر لدى البلاغيين من أن مقام (الضيق والضجر) من أهم مقامات الحذف ودواعيه.

وفي النهاية أسأل الله – تعالى – أن يتقبل هذا العمل ويجعله لوجهه خالصا، إنه نعم المولى ونعم النصير.

المصادر والمراجع

(١) الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي، تحقيق: طه عبد الرءوف سعيد، المكتبة التوفيقية – بدون تاريخ.

(٢) ارتشاف الضرب من لسان العرب لأبي حيان الأندلسي، تحقيق: د/ مصطفى أحمد النماس، مطبعة المدني – القاهرة – ط أولى – ١٤١٤ هـ - ١٩٨٤ م

(٣) الأزهية في علم الحروف لعلي بن محمد الهروي:، ت/ عبد المعين الملوحي – مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، ط ٢، ١٤٢٣ هـ - ١٩٩٣ م.

(٤) الأساليب الإنشائية في النحو العربي، عبد السلام هارون – مكتبة الخانجي – القاهرة – ط ٥ – ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

(٥) الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، د/ صباح عبيد دراز، مطبعة الأمانة – ط الأولى – ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

(٦) استثمار الأسلوب العدولي في تذوق النص القرآني، د/ عيد محمد شبايك،، مجلة كلية الآداب – جامعة المنوفية – العدد الثامن – يناير ٢٠٠٤ م.

(٧) الاستعارة نشأتها وتطورها وأثرها في الأساليب العربية، د/ محمود السيد شيخون، مكتبة الكليات الأزهرية، ط ٢ – ١٩٨٠ م.

(٨) الاستفهام في الصحيحين – خصائصه التركيبية ومعانيه البلاغية: عبد العزيز العمار، منشورات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩م.

(٩) أسرار الحروف ضمن (أصول اللغة العربية)، أحمد زرقة، ط: دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق، ط: أولى، ١٩٩٣ م.

(١٠) أسرار الفصل والوصل في البلاغة القرآنية، د/ صباح دراز، مطبعة الأمانة، ط أولى، ١٤٠٦ – ١٩٨٦ م.

(١١) أسلوبية السؤال (رؤية في التنظير البلاغي)، د/ عيد بلبع، دار الوفاء، المنصورة، ط ١، ١٩٩٩ م.

(١٢) الأصول في النحو لابن السراج النحوي البغدادي، ت: د/ عبد الحسين الفتلي – مؤسسة الرسالة، ط ٣، بدون.

(١٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، للأستاذ/ مصطفى صادق الرافعي،ط دار المنار – مكتبة فياض – ط الأولى ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م.

(١٤) الإعلام بفوائد عمدة الأحكام لابن الملقن المصري، تحقيق: عبد العزيز بن أحمد بن محمد المشيقح، دار العاصمة للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م.

(١٥) إكمال المعلم بفوائد مسلم، للقاضي عياض، تحقيق: د/ يحيى إسماعيل، دار الوفاء، الطبعة الأولى ـ ١٤١١ هـ/ ١٩٩٨ م.

(١٦) الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين لابن الأنباري، ت: د/ جودة مبروك، د/ رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط الأولى، ٢٠٠٢ م.

(١٧) أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك لابن هشام الأنصاري، دار الجيل – بيروت – لبنان – ط ٥ – ١٣٩٩ هـ – ١٩٧٩ م.

(١٨) بحوث في علم المعاني، أد/ رفعت إسماعيل السوداني– ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م.

(١٩) بدائع الفوائد لابن القيم الجوزية، تحقيق: هشام عطا وآخرون، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، ط الأولى ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م.

(٢٠) البرهان في علوم القرآن للزركشي – دار الفكر – ١٤٢٥ هـ – ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥ م.

(٢١) البلاغة العربية أسسها وعلومها وفنونها، د/ عبد الرحمن حبنكة:، دار القلم – دمشق – ط الأولى – ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م.

(٢٢) البيان والتبيين، أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تحقيق: أ/ عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة، مطبعة المدني، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.

(٢٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للإمام المباركفوري، ت. أ/ عصام الصبابطي. دار الحديث، القاهرة،ط أولي، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠١ م.

(٢٤) تحويلات الطلب ومحددات الدلالة مدخل إلى تحليل الخطاب النبوي الشريف، د/ حسام أحمد قاسم، دار الآفاق العربية، ط الأولى، ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م.

(٢٥) التشويق في الحديث النبوي الشريف (طرقه وأغراضه)، د/ بسيوني عبد الفتاح فيود: ٧٣، ط الحسين الإسلامية، ط أولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.

(٢٦) تطريز رياض الصالحين فيصل النجدي، تحقيق: د/ عبد العزيز آل حمد، الناشر: دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة: الأولى، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.

(٢٧) تفسير التحرير والتنوير الطاهر ابن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع - بدون.

(٢٨) تفسير السعدي = تيسير الكريم الرحمن، عبد الرحمن السعدي، تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م.

(٢٩) تفسير القرآن العظيم لابن كثير- مؤسسة المختار للنشر والتوزيع- القاهرة - ط الثالثة - ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م.

(٣٠) التوضيح لشرح الجامع الصحيح التوضيح لشرح الجامع الصحيح لابن الملقن تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الناشر: دار النوادر، دمشق - سوريا، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

(٣١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.

(٣٢) الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م.

(٣٣) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، تأليف: السيد أحمد الهاشمي، دار الفكر - ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.

(٣٤) حاشية الصبان على شرح الأشموني، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، المكتبة التوفيقية – ط: أولى – بدون

(٣٥) الحذف البلاغي في القرآن الكريم، مصطفى عبد السلام أبو شادي، مكتبة القرآن الكريم، القاهرة، بدون.

(٣٦) حروف المعاني لأبي القاسم الزجاجي، ت: د/ على توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة – بدون.

(٣٧) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: أبو نعيم الأصبهاني، الناشر: السعادة – بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م.

(٣٨) خصائص التراكيب د/ محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة، ط خامسة، ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠ م.

(٣٩) الخصائص لابن جني، ت/ محمد على النجار الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط الرابعة – ١٩٩٩ م.

(٤٠) دراسات منهجية في علم البديع، د/ الشحات أبو ستيت، دار خفاجي للطباعة والنشر، ط أولى ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤ م.

(٤١) دراسة في البلاغة والشعر، د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة – ط الأولى – ١٤١١ هـ – ١٩٩١ م.

(٤٢) دلالات التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د/ محمد أبو موسى، ط: الثانية، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٧ م، مكتبة وهبة.

(٤٣) دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٠ م

(٤٤) الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، بعلم مراتب الحروف ومخارجها وصفاتها وألقابها لأبي محمد مكي، ت: أحمد حسن فرحات، ط: دار عمار – الأردن، ط: ثالثة – ١٤١٧ هـ – ١٩٩٦ م.

(٤٥) روائع التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي)، جمع وترتيب: أبي معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، دار العاصمة – المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى ١٤٢٢ – ٢٠٠١ م.

(٤٦) روح الاجتماع، د/ جوستاف لوبون، ترجمة من اللغة الفرنساوية المرحوم: أحمد فتحي زغلول باشا، صححه ونشره: توفيق الرافعي، المطبعة الرحمانية بمصر، الطبعة الثانية.

(٤٧) روح المعاني للألوسي، دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان.

(٤٨) سبل الاستنباط من الكتاب والسنة دراسة بيانية ناقدة، د/ محمود توفيق سعد، مطبعة الأمانة، القاهرة ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٢ م.

(٤٩) سنن ابن ماجه، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وآخرون، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة: الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

(٥٠) سنن أبي داود، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا – بيروت.

(٥١) سنن الترمذي، تحقيق وتعليق/ إبراهيم عطوة، طبع مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر ط الثانية ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

(٥٢) سنن النسائي ت: عبد الفتاح أبو غدة، ط مكتبة المطبوعات الإسلامية ـ حلب ط ثانية ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

(٥٣) سير أعلام النبلاء للذهبي، مؤسسة الرسالة، سنة النشر: ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

(٥٤) شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ت: د/ محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة الإيمان، المنصورة، بدون.

(٥٥) شرح أحاديث من صحيح البخاري دراسة في سمت الكلام الأول، د/ محمد أبو موسى، مكتبة وهبة – ط أولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

(٥٦) شرح التسهيل لابن مالك، تحقيق: د/ عبد الرحمن السيد وآخرون، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع – ط الأولى، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.

(٥٧) شرح التصريح على التوضيح للشيخ/ خالد الأزهري، وبهامشه حاشية العلامة يس، طبعة عيسى الباب الحلبي.

(٥٨) شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي، الناشر: المكتب الإسلامي – بيروت – الطبعة الرابعة، ١٣٩١ هـ.

(٥٩) شرح الكافية في النحو لابن الحاجب – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.

(٦٠) شرح المشكاة للطيبي الكاشف عن حقائق السنن للطيبي، د. عبد الحميد هنداوي، الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة – الرياض)، الطبعة: الأولى، ١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م.

(٦١) شرح المفصل لابن يعيش، إدارة الطباعة المنيرية – مصر – بدون.

(٦٢) شرح النووي على مسلم، ط دار إحياء التراث العربى – بيروت ط ثانية ١٣٩٢هـ.

(٦٣) شرح رياض الصالحين، محمد بن صالح بن محمد العثيمين – دار الوطن للنشر، الرياض، الطبعة: ١٤٢٦ هـ

(٦٤) شرح صحيح البخاري لابن بطال، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد – السعودية، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣ م.

(٦٥) شروح التلخيص " مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

(٦٦) صحيح ابن حبان، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م

(٦٧) صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

(٦٨) صورة الأمر والنهي في الذكر الحكيم، د/ محمود توفيق سعد، مطبعة الأمانة – مصر – ط الأولى – ١٤١٣ هـ – ١٩٩٣ م.

(٦٩) طرح التثريب في شرح التقريب، للإمام أبي الفضل العراقي، ط دار الكتب العلمية (بيروت – لبنان) بدون.

(٧٠) الطريق من هنا: الشيخ الغزالي، ط دار الشروق – بدون.

(٧١) الظرف خصائصه وتوظيفه النحوي، د/ المتولي علي المتولي الأشرم، مكتبة جزيرة الورد، المنصورة – بدون.

(٧٢) عروس الأفراح – ضمن شروح التلخيص، للبهاء السبكى، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.

(٧٣) علم الأصوات اللغوية، مناف مهدي علام، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ط: أولى، ١٩٩٨ م.

(٧٤) علم المعاني، د/ بسيوني فيود، مؤسسة المختار، ط الثانية – ١٤٣١ هـ – ٢٠١٠م.

(٧٥) علم المعاني،د/ صباح عبيد دراز، مطبعة التركي بطنطا ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م.

(٧٦) عمدة القاري شرح صحيح البخاري للعيني، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

(٧٧) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لا بن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع – القاهرة ٢٠٠٦ م.

(٧٨) عون المعبود شرح سنن أبى داود لمحمد شمس الدين الحق أبادى، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤١٥ هـ.

(٧٩) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر أبو الفضل العسقلاني، تحقيق: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩ هـ.

(٨٠) الفتوحات الإلهية للجمل، مطبعة مصطفى الباب الحلبي – دار المنار – القاهرة.

(٨١) الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، منشورات: محمد على بيضون، دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – ط أولى – ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠ م.

(٨٢) فقه بيان منهجا وحركة، د/ محمود توفيق سعد، مطبعة الأمانة، ط: أولى، ١٤١٣ هـ – ١٩٩٢ م.

(٨٣) في البحث الصوتي عند العرب، د/ خليل إبراهيم العطية، منشورات دار الجاحظ – بغداد ١٩٨٣ م.

(٨٤) فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي، ط المكتبة التجارية الكبرى – مصر، الطبعة: الأولى، ١٣٥٦ هـ.

(٨٥) قوت المغتذي على جامع الترمذي، جلال الدين السيوطي، إعداد الطالب: ناصر بن محمد بن حامد الغريبي، رسالة دكتوراة - جامعة أم القرى، مكة المكرمة - كلية الدعوة وأصول الدين، قسم الكتاب والسنة- ١٤٢٤ هـ.

(٨٦) الكشَّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، شرحه وضبطه وراجعه: يوسف الحمادي - مكتبة مصر - القاهرة – بدون.

(٨٧) كشف المشكل من حديث الصحيحين، لابن الجوزي، تحقيق: على حسين البواب، دار الوطن، الرياض.

(٨٨) كوثر المعاني الدراري في كشف خبايا صحيح البخاري، محمَّد الشنقيطي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

(٨٩) لسان العرب للإمام العلامة ابن منظور، دار إحياء التراث العربي – مؤسسة التاريخ العربي – بيروت – لبنان – الطبعة الثانية ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م

(٩٠) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، د/ فاضل السامرائي، دار عمار، عمان – الأردن.

(٩١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لا بن الأثير، تحقيق: أحمد الحوفي، و بدوي طبانة، الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة ـ القاهرة.

(٩٢) مذكرات في علم المعاني، أد/ رفعت السوداني وآخرون – بدون.

(٩٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للملا علي القاري، دار الفكر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠٢ م.

(٩٤) المزهر في علوم اللغة للسيوطي، ت/ فؤاد على منصور، دار الكتب العلمية – بيروت – ط: أولى، ١٤٨٣ هـ - ١٩٩٨ م.

(٩٥) مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرناؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

(٩٦) مصنف عبد الرزاق، لأبي بكر عبد الرزاق الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: المجلس العلمي- الهند، المكتب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣ هـ.

(٩٧) المطول، المكتبة الأزهرية للتراث – الطبعة الأولى – أحمد كامل – ١٩٨٣ م.

(٩٨) معالم السنن للخطابي، تحقيق: عزت عبيد الدعاف، ط دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع - سوريا - ط أولى ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م.

(٩٩) معاني النحو، د/ فاضل صالح السامرائي، ط: دار الفكر – الرابعة –٢٠٠٩ م – ١٤٣٠ هـ.

(١٠٠) معجم ابن الأعرابي، تحقيق وتخريج: عبد المحسن بن إبراهيم بن أحمد الحسيني، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.

(١٠١) المعجم الكبير للطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية – القاهرة، الطبعة: الثانية.

(١٠٢) معجم اللغة العربية المعاصرة، د أحمد مختار عبد الحميد عمر، عالم الكتب، الطبعة: الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م.

(١٠٣) المعجم الوافي في أدوات النحو العربي، د/ على توفيق الحمد، وأ/ يوسف جميل الزغبي، دار الأمل، الأردن، ط الثانية، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.

(١٠٤) مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام الأنصاري، تحقيق: د/ عبداللطيف محمد الخطيب، دار التراث العربي، الكويت – ط الأولى – ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠ م.

(١٠٥) مفاتيح الغيب للرازي ، دار الفكر – ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.

(١٠٦) المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهانى: (٤٨٤، ٤٨٥)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية – دمشق - بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤١٢ هـ.

(١٠٧) مقاييس اللغة لابن فارس، تحقيق وضبط: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٨ م.

(١٠٨) من أسرار البيان في حديث سيد الاستغفار، أ د/ رفعت إسماعيل السوداني، بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية بإيتاي البارود - العدد الحادي والعشرون - ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.

(١٠٩) من أسرار النظم القرآني في سورة القلم، أ د/ رفعت إسماعيل السوداني، مطبعة الأمانة، الطبعة الأولى - ١٩٩١ م.

(١١٠) من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم (الفاء وثم)، للدكتور: محمد الأمين الخضري، مكتبة وهبة - القاهرة - الطبعة الثانية - ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٧م.

(١١١) من دقائق البيان النبوي في صيغة التلبية: أد/ رفعت إسماعيل السوداني، بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية بإيتاي البارود عدد ٢٠٠٣ م.

(١١٢) منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري، حمزة محمد قاسم، راجعه: الشيخ عبد القادر الأرناؤوط، عني بتصحيحه ونشره: بشير محمد عيون، مكتبة دار البيان، دمشق - الجمهورية العربية السورية، مكتبة المؤيد، الطائف - المملكة العربية السعودية، عام النشر: ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م.

(١١٣) مناهج البحث في اللغة، د/ تمام حسان، دار الثقافة - الدار البيضاء، ط الثانية، ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م.

(١١٤) المنهاج شرح صحيح مسلم بن حجاج للنووي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢ هـ.

(١١٥) الموافقات للشاطبي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة: الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

(١١٦) موسوعة الأعمال الكاملة للإمام ابن قيم الجوزية: جامع الفقه، جَمَعَهُ وَوثّقَ نُصُوصَهُ وَخَرّجَ أَحَادِيثَهُ: يسري السيد محمد، نشر وتوزيع: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة، و دار الوراق للنشر والتوزيع - الطبعة الأولى - ١٤٢١ هـ.

(١١٧) نحو المعاني، د/ أحمد عبد الستار الجواري، مطبعة المجمع العلمي العراقي – ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م.

(١١٨) النحو الوافي، أ/ عباس حسن – دار المعارف – مصر – ط الثالثة ١٩٧٤ م.

(١١٩) النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير، تحقيق: أ/ محمود الطناخي، و أ/ طاهر الزاوي – دار إحياء التراث العربي – بيروت – بدون.

(١٢٠) الواو ومواقعها في النظم القرآني، د/ محمد الأمين الخضري، رسالة دكتوراه – مخطوط بكلية اللغة العربية – جامعة الأزهر – القاهرة – ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣م.

فهر ??لأحا?يث ?لنبوية

?لتي قامت عليها ?لد??سة

م	راوي الحـــــديث	مطلـــــع الحـــــديث	الصفحة
١	أَبو هُرَيْرَةَ	أبِهَذا أمِرْتُمْ أمْ بِهَذا أرْسِلْتُ إلَيْكُمْ	٦٨٤
٢		لاَ تُفَضِّلُوا بَيْنَ أنْبِيَاءِ اللَّهِ	٥٨٧
٣	أَبِو مَسْعُود الأَنْصَارِيِّ	يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ	٦٤٧
٤	الأَعْمَشِ	يَرْحَمُ اللَّهَ مُوسَى، قَدْ أُوذِيَ بِأَكْثَرَ مِنْ هَذَا فَصَبَرَ	٥٨٢
٥	أَنَس بْنِ مَالِكٍ	إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ فِي صَلاَتِهِ فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ	٦٦٨
٦		مَا رَأَيْتُ فِي الخَيْرِ وَالشَّرِّ كَاليَوْمِ قَطُ	٦٠٥
٧	زَيْد بْنِ ثَابِتٍ	مَا زَالَ بِكُمْ صَنِيعُكُمْ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُكْتَبُ عَلَيْكُمْ	٦٥٨
٨	زَيْد بْنِ خَالِدٍ الجُهَنِيِّ	وَمَا لَكَ وَلَهَا، مَعَهَا سِقَاؤُهَا وَحِذَاؤُهَا	٦٩٥
٩	عَائِشَةَ	اللهُمَّ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، فَأَيُّ الْمُسْلِمِينَ لَعَنْتُهُ، أَوْ سَبَبْتُهُ فَاجْعَلْهُ لَهُ زَكَاةً وَأَجْرًا	٦٢٣
١٠		مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَرْغَبُونَ عَمَّا رُخِّصَ لِي فِيهِ،	٦٣٩
١١	عَبْد الرَّحْمَنِ بْنِ الْقَاسِمِ	أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللهِ	٧١٠
١٢	عَبْد اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو	اذْهَبْ فَاطْرَحْهُمَا عَنْكَ	٧١٥
١٣		إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، بِاخْتِلَافِهِمْ فِي الْكِتَابِ	٦٧٩

فهرس الموضوعات

الموضـــــــــــوع	الصفحة
مقـــدمـــــة..	٥٨١
• من مقامات غضبه (ﷺ) في البيان النبوي	٥٨٦
• المقام الأول: غضبه (ﷺ) في مقام النهي عن التفاضل بين الأنبياء..........	٥٨٧
• المقام الثاني: غضبه (ﷺ) في مقام الإلحاف في مساءلته......................	٦٠٥
• المقام الثالث: غضبه (ﷺ) في مقام من لعنه أو سبه أو دعا عليه وليس هو أهلا لذلك	٦٢٣
• المقام الرابع: غضبه (ﷺ) في مقام الاعتراض على قسمته الغنائم.........	٦٣٥
• المقام الخامس: غضبه (ﷺ)في مقام تنزه بعض الصحابة عن الأخذ برخصه	٦٣٩
• المقام السادس: غضبه (ﷺ) في مقام التطويل في الصلاة......................	٦٤٧
• المقام السابع: غضبه (ﷺ) في مقام الحث على صلاة النافلة في البيت........	٦٥٨
• المقام الثامن: غضبه (ﷺ) في مقام رؤيته للنخامة في جدار القبلة...........	٦٦٨
• المقام التاسع: غضبه (ﷺ) في مقام الاختلاف في الكتاب......................	٦٧٩
• المقام العاشر: غضبه (ﷺ) في مقام التنازع في القدر............................	٦٨٤
• المقام الحادي عشر: غضبه (ﷺ) في مقام سؤاله عن ضالة الإبل............	٦٩٥
• المقام الثاني عشر: غضبه (ﷺ) في مقام النهي عن التشبه بخلق الله (التصوير واتخاذ التماثيل)................................	٧١٠
• المقام الثالث عشر: غضبه (ﷺ) في مقام النهي عن لبس الثياب المعصفر...	٧١٥
الخاتمـــــــة..	٧١٨
المصادر والمراجع..	٧٢١
فهرس الأحاديث النبوية..	٧٣٢
فهــــرس الموضوعات..	٧٣٣